


منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

# الأعمال الكاملة

## للأديب الأستاذ

## عبدالله عبدالرحمن الجفري

---

## الجزء الأول

---

### المجموعات القصصية




كتاب الاثنينية
(٣٢)

# الأعمال الكاملة

## للأديب الأستاذ
## عبد الله عبد الرحمن الجفري

الجزء الأول

المجموعات القصصية

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدة

ح عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٦هـ

***فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر***

الجفري ، عبد الله عبد الرحمن

الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الله عبد الرحمن الجفري . / عبد الله عبد الرحمن الجفري .- جدة ١٤٢٦هـ

(٦ مج ٤٢٢٠ ص) الجزء الأول ٤٣٢ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٣٢)

ردمك ٠-٨٢٧-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٩-٨٢٨-٤٧-٩٩٦٠ (ج١)

١ - الأدب العربي - مجموعات ٢ - الجفري ، عبدالله عبدالرحمن

٣- الأدباء السعوديون أ- العنوان

ديوي ٨١٠,٩٥٣١ ٢٣٨١/١٤٢٦

رقم الإيداع : ٢٣٨١/١٤٢٦

ردمك : ٠-٨٢٧-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٩-٨٢٨-٤٧-٩٩٦٠ (ج١)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

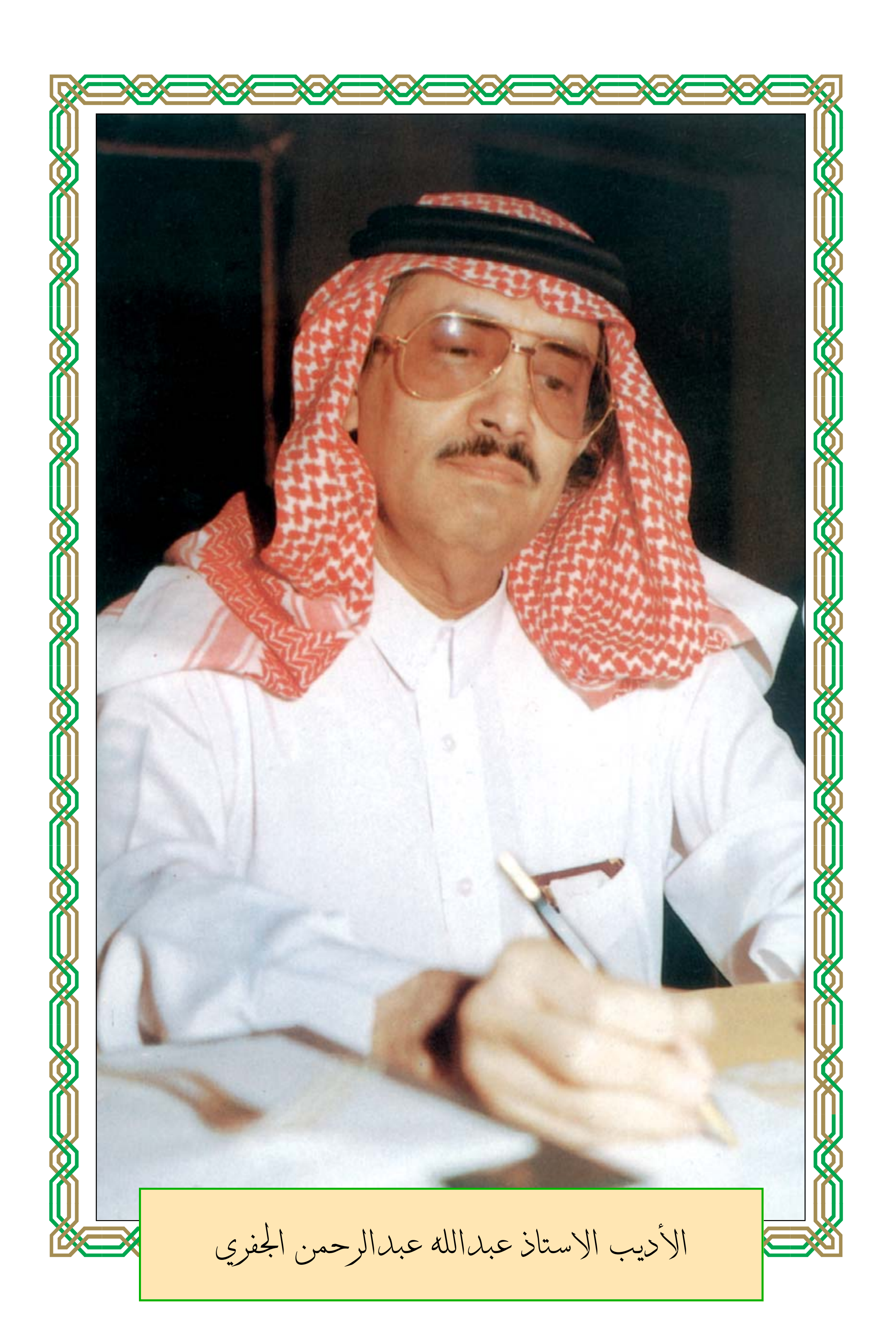
صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية



الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدة



الأديب الاستاذ عبدالله عبدالرحمن الجفري




بمناسبة اختيار

مكة المكرّمة عاصمة للثقافة الإسلامية

لعام ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م،

أهدي هذا العمل لمؤلفي

"وحي الصحراء":

والدي

محمد سعيد عبدالمقصود خوجه

و رفيق دربه

عبدالله عمر بلخير

–يرحمهما الله –

# فهرس

# الأعمال الكاملة

# فهرس المحتويات

# المقدمة

لقد ازدهرت «الاثنينية» وواصلت مسيرتها وهي تمتح من معين النور في مكة المكرمة مستلهمة فضائل أم القرى من موقع انعقاد فعالياتها بجدة «بوابة الحرمين الشريفين».. وكان لا بد لهذا القرب الجغرافي من إلقاء ظلاله على ما يمكن أن يقدمه هذا المنتدى في مناسبة تاريخية مثل اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية، وإن كانت مكة المكرمة دائماً وأبداً موئل العطاء وإشعاع الثقافة والفكر منذ نزول «اقرأ» بغار حراء على سيد الخلق وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ.

والحمد لله الذي ألهمني التوجه إلى بر والدي، وصديق عمره معالي الشيخ عبد الله بلخير «رحمهما الله»... ذاكراً فضل معاليه عليَّ بالتوجيه والرعاية في دروب الحياة المختلفة.. فقد غرسا في نفسي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حب الكتاب... وكانت البذرة التي أخرجت ما تيسر من السنابل والحبوب كتابهما القيم (وحي الصحراء) الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٣٥٥هـ، بصفته أول عمل أدبي معاصر يرصد جانباً من نتاج أدباء الحجاز بتراجمهم ونماذج من أعمالهم.. وقد أعادت «تهامة» طباعته للمرة الثانية عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وكان من فضل الله بما أفضلت به «تهامة» في قمة عطائها إصدار كتاب «محمد سعيد عبد المقصود خوجه حياته وآثاره» للأستاذ الدكتور محمد بن

سعد بن حسين، من سلسلة الكتاب العربي السعودي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.. ثم شرفت بإصدار سلسلة [كتاب الاثنينية] كرافد يوازي [سلسلة أمسيات الاثنينية] وتحت مظلته صدر كتاب «عبد الله بلخير شاعر الأصالة والملاحم العربية والإسلامية» للأستاذ محمود رداوي، في طبعاته: الأولى عام ١٤١١هـ/١٩٩١م، والثانية ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، والثالثة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.. وأردف بكتاب «عبد الله بلخير يتذكر» للدكتور خالد باطرفي (ط١ ـ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ثم كتاب «الغربال» للأستاذ حسين الغريبي (ط١ ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).. ثم كتاب «الأعمال الكاملة للشاعر أحمد إبراهيم الغزاوي» الذي صدرت طبعته الأولى في ستة أجزاء (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).. وكتاب «المجموعة الكاملة لآثار الأديب السعودي محمد سعيد عبد المقصود خوجه» للأستاذ حسين الغريبي (ط١ ـ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ـ وبين هذه الإصدارات وبعدها ـ أصدر [كتاب الاثنينية] مجموعة أخرى، إلا أن التي نوهت عنها ذات ارتباط مباشر بكتاب «وحي الصحراء» الذي استلهمت منه فكرة الأعمال الكاملة لكل أديب أسهم فيه بأنموذج من أعماله.

وبدأت مرحلة شاقة من البحث، وحصر الأعمال، التي كان معظمها متناثراً أو لدى الورثة الأفاضل الذين حافظوا عليها مشكورين، واستجابوا للإعلانات التي نشرتها في مختلف الصحف، إلى أن تجمعت حصيلة طيبة خضعت لمعايير صارمة من المراجعة والتدقيق أثناء مراحل الطباعة المختلفة... وقد أكرمنا الله عز وجل بطباعة هذه الكتب التي تقدمها «الاثنينية» بكل اعتزاز بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية ما بين عامين وعام من المناسبة المذكورة، وظلت في المستودعات لترى النور وتتلازم مع هذه الفعاليات.. ويسعدنا تقديم:

ـ الأعمال الكاملة للأستاذ حسين سراج (١٠ أجزاء).

ـ أخبار مكة للأزرقي (جزءان في مجلد واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحميد عنبر (جزء واحد).

ـ الأعمال الشعرية والنثرية للأديب الشاعر الأستاذ أحمد العربي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء (٥ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الوهاب إبراهيم آشي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان (٧ أجزاء).

ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأديب الأستاذ محمد صالح باخطمة (جزء واحد).

ـ الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة للأستاذ محمد إسماعيل جوهرجي (٥ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان علي (٤ أجزاء).

ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأستاذ مصطفى زقزوق (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ إبراهيم أمين فودة (٤ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد عمر عرب (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الله عبد الرحمن الجفري (٦ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للشاعر الأستاذ علي حسن أبو العلا (جزءان).

ـ عكاظ لندن (جزء واحد).

ويلاحظ القارىء الكريم أن هناك أعمالاً لم تكن ضمن كتاب «وحي الصحراء» إلا أن أصحابها الأفاضل لهم ريادة وعلاقة وثيقة بهذا التوجه... أي إنها تنصهر كلها في بوتقة حب مكة المكرمة زادها الله تشريفاً وتعظيماً.

سائلاً الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها المسلمين ويجعلها خيراً يسهم في إثراء مكتبتنا العربية والإسلامية.

والله الموفق وهو من وراء القصد،،

**عبد المقصود محمد سعيد خوجه**

# كلمة الناشر

## بقلم: عبد المقصود محمد سعيد خوجه

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد، خير من تعلم وأعلم بالله عزّ وجلّ، وعلى آل بيته الكرام الطاهرين وصحابته أجمعين.

يعلم الكثيرون أن الأستاذ السيد عبد الله الجفري كبير في أدبه، وخلقه، ومعاناته.. حمل دهشة الكلمة وبهاءها وركض بهما في عرصات الحياة، اختلط عرقه النابض بوجدانه مع حبر قلمه فكانت هناك وشيجة قوية بين العرق الناتح والحبر النازف.. كلماته لا تنفك عن «معاناته» لذلك عندما توعَّك قلبه خلال فترات، وألزمه مراجعة المشافي، كنت أقول دائماً إن القلب الكبير لم يتحمل زخات الألم التي يفرضها صدق العاطفة والتفاعل مع الكلمات.. غير أن من يطأ جمر الكلمات يجد لها لذة في صميم الوجدان، فيظل ضاغطاً عليها إذ فيه الروح والسلوى.. أو هكذا قدر أستاذنا السيد الجفري.. وما زال «الوجار» ملاذه في كل حين.

لقد أبدع السيد الجفري الكلمة بمختلف محاورها وطرق تناولها.. تعامل معها بمهنية الصحفي وإمكاناته الكبيرة وعلاقاته الواسعة.. وتناولها

من منظور الأديب القاص، فكتب القصة وكأنه لم يفرغ لشأن سواها في حدقة الحرف.. ثم تناول الرواية فسكب فيها خلاصة فنه فخرج بها من المحلية إلى الإقليمية، بل شارفت تخوم العالمية.. وكل ذلك تحت مظلة الأدب الرفيع، والكلمة التي لا تخدش الحياء ولا تلامس الخطوط الحمراء، ذلك أن العمل الأدبي عند أستاذنا السيد الجفري فن لا يجوز التعدي على جمالياته بتشويهها عمداً أو سهواً.. ظلت الكلمة تمثل بالنسبة إليه أرجوحة تهدهد كيانه قبل أن يطلقها حمامات محبة وسلام وأمن وطمأنينة.

عُرف أستاذنا السيد الجفري بأسلوبه الخاص الذي يميل إلى «الرومانسية» ووجد تجاوباً لدى شريحة كبيرة من المتلقين.. ولاسيما أن كاتبنا الكبير قد أطل على محبيه من خلال بعض أشهر الصحف العربية. فأتاح له مقعده في مقدمة «الآلة الإعلامية» مكاناً مميزاً استطاع من خلاله أن يرسخ معالم مدرسته ويرسم ملامحها بتؤدة وهدوء شديدين.. فكان له ما أراد من شفافية لامست قلوب معظم القرّاء في وقت ظن الكثيرون أن «الرومانسية» كأسلوب كتابي قد انقرضت منذ منتصف القرن الميلادي المنصرم.. وربما بقي منها هامش ضعيف يرتاده شداة الأدب وطلاب المدارس.. إلا أن الأيام أثبتت غير ذلك، وبدا واضحاً النهم الشديد والحرص الكبير الذي يتابع به المتلقون كتابات الأستاذ السيد الجفري.. فالمادة التي سيطرت على هذا العصر «الطباشيري» لم تقتل بعد كل الزهور البرية التي يمكن أن يضوع أريجها إذا وجدت اليد الحانية التي تتعامل معها من منطلق «الحب» وتعرف كيف تنتشلها من وهدة «الأنا» إلى قمة الإبداع الذي يتلاشى في الآخر.. ويسطر معه أروع أناشيد الحياة.

لقد عمل أستاذنا السيد الجفري طويلاً.. طويلاً.. وبجهود مضنية لكي يصل صوته وصهيل كلماته وصدى حنجرته الخاصة إلى كل الناس.. إن الصباح لم يدرك السيد الجفري ليسكت عن الكلام المباح.. فأرخى عنان (وجده) لتتحد كلماته مع آمال وتطلعات المرأة على امتداد حرف الضاد.. كانت المرأة ولم تزل: أماً، وشقيقة، وزوجة، وابنة، وملهمة، محور الكثير من كتاباته وروائعه التي شكلّت جانباً مهماً من قاعدته العريضة وسط مجتمع القرّاء والمثقفين.. وقد استطاع أن يحرك بحيرة الإبداع حاملاً في إحدى يديه قوس قزح، وفي الأخرى قلماً يستطيع أن يردع به بعض الأفكار الهلامية والظلامية التي تحاول بين الفينة والأخرى النيل من مشروعه الثقافي والأدبي.. وإن كنت أحسبه لا يأبه كثيراً لمن يغمزون في الظلام، أو الراقصين على السلالم.

لقد حازت الأعمال الأدبية لأستاذنا السيد الجفري على إعجاب المتلقين في وقت صدورها وتلقفوها من بين صفحات الجرائد والمجلات واحتفظ البعض منهم بأعداد مما تضمن نشره في حلقات.. وفي ذلك عبء واضح على كاهل المتلقي الذي تتنافس على وقته كثير من القنوات الإعلامية والفضائية ذات الوهج والوميض الذي قد يخلب اللب بغض النظر عن فحواه ومحتواه، ثم أتت هذه الأعمال الكاملة بتعاون مشكور من أديبنا الكبير لتجعل التواصل مع هذا الفن الأصيل ميسوراً بغير انقطاع.. كما يمنح الدارس والناقد مضماراً فسيحاً لتناولها بالبحث والتحليل والتشريح وفق منظور كل مهتم بالشأن الثقافي والفكري من خلال قراءة هذه الأعمال.

إن الوشل لا يغني عن النهر.. فنحن إزاء أديب كبير لم تهزه الرياح

ولم يغيره المديح والثناء أو الجحود والنكران.. ظل صامداً في وجه تغيرات الزمان، رفيقه كتاب، وأهزوجة حب يترنّم بها مع ابتسامة صافية في كل مكان وزمان.. ومهما قيل عنه يبقى أعمق وأقوى وأصلب من صرير الأقلام وحفيف الكلمات.. إنه يحمل بين جوانحه عظمة الكاتب وعبقرية الفنان.. كسر طوق المحلية بتلمس أجمل ما فيها ثم الإضافة إليه من إبداعاته المبهرة، وأعاد طرحه على العالم العربي، فكان التجاوب الكبير ـ من داخل المملكة أولاً ـ بما تشتمل عليه من لهجات وتعابير خاصة بكل منطقة بحيث يمكن الحكم على شخص بمجرد تناوله طرفاً من الحديث.. ثم دخل قوياً معتداً بنفسه وبانتمائه الوطني إلى معترك الساحة العربية الكبرى، فعرف الأستاذ عبد الله الجفري أديباً متمكناً في كثير من الدول العربية وغيرها من مواطن الاغتراب في أوروبا وأمريكا.. لقد ظل كاتبنا المبدع أميناً في أسلوبه المميز، لم يقلد أحداً وأحسب أن أحداً لم يستطع مجاراته بذات الدقة والمهارة.. فكان فريداً في عطائه، غنياً بقاموسه، متفرداً بأفكاره، عفوياً في تناوله للقالب القصصي مما جعل «الجفري الصحفي» يكاد يختفي في إهاب «الجفري الأديب» أو القاص/ الروائي على وجه التحديد.

ثمة منعطف لا بد من التوقف عنده، ولا سيما في هذا العصر «الفضائي» فحب الأستاذ السيد عبد الله الجفري للكتاب طغى على كل ما سواه.. ظل يركض خلف الكتاب في كل مكان، لم يترك معرضاً للكتاب أو ملتقى يليق بقامته وقيمته إلا وكان السبَّاق إليه مهما بعدت الشقة وشط المزار.. ومن هذا الولع الكبير بالقراءة استمد موسوعته الثقافية التي لا تضاهى، وأصبحت الكتابة بالنسبة إليه نوعاً من المشاركة التفاعلية مع

مخزونه الفكري الثقافي، كما أنه كثيراً ما يرغد القارئ بمعارف جيدة تضيف إلى حصيلته معلومة إن لم تكن بالجديدة فإنها لا تخلو من طرافة أو تذكير بما لا تحتفظ به الذاكرة، فهو دائم الرجوع إلى مكتبته ومصادره الخاصة.

والجدير بالذكر أن مدرسة «الرومانسية» التي أثرت بشكل أو آخر على إبداعات كاتبنا الكبير لم تحتكر تفكيره على الإطلاق.. بل مارس وبشفافية كبيرة التعامل مع مشكلات مجتمعه بصورة يومية من خلال أعمدة الصحف التي لم تضن عليه بنوافذها نحو القراء، كما لم يبخل عليها بقناديل النور ولحظات الإشراق الماتعة.

إن الجانب الحضاري الذي مثله كاتبنا المبدع كإضافة حقيقية لمنجزنا الثقافي والأدبي يستحق كل تقدير واحترام، فإذا اختلف الناس حول الأستاذ السيد الجفري ما بين مؤيد ومعارض، فإن ذلك يمنحه بطاقة العبور إلى مصاف الكبار الذين يمثلون دائماً رقماً لا يمكن تجاوزه تجاهلاً أو استهانة.. ويبقى الفيصل في نهاية المطاف بأيدي جمهرة القراء من الجنسين على امتداد ربوع الضاد، باعتبارهم أصحاب المصلحة الحقيقية في الناتج الأدبي والفكري الذي يجد مكاناً في أوقاتهم المزدحمة.

وبحمد الله تأتي هذه المجموعة الكاملة لتجد طريقها إلى القارئ الكريم بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.. فهذا قلم أحد أبنائها مغموساً في شرايينه، مغسولاً بدموعه، متفاعلاً بكل خلجات نفسه.. آملاً أن يجد لديكم القبول، وأن نسعد أكثر وأكثر بتواصل عطائه الجميل، وألق بهائه الرائع.

ولي كلمة ختام لا يعرفها إلا الراسخون في معرفة «أبو وجدي» يجب

أن أقولها لأقول ما قلت صدقاً وأمانة.. لا بد أن تقبل «سيدنا» كما هو كاتباً وقبل ذلك صديقاً وحبيباً متقبلاً سجاياه.. متقبلاً منطقه الذي لا تملك إلا احتراماً وتقديراً لأصله وفصله وعبقريته وأن تثني على ما يقول أو على الأقل لا يزعجك ما لا تتفق معه فيه مهما وكيف ومتى كان أو يكون.

والله الموفق..

**عبد المقصود محمد سعيد خوجه**

**جدة: ٢٤ ربيع الآخر ١٤٢٦هـ ـ ١ يونيه/حزيران ٢٠٠٥م**

# إصدارات كتاب الاثنينية

**١ ـ ديوان (الأعمال الكاملة).**

لمعالي الأستاذ أحمد بن محمد الشامي، (رقم ١) الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

**٢ ـ كتاب (عبد الله بلخير شاعر الأصالة والملاحم العربية والإسلامية).**

لمؤلفه الأستاذ محمود رداوي، (رقم ١/١) الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

**٣ ـ ديوان (عاصفة الصحراء).**

للشاعر الأستاذ محمود عارف، (رقم ١/ ٢) الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

**٤ ـ ديوان (الأربعون).**

للأستاذ عبد السلام هاشم حافظ، (رقم ١/ ٣) الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

**٥ ـ ديوان (قلبي على وطني)**

للشاعر العراقي الأستاذ يحيى السماوي، (رقم ١/ ٤) الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

**٦ ـ كتاب (جرح باتساع الوطن).**

للشاعر الأستاذ يحيى السماوي، (رقم ١/ ٥) الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

**٧ ـ ديوان (حصاد الغربة)**

للشاعر العراقي الدكتور زاهد محمد زهدي، (رقم ٦/١) الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

**٨ ـ ديوان (الأعمال الكاملة)**

للأستاذ الراحل زكي قنصل، (رقم ٢) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

**٩ ـ كتاب (البهاء زهير)**

للأستاذ المرحوم محمد إبراهيم جدع، (رقم ٣) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

**١٠ ـ كتاب (التوازن معيار جمالي)**

للأستاذة غادة بنت عبد العزيز الحوطي، (رقم ٤) الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

**١١ ـ كتاب (سوانح وآراء)**

للأستاذ الدكتور بدوي طبانه، (رقم ٥) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

**١٢ ـ كتاب (ترجمة حياة)**

لمعالي الأستاذ محمد حسن فقي، (رقم ٦) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

**١٣ ـ ديوان (قوس قزح)**

لفضيلة معالي الدكتور الشيخ أحمد الزرقاء، (رقم ٧) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

**١٤ ـ كتاب عبد العزيز الرفاعي من المهد إلى اللحد (الجزء الأول).**

للأستاذ الشاعر أحمد سالم باعطب، (رقم ٨) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٦٦م.

**١٥ ـ كتاب عبد العزيز الرفاعي من المهد إلى اللحد (الجزء الثاني)**

للأستاذ الشاعر أحمد سالم باعطب، (رقم ٨) الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

**١٦ ـ ديوان الأعمال الكاملة (الجزء التاسع)**

لمعالي الأستاذ محمد حسن فقي، (رقم ٩) الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

**١٧ ـ ديوان (أوراق من هذا العصر)**

للشاعر الدكتور خالد محي الدين البرادعي، (رقم ١٠) الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

**١٨ ـ ديوان (زمن لصباح القلب)**

للشاعر فاروق بنجر، (رقم ١١) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

**١٩ ـ الشعراء في إخوانياتهم**

للأستاذ خالد القشطيني، (رقم ١٢) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

**٢٠ ـ عبد الله بلخير يتذكر**

للأستاذ خالد باطرفي، (رقم ١٣) الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

**٢١ ـ كتاب (الغربال)**

للأستاذ حسين عاتق الغريبي، (رقم ١٤) الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

**٢٢ ـ ديوان (حلم طفولي)**

للأستاذ سعد البواردي، (رقم ١٥) الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

**٢٣ ـ كتاب (الأعمال الشعرية الكاملة وأعمال نثرية)**

للشاعر أحمد بن إبراهيم الغزاوي، (رقم ١٦) الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

**٢٤ ـ المجموعة الكاملة لآثار الأديب السعودي الراحل محمد سعيد عبد المقصود خوجه**

إعداد وتقديم الأستاذ حسين عاتق الغريبي (رقم ١٧) الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م.

**٢٥ ـ الأعمال الكاملة للشاعر والأديب الكبير حسين عبد الله سراج رقم (١٨)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٢٦ ـ أخبار مكة للأزرقي رقم (١٩)**، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٢٧ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحميد عنبر رقم (٢٠)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٢٨ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي رقم (٢١)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٢٩ ـ الأعمال الشعرية والنثرية للأديب الشاعر الأستاذ أحمد العربي رقم (٢٢)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٣٠ ـ الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة للأستاذ محمد إسماعيل جوهرجي رقم (٢٣)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٣١ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان رقم (٢٤)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٣٢ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الوهاب إبراهيم آشي رقم (٢٥)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٣٣ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء رقم (٢٦)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٣٤ ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأديب الأستاذ محمد صالح باخطمة رقم (٢٧)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٣٥ ـ الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان علي رقم (٢٨)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٣٦ ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأستاذ مصطفى زقزوق رقم (٢٩)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٣٧ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ إبراهيم أمين فودة رقم (٣٠)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٣٨ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد عمر عرب رقم (٣١)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٣٩ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الله عبد الرحمن الجفري رقم (٣٢)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٤٠ ـ الأعمال الكاملة للشاعر الأستاذ علي حسن أبو العلا رقم (٣٣)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

**٤١ ـ عكاظ لندن رقم (٣٤)**

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

# السيرة الذاتية

ـ عبد الله عبد الرحمن الجفري من مواليد مكة المكرمة عام ١٩٣٩م.

ـ تلقَّى تعليمه في مكة المكرمة إلى نهاية المرحلة الثانوية (قسم أدبي).

ـ عمل موظفاً في إدارات: الأمن العام، الجوازات والجنسية، ثم: وزارة الإعلام (مدير الصحافة والنشر) و (المديرية العامة للمطبوعات).

ـ أعيرت خدماته من وزارة الإعلام إلى عدة صحف في سنوات متتالية.. فعمل: سكرتيراً لتحرير صحيفة «البلاد» و «عكاظ» و «المدينة المنورة» صحفاً يومية.. ثم: مسؤولاً عن التحرير في صحيفة «عكاظ».

ـ شغل منصب «نائب الناشرين» في الشركة السعودية للأبحاث والتسويق التي تصدر صحيفة «الشرق الأوسط» اليومية، ومجلتي: سيدتي، والمجلة (أسبوعيتان).

ـ أشرف على صفحات الثقافة والأدب في صحيفة «الشرق الأوسط» يومياً.. وعلى إعداد وتقديم ملف الثقافة في مجلة (المجلة).

ـ استمر يكتب عموداً يومياً في كل صحيفة احتضنت نشاطاته بعنوان: (ظلال) إلى جانب إبداعاته الأدبية في: القصة القصيرة، والرواية، والمقال الأدبي والإبداعي.

ـ كُلِّف بإنشاء مكتب صحيفة (الحياة) اللبنانية في المملكة العربية

السعودية.. مع استمراره في كتابة زاوية يومية في الصحيفة نفسها بعنوان: «نقطة حوار».

ـ يعمل الآن: كاتباً متفرغاً من منزله.. كان يكتب عموداً يومياً بعنوان (نقطة حوار) في صحيفة الحياة الدولية الصادرة من لندن، وكتب: صفحة أسبوعية في مجلة (الجديدة) بعنوان: كلمات فوق القيود، وصفحة أسبوعية في مجلة (اليمامة) السعودية، بعنوان: موانئ في رحلة الغد، وعمود يومي في صحيفة (عكاظ) بجدة، عنوانه: (ظلال).

ـ شارك بالكتابة في عدد من الصحف والمجلات العربية.. فكان يكتب عموداً يومياً في طبعة (الأهرام) الدولية بعنوان «نقطة حوار» قبل إصدار صحيفة الحياة.. وكتب في مجلات مصرية بشكل أسبوعي دائم في كل من: آخر ساعة، أكتوبر، صباح الخير.. وكان يكتب صفحة أسبوعية في صحيفة (الرأي العام) الكويتية.

ـ عدد إصداراته حتى الآن: (٢٣) كتاباً، تضم: مجموعات قصصية، وروايات، ورؤية إنسانية عبر الحوار، ولوحات إنسانية، ورؤية لمنطق الخطاب العربي.

ـ وله إصدارات قيد الطبع.. بلغت حتى الآن: (١١) كتاباً.

* * *

ـ الجوائز التي حصل عليها:

ـ الجائزة التشجيعية في الثقافة العربية: من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في ٢٠ ديسمبر عام ١٩٨٤م، تقديراً على كتابه: (حوار في الحزن الدافئ).

ـ جائزة «علي ومصطفى أمين للصحافة» عام ١٩٩٢م: على مقالاته الرائعة.

ـ جائزة «المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين» بإشراف جامعة «أم القرى»: تقديراً لدوره البارز في إثراء الحركة الأدبية والثقافية في المملكة: (١٩٩٨م).

ـ جائزة (المفتاحة) لعام ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، عن لجنة التنشيط السياحي في عسير، تكريماً لجهوده المتميزة في الكتابة والصحافة.

ـ الزمالة الفخرية من «رابطة الأدب الحديث» في القاهرة.

ـ شهادة تقدير من «الجمعية العربية للفنون والثقافة والإعلام» التي أسسها الشهيد الروائي/ يوسف السباعي، وذلك «تقديراً لإنجازاته الجليلة وعطائه الوافر للمجتمع» في عام ١٩٨٦م.

ـ جائزة تقديرية وشهادة من صحيفة (الرياض) عام ١٤٢٢هـ، وتسمى: جائزة التنوع والالتزام.

**ـ إصدارات المؤلف:**

ـ **حياة جائعة**: مجموعة قصصية.

ـ **الجدار الآخر**: مجموعة قصصية.

ـ **الظمأ**: مجموعة قصصية.

ـ **جزء من حلم**: رواية.

ـ **زمن يليق بنا**: رواية.

ـ **الحلم المطعون (الطبعة الثانية)**: رواية.

ـ **تلك الليلة**: رواية.

ـ **أيام معها**: رواية.

ـ **لحظات (الطبعة الثانية)**: خواطر وتأملات.

ـ **نبض**: خواطر وتأملات.

ـ **برق لجنون المهرة**: مضمون إنساني/ إبداعي.

ـ **هذا يخصك سيدتي**: مضمون إنساني/ إبداعي.

ـ **حوار.. في الحزن الدافئ**: ميلودراما حوارية/ حائز جائزة الإبداع العربي من المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم (١٩٨٥م).

ـ **فقط (الطبعة الثالثة)**: قراءة نفسية في أعماق امرأة متميزة.

ـ **أنفاس على جدار القلب**: رؤية إنسانية عبر الحوار.

ـ **حوار.. وصدى**: رؤية إنسانية عبر الحوار.

ـ **أبواب للريح والشمس**: نافذة على رحيق الثقافة.

ـ **رسائل حب عربية (الطبعة الثانية)**: شرائع إنسانية/ وجدانيات.

ـ **عصر الكلمة العار**: فهم لسقوط الفكر المنحرف.

ـ **المثقف العربي.. والحلم**: بانوراما عن الواقع الثقافي العربي وشروخه.

ـ **الزيدان: زوربا القرن العشرين**: صفحات عن المعلم.

ـ **سطر.. بدفء الكون**: (لوحات إنسانية).

ـ **لوحات.. على الشفق**: خواطر وتاملات.

ـ **من كراستها الخاصة**: وجدانيات.

# المجموعات القصصية

# حياة جائعة

# «إهداء من نوع خاص»

أتمنى بأن لا أكون قد تخطيت بإهدائي هذا مبادئ الإهداء. فقد تعودنا أن يسجل الكاتب إهداءه بقلمه على كتابه المُهدى لمن يحب من قرائه ولكن أن يسجل القارئ كلمة الإهداء على صدر كتاب الأديب نفسه فتلك لعمري من نوادر الأشياء وإنها فرصة لا يجود بها الزمان كثيراً.. . لتعلن حين تمتلك زمامها رقصة الحب والتقدير للأديب الذي أدخل الحزن المفعم بالعشق لكل بيت.. للإنسان الذي نزف قلبه ليمد الناس ـ كل الناس ـ بمشاعر المودة والمحبة.. للرجل الذي أعطى الحب واستحق أن ينال بجدارة دفئه إلى عبد الله عبد الرحمن الجفري أهدي هذه المجموعة القصصية (حياة جائعة) للأديب عبد الله عبد الرحمن الجفري. أرجو أن يتقبلها فهي منه. وله. وإليه..

**٢٩/ ١٢/ ١٤١٢**

**صلاح عبد الله العرابي**

فأنا ـ وإن لم أدرس هذه القصص كما ينبغي ـ فإنني قرأت بعضها منشوراً في الصحف.. وربما قبل النشر، بحكم زمالة كانت في العمل الصحفي، وبحكم صداقة من أحسن الصداقات.

ولا أذكر الآن رأيي فيما قرأت.. أو هو قد لا يذكره على وجه التحديد..

غير أن «الجيل الجديد» ـ وهو من طلائع الجيل الجديد ـ قد كان محل تعليقاتنا..

وكان رأيي ولا يزال أن فيمن أطلق عليهم اسم «الجيل الجديد» من أكاد أتخيل مكانه في المستقبل على مستوى عالٍ بين الكبار.

ولا أقصد الزمن..

إنما أقصد التفوق الذي قد يلمع في الصغار أعماراً، وقد ينطمس في معالم الكبار!

إن ملامح هذا التفوق توصوص بقوّة في «الجيل الجديد».

وهذه القصص من تلك الملامح.

إنها قصص قصيرة توافرت لكل منها عناصر القصة في تطورها الأخير.. فيها «فنية» السرد.. وطراوة الخيال..

وفيها شيء يحرك الواقع.. وقد لا يستثيره، ويدلي بطرف «العقدة» أو اللمحة، وقد لا ينفضها..

وقد يترك بعض النهايات فيما يشبه «مطب» الغفلة ـ تماماً كبعض القصص أو كبعض مدارسها.. بلغتهم.. وأحسبها (المدرسة) الشائعة في غالبية القصص التي تنشر اليوم..

مدرسة «الحادثة» بأسلوب الحركة السريعة التي يعيشها عصر اليوم.. عصر القلق!

وهو أسلوب قد لا يسلم من العرض الفاتر.. أو المفتعل، أو هو قد لا يشد الافتعال في نفس القارئ.. وإنما يحركه أحياناً إلى درجة القلق في انتظار النتيجة.. وحينئذٍ قد يكون «المطب»، لا النتيجة أو النهاية التي تتوقع ـ بضم التاء الأولى ـ بعد الانتظار.. وبعد القلق.

وهو أسلوب قد لا يسلم مما يطول شرحه الآن.. في دنيا الكلمة، أو العبارة.. أو الصور والمدلولات.

غير أن «مدرسة الحادثة» في القصة القصيرة الشائعة قد صادفت وتصادف نجاحاً طبيعياً في عالم اليوم، ذلك لأنها ـ على كل أو بعض علاتها ـ إنما ترسم شيئاً كالذي يجري على «شريط» الحياة..

نفس «الحادثة» التي يعيشها الناس ـ في سرعة ـ وقلق.. وفي سباق إلى الوجود.. أو إلى حيث ألقت!

وهكذا يلوح كل ما تجري به حاصلاً مقبولاً لدى الآخرين.. من أولها إلى آخرها.. أياً كان المنطق أو الخيال.

ولئن كان هذا في القصة، أو في المدرسة إياها، فإنه في قرائها أيضاً.. بالاعتبار نفسه.

* * *

ربما كانت هذه القصص منها..

أو أنها لا يقل مستواها، إن لم يرتفع، عن مستوى الكثير مما ينشر اليوم باسم «القصة القصيرة»، ولا سيما إذا قدرنا رشاقة العرض، مع

صرف النظر عن تحوله أحياناً إلى ما يشبه السحاب الغامض في ضوء النجوم!

وما أحسب أن هذا قد يحرك غروراً ـ من مؤلفها ـ من أي نوع كان.. فلقد عرفته «معقولاً» إلى ما قد كفاه ويكفيه ـ ويكفينا الله وإياكم ـ شر الغرور!

إنني أضعه ـ كما قلت له يوماً ـ بين كتّاب المستقبل الكبار.. في عالم القصة.. أو الصحافة عموماً..

وأذكروها.. ولا سيما إذا واصل الكفاح..

ثم ـ ولعلّ هذا هو الأهم ـ أن يعبِّر كما يحسّ.

* * *

غير أن الأسلوب هو الرجل.. كما قيل من وقت طويل.

وهذا ـ بالطبع ـ يصدق على الأستاذ كاتب القصص.. كما يصدق على الآخرين..

أما أنا فقد عرفت أسلوبه قبل أن أعرفه هو.. وكان فعلاً طبق أسلوبه.. أو العكس!

وأما أنت فقد تعرفه حقاً ـ بعد أن تقرأ له هذه القصص ـ من أسلوبه.. وقد تبدو المهمة شاقة.. فهذا أيضاً من الأسلوب نفسه.. أو الرجل!

* * *

المرأة.. على نحو مضغوط في هذه القصص، والرجل أيضاً على

النحو نفسه.. إلا أنه يلوح وكأنه يجر أذيال الخيبة، ـ غالباً ـ بين الصدف.. والنهايات..

ومشاكل الزواج.. وحلولها التي تقع، لا التي يجب أن تكون.. إلى آخر ما أترككم لتقرؤوه في هذه القصص.

واسمها ـ كما اختاره عبد الله عبد الرحمن الجفري ـ يعطي فكرة صادقة عنها.. أو عن أبرز ملامح الحياة!

نعم إنها «حياة جائعة» إلى كل شيء!

وسنواصلها جميعاً ـ في واقع الأمر، وفي هذه القصص وسواها ـ بالشيء نفسه.. والجوع.. مع شعور مؤكد بأننا غير آسفين لضياع وقت سعيد؟

**«محمد عمر توفيق»** **مكة المكرمة ١٣٨٢هـ**

# وجه في المرآة!

زحفت يدها اليمنى بتثاقل.. واجترت المرآة الصغيرة الموضوعة بجانب السرير، وتشبثت أصابع اليد بأطراف المرآة.. كأنها تتشبث بطفل اغتصب منها.. وطفقت دمعتان حراوان من مآقيها، وهي مستلقية على سريرها لا تستطيع حراكاً..

وارتفع الجفنان.. يفسحان لنظرات العين الحائرة.. التي انطلقت تتمسح بأثاث المكان ـ وكأنها تستعيد الماضي الآفل بدون رجوع ـ وتتذكر بسمات الشباب.. وقصة الأمس الذي ولى، وخلف حطام امرأة تشارف على النهاية! وعادت الدموع تتصبب من مآقيها.. وعادت أصابع يدها اليمنى تتشبث.. بأطراف المرآة.. ثم رفعتها إلى صدرها وأطلقت النظرات الحسيرة معكوسة على صفحة المرآة.. وظهر الوجه الضامر في لون أصفر باهت.. ارتسمت عليه عينان غائرتان في أعماقها حزن عميق، وشفتان مكتنزتان أذبلتهما مرارة الأيام.. وتعاقب الأحداث.. وأنف ليس فيه سوى رائحة النهاية!

ورجعت بها الأحداث..

ابتدأت ذاكرتها تعي.. وتتابع من الصورة الأولى في شريط حياتها.. حين كانت تعيش في إطار الرابعة عشرة من العمر..

في الرابعة عشرة..

في هذه السن المحفوفة بهالة من الأمل.. والإشراق.. والأحلام الجميلة.. رأت أول شمعة من الشموع التي تنير لها طريق مستقبلها.. وتبصرها بمسالب الحياة والأيام.. وهي تدنو من النهاية.. نهاية الذبالة..

وفي ذلك اليوم تركت الدموع تسيل على وجنتيها النضرتين ـ لأول مرة تبكي الذي يجسد لها أحلامها وينير طريقها ويمنحها الأمل المستطيل.. فقد أغمض الموت عيني والدها.. وتركها مع والدتها للأيام.. وتصرفات القدر.. وأخيه ـ عمِّها ـ !

واحتضنها عمُّها.. في بيته.. يحنو عليها ويرعاها..

فرح بها ابنة تملأ بيته بالحنان لأنه حرم من حنان البنت..

فهو لم يهبه الله سوى ابن واحد.. أغدق عليه كل العطف.. وأعطاه كل الرأفة والحنان.. وتركه يحظى بكل ما يتمناه، ويريده ويشتهيه..

وارتاحت «ثريا» في بيت عمِّها.. وهي تلمس بمشاعرها وعواطفها.. ألوان الراحة والطمأنينة.. لم يخدش هذه المشاعر المتآلفة سوى مشهد واحد لا تريد أن تكرر النظرة إليه حتى لا يرتسم في ذهنها أبداً..

كانت لا تطيق أن ترى «شاكر» ابن عمها.. وحيد والده ـ في عدة حركات من تصرفاته التي يعيدها كل يوم..! حركات صبيانية.. لا تستسيغها.. وهي في مرحلة تصغره بسنوات!!

كان يبدو سمجاً.. ثقيل المزاح ـ عشوائياً في خطواته التي يقوم بها.. أبله في كثير من المناسبات.. وقد ورثه حب والده الكبير المستطيل

عادات لا يقبلها مجتمع الناس.. تتمثل أتفهها في طريقة الحديث.. وحجم الكلمة التي يتفوَّه بها..

وقد أحست «ثريا» أن «شاكر» لا يكنُّ لها العطف والحنان.. بحادثة صغيرة رأتها وسمعت حوارها.. في يوم مبلَّل بدموعها.. عندما أرادت أن تذهب إلى حفلة عرس كبرى.. تشيع بها في صدرها وحول قلبها طاقة من البهجة التي تبحث عنها بسنواتها الأربع عشرة.. فتقدمت إلى عمِّها تطلب فستاناً تظهر به أمام النساء.. مثيلاتها في العمر.. وفي تلك اللحظة رأت «شاكر» يقول لأبيه:

ـ اتركها.. لا تشتري لها أية قطعة من القماش.. فإن ما لديها يكفيها.. ولا يؤخرها عن الذهاب إلى العرس..

وغضبت واحتقنت وجنتاها بالدماء.. وجالت الدموع في عينيها.. ثم تركت المكان.. تملؤه إرادة ابن عمِّها ورأيه..

لقد أحست يومها.. بمشاعر (شاكر) نحوها واتسعت في ذهنها صورة.. صورة الإنسان الذي يكره ولا يحب.. السخيف الذي لا يملك ذرات من الحكمة والتعقل، صلد العاطفة ـ كالحجر ـ وكأنها لقيطة لا تجمعهما أواصر الدم.. والقربى، وحادثات الأيام.

وتعاقبت الأيام في شريط ممتد.. يعرض مشاهد مؤثرة باكية ولحظات سعيدة باسمة..

ونضجت (ثريا) بأعوامها السبعة عشر.. وتفجرت الأنوثة في جسدها الرقيق.. وشاع الجمال الهادئ في قسمات وجهها..

استطاعت رموش عينيها أن تغطي الاتساع فيهما.. وتتسرب من

خلالها نظرات براقة تعبِّر دون كلام أو حديث. .

واكتنزت الشفتان قليلاً. . تصوغ حروفاً هي الهمس. . والنجوى!. .

وأسدلت خصلات الشعر الأسود. . في هدوء الليل. . تحوط العنق المتطاول في دلال. .!!

وطال (شاكر) بسنواته العشرين. . لم تتغير في انطباعاته أية لمحة منها، وترك الدراسة. . وهو يثبت لأبيه أن التجارة ستعطيهم المكاسب وتصنع التحول في حياتهم. .

وفي ضوء هذه الفكرة التي أصرَّ عليها. . رضخ والده لهذه الإرادة وأعطاه المبلغ الكبير الذي يفتتح به عهده التجاري. . (يتمرجل!). . ويخلق مستقبله بيديه. .

وافتتح شاكر أول متجر له. . يديره كيفما يريد. . وبالطريقة التي تحلو له. .

* * *

وتعفرت سنوات الشيخ الكبير. . والد «شاكر». . بعد أن أضناه الكفاح الطويل. . وهدَّته التجارب الكثيرة التي مرت بحياته. . حتى بلغت به السنوات السادسة والخمسين. .

وتلفَّت حوله. . يشمل بنظرة واحدة ثاقبة كل ما مر به من أحداث وتجارب. وحدَّق أمامه طويلاً. . يستطلع الأيام ـ ماذا تخبئ في طياتها من مجهول؟

متى تحين النهاية؟. .

ما لون الأيام التي سيمرُّ عليها ابنه. . وهل تحمل السعادة أم المتاعب؟. .

كيف تستقر هذه الفتاة النضرة ـ في أوج شبابها.. ومن يتولى منح الحب والعاطفة لها من بعده!؟..

وعصفت به دوامة هائلة من التفكير.. والتأملات المتواصلة.. ثم أفاق من تأملاته.. استيقظ على آخر فكرة وجد فيها الاطمئنان على مستقبل الفتاة والشاب.

وأخذ يحدِّث نفسه:

لماذا لا أجمعهما معاً؟.. أليست ابنة عمه حليلة له؟.. قد يكون بينهما شيء من التنافر بأسباب صرامة الشباب.. ولكن «شاكر» مصيب على حق.. فهذه هي معاملة الرجل لامرأة تصغره.. كذا تعلَّم من أبيه: والأيام التي تجمعهما في عش الزوجية.. كفيلة بإذابة هذه الحدود التي تقف فاصلاً بين اتفاقهما..

وابتهجت أسارير الأب.. وقد استيقظ على هذه الفكرة التي وجد فيها الاطمئنان على مستقبل فتى وفتاة.. يحافظ عليهما كما يحافظ على نقطة السواد داخل عينيه..

وقرَّب ابنه منه.. يسرُّ إليه بما أراده أن يكون.. وازداد الابتهاج في أساريره عندما كسب تأييد الابن..

واحتضن «ثريا» إلى صدره.. وهو يخبرها بآخر أمله، ولكنه لمح أطيافاً حزينة تحتل قسمات وجهها المشرق..

وأذهلته المفاجأة.. وقال لها:

ألا ترضين بشاكر؟ إنه ابن عمِّك وهو أولى بك.. ثم إنه كبر وأصبح يقدِّرك كزوجة تشاركينه حياته؟!

وابتلعت الغصة في حلقها وأجابت:

ولكني أحب أن يكون لي أخ يسأل عني دائماً.. وألتجئ إليه ـ بعدك ـ في صروف الأيام والليالي..

قال لها: أنت صغيرة ـ لم تعرفي بعد ما هي الأيام والليالي.. وأنا أب لك.. أعطيت لك سعادة الأيام وحلاوتها وأعرف مصالحك.. وكيف أدفعك في وجه المستقبل.. اسمعي كلامي ولا تخذليني؟ وأطرقت.. والغصة تمتد في حلقها، ولم تجب.

* * *

وتناثرت الأضواء الكثيرة على واجهة البيت الكبير.. في توزيع أنيق.. أحالت المنعطف الضيق ـ الذي كان يعيش في ظلام دامس كل ليلة ـ إلى نهار ساطع يفضح حتى زواياه!..

وامتلأت الساحة الصغيرة بزرافات لا تحصى من الذين قدموا يشاركون في إحياء هذا الفرح.. فبدا المنعطف ـ المائج بمن فيه ـ نموذجاً لقاعات الاستقبال الكبرى التي تقام في المناسبات!

وعلى كراسي الشريط التي كسيت بالوسائد والفرش الوثيرة.. تجمعت حلقات من الناس المبتهجين يقتلون هذا الليل الطويل بمختلف الأحاديث.. ومختلف الألعاب.. وسط ضحكات صاخبة تصعد ثم تختفي.. لتضيع مع الأضواء الكثيرة المتناثرة!..

وانطلقت الزغاريد تضجُّ في سائر أنحاء البيت في ابتهاج.. مع أصوات الدفوف الرتيبة الإيقاع..

إنها «الزفة» بدأت من أول درجة في البيت.. والعريس يسير بخطوات

بطيئة، وحوله شفاه تبتسم، وتنفرج عن ضحكات.. وخفت الزغاريد وهي تذوب رويداً رويداً في أصوات الدفوف.. والعريس يواصل خطواته الثقيلة.. ويسمع بأذنيه أصوات النساء.. وهن يبدين الملاحظات..

ـ إنه لم يتخطَّ العشرين من العمر.. طائش النظرات في عينيه «بحلقة» المراهقين!

ـ جسده نحيل.. كأنه عمود يافطة..

ـ وجهه عليه مسحة من وسامة ظاهرة..

ـ صلاة النبي.. والله شباب.. ربنا يحفظه لشبابه.

ويصل الغرفة التي تنتظره فيها العروس.. وتتركز نظراته على وجهها ـ بعد أن رفع الغطاء الشفاف عنه.

ومرت اللحظات بطيئة.. ثم وقف.. وخطا على الوراء حتى وصل باب الغرفة وانطلق يجري إلى مكان الاحتفال!

وانتهت أيام الزفاف..

ودخل شاكر على أبيه في ثبات قائلاً:

ـ سأسافر إلى الظهران ومعي «ثريا».. أريد أن أفتتح فرعاً جديداً هناك لمحلي التجاري.

ـ وقال له والده: انتظر.. فلم ينته الشهر على زواجكما.

وأبدى شاكر إصراره.. دون أن تفلح رجاوات والده.

وفي اليوم الثاني اصطحب زوجته الأولى.. الجديدة.. ووصل بها إلى الظهران..

لم يكن معهما أثاث كامل.. ولم يرد شاكر أن يعطي زوجته أكثر مما اقتنع به.. بضعة بسط امتدت على أرض الغرفتين داخل شقة متواضعة.. وفراش للنوم.

وانغمس «شاكر» في أعماله.. وشغلته التجارة عن بيته.. وتذرعت «ثريا» بالصبر.. وعدم الإفصاح عن رغبتها.. كانت تودُّ بهذا التصرف.. أن تعطيه الفرصة.. ليرى الواقع الذي تعيش وسطه.

ولكنه تمادى.. ولم يزد على ما قرره منذ بداية الزواج..

وانطوى عام طويل على زواجهما.. دون أن تبدي «ثريا» أية رغبة من رغباتها الكثيرة المكبوتة بين أضلعها.. وفي حنايا صدرها.

وابتدأ عام جديد.. لاحظت معه الزوجة.. أن شاكر لم يعد يطيق الجلوس في البيت.. لم تعد تراه ـ بجانبها ـ إلا في أوقات الطعام، ولا يعود إليها إلا في ساعة متأخرة من الليل..

وأطل الاختلاف يمزج حياتهما بالخصام.. والتنافر ـ مرة أخرى ـ وتطوَّر الخصام والاختلاف إلى ضرب.. أصبح يضربها على كل كلمة لا تتفق مع مزاجه وتفكيره.

وأصبحت تتوجع مع كل لطمة من يده على وجهها الصغير. ولا تملك سوى البكاء المفضوح حتى تخف شدة اللطمة عن وجهها..

وماذا تريد أن تفعل.. وهي بعيدة عن أمها.. عن عمِّها الذي قال لها يوماً أنت صغيرة لم تعرفي ما هي الأيام والليالي.. اسمعي كلامي.. ولا تخذليني وتزوجي ابن عمِّك.. الحريص على مستقبلك.. الحافظ لمشاعرك..

إن كلمات عمِّها.. أصبحت كرجع الصدى في بيداء لم تطأها قدم إنسان منذ زمن بعيد!.. لقد كان الشيخ الكبير يظن أن الزواج لابنه الصغير.. الغض في سنوات عمره.. سيحوِّله إلى رجل كبير عاقل.. يعرف وجهته وكلمته.. سيثقل بطيش شبابه وعنجهية أفكاره.. ويحد منها حتى تتلاشى في حياة جديدة كبيرة.. اسمها الرجولة!..

ولكنه تركه بنفس العقلية.. ولون الطيش.. وتركها بين أحضانه يهتصرها حبًّا متى أراد.. ويعتصرها ألماً وشقاء متى غضب.. وما أكثر غضبه..

استيقظ والده أخيراً على فورة الشباب في عضلات ابنه ـ مثل كل أب يحلم برجولة ابنه.. ومستقبله.. فلا يصبر بل يندفع بابنه وسط تيارات عاصفة.. تهدم بيوتاً وتضع في طريق المستقبل أحجاراً وعقابيل..!

وعمُّها.. والد «شاكر» مثل كل أب تجسدت فرحته في قامة ابنه المديدة وفي حمرة الخجل المكسو بالحزن على وجه «ثريا» ولم يقدر المستقبل. وكيف تستطيع العشرون عاماً أن تدفع بعجلة ضخمة اسمها الحياة..!؟

ولم تتحمل «ثريا» العذاب.. فطلبت.. الانفصال منه.. والعودة إلى أحضان من بقي لها.. أمها..

وأعماه الجنون في عاصفة الغضب.. وهو يسمع من فم «ثريا» كلمة «أمي».. وأخرج من جيبه ورقة صفراء قديمة.. ورماها في وجهها؟!!

وتطلعت (ثريا) إلى سطور الورقة بعجل.. ثم أجهشت بالبكاء المجروح.. وصرخت من أعماقها: أمي.. أمي.. ماتت. حبيبتي..!

ووسط العويل تجسَّد الغضب في وجه (شاكر) وارتعش جسده بحمى مجنونة وصاح في وجهها.. اذهبي.. أنت طالق..

وسكنت العاصفة.. بعد أن شردت الدموع من عيني (ثريا).. وانخفض رأسها إلى الأرض.. وهو يحمل وجه امرأة متهمة قذفت بها الكوارث إلى ما بعد الستين من العمر..!!

وتراخت أعصاب (شاكر) وهو يجرُّ قدميه إلى المطار يحجز مقعداً (لثريا).. لتعود إلى عمِّها في هذه الصورة..

* * *

ومرت شهور ستة «وثريا» تعيش في بيت عمِّها.. ترقب عن كثب الزفرات الحرى التي يطلقها عمِّها.. كلما تذكر «شاكر».. وتصرفاتها نحوها.. وتسمع عبارات الندم تتلصص من فم الشيخ الكبير.. إلى سمعها..

وتمرُّ الشهور وتصل رسالة..

ويفضُّ الوالد الرسالة الثقيلة.. ويجدها مثقلة بعبارات الأسف والحزن.. إن «شاكر» يريد «ثريا» تعود إليه بأية طريقة؟!..

وبحركة بطيئة.. بطيئة قذفت أصابعه بالرسالة ممزقة إلى الأرض دون أن يعيد النظر إليها مرة أخرى..

ويتوالى النقر على باب البيت الذي تسكنه «ثريا».. يتقدمون إلى عمِّها بطلب الزواج منها.. وفي كل مرة يرفض الشيخ الذي عرف معنى الليالي والأيام!.

يريد أن يختار لها رجلاً تشعُّ من نظراته عاطفة الحب الكبير (لثريا)..

يبحث لها عن حب يعوِّضها الأيام التي انتهت.. وكيف يجد الحب في نظرات الذين يريدون «ثريا» وهم لا يعرفون لونها ولا يعرفون صورة وجهها إلا بالوصف (الحريمي).. من وراء حجاب؟! كل الرصيد الذي دفع الناس إلى طلب الزواج من (ثريا).. ينحصر في أقاويل النساء ونعوتهن.

وفي وسط الأحاديث الكثيرة عن (ثريا) وجمالها.. وصبرها على المكاره.. تقدَّم (حسين صبري) إلى عمِّها.. يرجوه أن يزوجها له..

ونظر الشيخ مرة أخرى في وجه (حسين صبري) الذي يسكن أمامهم سنوات طويلة.. لم يقابلهم بمكروه ولم يعاملهم بسوء أدب.

وحدَّث الشيخ نفسه قائلاً: حسين صبري.. رجل متزن.. في الثلاثين من عمره.. يعرف كيف يحتفظ بحنان «ثريا» وكيف ينمّي حبها له في أعماق قلبها.. وهو ثري يعيش فوق المتوسط!؟ وهو يرجوني؟!..

ولكن.. هو متزوج.. أيضاً وله بنتان وولد صغير.. وهذه أيضاً لا تقلق كثيراً.. ما دام أنه سيضع «ثريا» موضع التقدير.. ويفتح لها بيتاً خاصاً.. ومشاعر خاصة.. في قلبه.. لا.. لا مانع «حسين صبري» «لقطة» رجل طيب..

وانطلقت الزغاريد مرة ثانية في البيت الكبير.. تخنق الخفقات الرتيبة.. التي تتصاعد من قلبها..

إنها امرأة لا حول لها ولا طول.. لا تعرف معنى الأيام والليالي.. وأين طريق مستقبلها.. عمُّها يبحث لها عن السعادة والطمأنينة وبهذا القرار زفَّت «ثريا» إلى حسين صبري.. لم تشرع عينيها في وجهه ولم تحاول أن تعرف اللون الذي اصطبغ به ذلك الوجه..

وأعطاها الرجل من قلبه.. الكثير من الحب.. والاهتمام.. وأغدق عليها ما جعل بيتها (معرضاً) للمشاهدة والإعجاب.. بأثاثه وتنسيقه..

وبأمر الحب..

بحتمية العاطفة التي تبدو ملتهبة في البداية.. بدأ قلب «ثريا» يحسُّ بخفقة غريبة.. تعصف به بين فترة وأخرى..

وتساءلت مع نفسها: هل يمكن أن يكون الحب محدداً بالتوقيت.. ساعة.. ودقيقة.. ولحظة.. حتى إذا انتهى التوقيت.. تحوَّل معنى الحب إلى مفهوم آخر..!؟

هل يرضخ الحب لتوقيت زمني.. أم أنه لا يقيم حدوداً للزمن.. والناس.. والظروف؟!.. هل يكون الحب في مفهوم الناس.. سنة من عمر.. أو شهوراً من سنة.. أو أياماً من شهور.. وينتهي ما بدأ كوقد اللظى؟!..

إذا كان هذا صحيحاً.. فإن الناس لا يحبون ولكنهم يشتهون.. وتموت قلوبهم في تيار الشهوة.. وهذا يعني أن الشهوة تندسُّ في كلمات الحب.. وفي لمساته.. وتنساب مع آهاته.. حتى إذا فقدت انتهت..

وأنهك التساؤل تفكير «ثريا» وأحبت القراءة.. تقرأ كل شيء..

كانت تقرأ في الساعات التي يتغيب فيها زوجها ـ وما أكثرها! ـ وامتدت ساعات الغياب إلى شهور.. أطلق عليها «حسين صبري».. شهور الرحلات..!!

والشهور كفيلة بإيضاح الحقيقة التي كانت تتوارى وراء ابتسامة «حسين» في خبث ودهاء..

وعلمت «ثريا»..

وصعقها الخبر.. وهي تسمع نبأ زواج حسين من فتاة لبنانية. في الخامسة عشرة من عمرها..

لم تستطع أن تقوم بعد أن أثقلت عليها النوازل بحملها الثقيل.. واكتشفت الحقيقة الثانية..

لقد أصاب (ثريا) الشلل!!..

و.. بتثاقل..

زحفت يدها اليمنى واجترت المرآة الصغيرة الموضوعة بجانب السرير.. وتشبثت أصابع اليد بأطراف المرآة.. كأنها تتشبث بطفل اغتصب منها.. وطفرت دمعتان حراوان من مآقيها، وهي مستلقية على سريرها لا تستطيع حراكاً..

وارتفع الجفنان.. يفسحان لنظرات العين الحائرة التي انطلقت تتمسح بأثاث المكان.. تستعيد الماضي الآفل بدون رجوع وتتذكر بسمات الشباب.. وقصة الأمس الذي ولى.. وخلف حطام امرأة تشارف على النهاية.. وترى حياتها على صفحة المرآة..!

# جابر أفندي

جمع أطراف عباءته المعلقة على المشجب.. وطواها تحت إبطه ثم عاد وألقاها على كتفيه في حركات مضطربة.. فيها ذهول وفيها سأم.. وتأفُّف.. وبعد أن أحكم العباءة على كتفيه.. تقدَّم نحو مكتبه، واندسَّ بنصفه في باطن الكرسي الدوّار الفخم، وتسللت أصابع يده بنفس حركات السأم، والذهول.. تبعثر وريقات المعاملات القليلة الراكدة فوق مكتبه، ثم.. تعود الأصابع لتجمع ما بعثرت..

واستمرت في تسلُّلها البطيء حتى موضع الجرس.. وضغطت عليه كأنها تخنقه..! وقبل أن يخمد صوته.. كان باب الغرفة قد انفرج قليلاً.. ودخل منه تمثال آدمي، على رأسه «غترة» تتلون بالوساخة والاصفرار.. وحول جسده ثوب أزرق كالح، وفي رجليه تسري الرجفة!..

ووقف أمام «المدير» يلتقط الأمر ليسارع بتنفيذه..

ثم خرج بنفس الحركات التي أدخلته..

وفي لحظات.. كان كأس الماء بين الأصابع الحائرة المتأففة.. كأنها تحاول تهشيمه..

وألقى «جابر أفندي» بما في الكأس.. في جوفه الساخن. وقام من كرسيه يعيد جمع أطراف العباءة وطواها تحت إبطه ثانية.. وتحسَّس

موضع (العقال) على رأسه.. ثم خرج من (الإدارة).. مكان عمله.. كمن يتوجس خيفة، وألقى بنفسه المشحونة بذخيرة من التبرُّم والهزيمة.. المركَّبة على جسد مفتور.. في داخل سيارته التي بقيت له من أشياء كثيرة فقدها في أيام قليلة!

عجيب أمر هذه الحياة!

من كان يظن.. أن «جابر أفندي» سيتحول به طالع الحظ ـ الذي كان ـ إلى هذا الدرك من الإهمال، واللامبالاة بشخصيته ومركزه؟!

لقد كانت أيام..

كان فيها كبيراً.. يثير الاهتمام.. ويزرع بذور الخوف والحذر منه في نفوس الموظفين الذين يعملون بإمرته!.. إنه يستعيد الماضي الجميل المشرق.. وقد كان كبيراً.. يرهب ويستخدم، ويداهن مصالحه.. ليداهنه من جاءت مصالحهم تحت يديه!..

إنه يتذكر ذلك الحلم الذي تبخَّر..!

قبل سبع سنوات..

كان موظفاً متجمداً عند مرتبة وراتب متوسطين ـ في غير هذه المصلحة التي يعمل فيها ـ دفعه بريق المرتبة العالية، وعوامل السيطرة على الغير.. ليفكر في طرق متشعبة توصله في النهاية إلى هدفه ومبتغاه..

قرر أن يتفانى في خدمة رؤسائه، ومن يعلونه مركزاً، وقدراً، وشأناً.. فاستطاع بهذا التقريب أن يجد لنفسه منافذ إليهم.. تدفعه نحو ما يريد.. وترفعه إلى المرتبة التي كان يتلمَّظ كثيراً عندما يتصور نفسه فيها!..

وسرَّه هذا العمل الجديد.. وأراد أن يفهم من حوله أن التواضع صفة

لا تنعدم في أخلاقه ومعاملته لهم.. فصرف تفكير الناس إلى تواضعه هذا.. وإلى الطيبة التي يظهرها في بعض تصرفاته..

وانغمس في وظيفته بكل أعصابه، ووقته، وجهده، وكان هذا ـ عند الناس ـ يحمل دلالة التفاني والإخلاص للعمل!

ونعم عامين بهذه السمعة الحسنة.. وهو أكثر سعادة ورغداً، وحبًّا للعمل الذي ارتضاه لنفسه!..

ثم حدث التغيير؟..

انتقلت أعماله ـ كلها ـ إلى مرحلة مفضوحة.. وتكرر اسمه مضغة تلوكها كل الأفواه ـ من كان حوله، ومن يبعدون عنه ـ وقدم للمحاكمة ـ الإدارية ـ بكامل ثباته وهدوئه، ورباطة جأشه.. يرسم على وجهه أمارات البراءة واللامبالاة.. وفي صدره ثورة ندم تعتمل.

وصدر الحكم بطرده من الخدمة وتصفية حقوقه المالية.. بعد أن ثبت اختلاسه وتزويره!

وتلقَّفته الشوارع الكثيرة.. ونسج التفكير خيوطه..؟!

ـ ماذا يفعل بهذا الفراغ؟!

ـ كيف يرتق هذا الفتق الذي عرَّض سمعته، وقذف باسمه إلى زوايا النسيان!؟

أين يجد ألوان الاحترام.. وذلك التحفظ الذي كان يشاهده من الناس في مجلسه؟

إنه لم يفعل إذاً!

حاول أن يزوِّر بعض الأوراق المالية، فافتضح أمره.. فهل تحقُّ عليه هذه الأحكام؟

ولم يحتمل..

حزم حقائبه ـ وقد طوى بين ثيابه كل آلامه، وتوجُّعه.. ليبعثرهما على جبال لبنان.. مع نسمات الأصيل.. وغروب الشمس.. عند لحظة عناقها مع الشفق.

وتلقَّفته المناظر الجميلة.. لتضع في نفسيته بذور الارتياح والهدوء، وقد بدأ يتلمس طريق الاستقرار النفسي من جديد!

كان يرى كل الوجوه التي يقابلها.. تصطبغ بالضحكات الصاخبة والابتسامات العريضة.. وفرَّق بين هذا اللون.. واللون الذي هرب منه..

وكان يرى الباعث للفرحة التي تنفرج ضحكة على الشفاه.. وبحث عن فرحة.. عن باعث يغلِّف مأساته، ويلبس هذه النفس كل السرور.. والابتهاج وعثر على وجه.. وجد في جوانبه لمسات الضوء.. تشعُّ بالجمال والفتنة.

كانت نضرة المحيا.. ينضح من وجهها جمال هادئ.. وفي عينيها النفاذتين اتساع عميق كأسرار الجمال.. كنفسية المرأة!.. وفي عينيها زرقة كأنها محيط لا يحدُّه قرار.

وتعلَّق بهذه الأسرار.. بذلك العمق.. وبحث عن عنوانها.. عن أهلها.. عن إصبع يدها.. ليضع فيه خاتم الزواج!..

واستمد شهراً آخر.. في مذاق أيامه حلاوة العسل. ثم عاد إلى بلاده.. بهذا المحصول!

وفي بلده.. أحس بانفعالات تتزاحم في صدره.. تصرخ كلها بالقوّة.. بالعودة إلى ما كان يعيش فيه من مركز، واسم، وسمعة إنه يتمنى

أن يعود كما كان.. يعود «جابر أفندي».

وجسَّد تلك الانفعالات في خطوات إيجابية بدأت بمشروع افتتاح محطة كبرى لخدمة السيارات، وصيانتها، وتزويدها بالوقود.. تدرُّ عليه الربح، وتضمن له رخاء العيش..

زوَّدها بكل إمكانيات الصيانة وانطلق يخلق حولها الدعاية والذيوع بكل ما توصَّل إليه تفكيره.

إعلانات في كل الصحف، ونشرات وزَّعها في جميع شوارع البلدة كلها تدعو لمشاهدة هذه المحطة الفنية.

ولم يقف..

كان يسرُّ إلى نفسه.. بأفكار ومشاريع..

ودخل بنفسه كل المصالح الحكومية، والشركات التجارية والمؤسسات..

وتوالت الصفقات.. والعقود واستطاع أن يعقد اتفاقاً مع إدارة كبيرة يتعهد فيها بصيانة سيارات الإدارة..

ومهَّد جابر أفندي لحكاية ماضيه، بمقدمات طويلة.. ثم.. قصَّ على صديقه «المدير» كل شيء.

واقتنع «المدير» بأن الحسد.. كان من الأسباب التي أودت بسمعة جابر أفندي!..

وتحفزت انفعالات (جابر) لهذه الثقة التي زرعها في نفس صديقه ـ المدير ـ إنه الآن في نظره.. إنسان يستحق العون والمساعدة..

وتحمَّس المدير الصديق.. وطلب تعيينه، وإثباته في وظيفة كبيرة..

مراعاة لخبرته وخدماته الطويلة.

وبعد هذه الجولة الرابحة.. لم يعد جابر يترك صديقه الذي أعاد إليه ثقة الناس.. وجلا عن اسمه صدأ الهزيمة والنسيان.. فأصبح يلازمه كظلِّه.

والحياة أمرها عجيب!؟..

إنها تعطي متى أرادت السخاء للإنسان.. وتجذب إلى المنحدر.. متى شحت عن البذل..

إن جابر أفندي ـ الآن ـ يشاهد الابتسامة التي افتقدها زمناً.. تطوف على أيامه، وحياته الجديدة مرة أخرى..

سيعود إلى مركزه.. كما كان.. جابر أفندي.. صاحب المرتبة الرابعة، ولكنه، ماذا سيفعل؟!

قال هذا السؤال لنفسه!..

وأجاب: سأعطي كل من ينقصني مرتبة درساً في احترام الكبار وسأثأر للمتنكرين.. ممن ساعدوا في القضاء على راحتي وسعادتي أياماً أثقل من السلحفاة في خطواتها!.. وأشد من قوة المطرقة في ضرباتها..

ورنَّت الفرحة مصفقة بين جوانحه..

سيعود..

وأقام له الأصدقاء.. حفلات توالت إثر بعضها.. ولمس من خلالها ألواناً من مشاعر الناس.. في مثل هذه المناسبات!..

* * *

وتفرقت زمر المدعوين، وبات الساعات الباقية من ليله بأعين مشرعة

يقظة.. وصدر خافق.. يتهيأ للحظات الأولى من يومه الجديد.

وانساب النور في صفاء.. وعادت الحياة إلى الشارع مع أصوات الناس وحركاتهم..

وابتدأ الحياة الجديدة.. وعلى فمه ابتسامة عريضة فرشها على وجه المستقبلين من موظفيه.. قال عنها إنها مشاعره..

غير أنها مشاعر متزعزعة لم تثبت في قلبه، ولم يستطع الموظفون أن يفهموا نوع معاملته لهم.. تارة يرتقي بهم إلى المفاهمة الإيجابية.. مناقشة إنسان لإنسان يتساوى معه، وتارة يعاملهم بالغلظة والخشونة.. يأمرهم بأسلوب فيه الوعيد.. فيزيغ قلوبهم.

وأجبرهم منطق العيش.. إلى الاستكانة لوعيده، وتهديده.. يرضخون لإشارته التي تصل أحياناً إلى حدود الخدمة الشخصية!..

كان يدخل عليه «عم إبراهيم» وهو موظف كبير في سنِّه.. ورئيس مكتبه.. وفوق يديه المعاملات.. ويشير «جابر أفندي» إلى مكتبه، وإلى المعاملات وينحني «عم إبراهيم» وهو يضع الأوراق فوق المكتب.. ويقفل الباب في هدوء ـ دون مناقشة!

ويخرج.. يشقُّ لنفسه طريقاً.. وسط المراجعين الذين يكثرون من الإلحاح عليه.

ويشير لهم إلى مكتب ـ جابر أفندي ـ دون أن ينبس بحرف ويتركهم مع الحيرة الكبيرة.

وتنتقل الأوراق بين يدي الفرَّاش، وهو يعيدها إلى قلم التحرير.. فوق مكتب ـ عم إبراهيم ـ لتعاد عليها الكتابة مرة ثانية.. لتغيير

أسلوب.. وإبدال وجهة الأوراق.. ووضع حل آخر غير الذي كتب.

لقد كانت أساليب متنوعة.. حذقها كل موظف يعمل لديه، وشذ عنها بعض الموظفين عنده. فلم ينفِّذوا ما يودُّه.. وتحشرجت معاملتهم له في حلقه، فلم يعد يفكر إلا في طريقة يتخلص بها منهم، وكان يوم..

جمع حول مكتبه خمسة موظفين، ووضع في أيديهم قرارات نقلهم إلى أماكن أخرى!..

واندفعت حناجرهم تضطرب بسيل من التساؤل:

ـ ماذا فعلنا يا جابر أفندي؟

ـ ما هي الفعلة التي ارتكبناها في حق الوظيفة أو العمل؟!

ويرفع جابر أفندي رأسه.. ببطء وثقل قائلاً:

ـ إنها مصلحة العمل.. اقتضت هذا النقل!.. ثم أشار بيده إلى باب الغرفة دون أي اعتراض منهم!..

ومرَّت شهور.. تشتت فيها عقد أولئك الموظفين، ورمت بهم الأيام في أجواء متفرقة.. غريبة.

وفي ذيل الشهر السادس.. جاءهم الخبر:

ـ لقد قدَّم (المدير) استقالته وتخلّى عن العمل؟

وجابر أفندي أين مصيره؟

كيف يعمل.. بعد أن تركه صديقه ـ المدير ـ؟

ترى هل يستطيع فرض أسلوبه على ـ المدير ـ الجديد؟

وانطلقت حناجر الموظفين.. تضخم هذه الثرثرة، والتساؤلات الطويلة التي لا تنتهي..

ـ ماذا يفعل جابر أفندي؟

* * *

وانتفض جابر أفندي وهو يتشبث بمقود السيارة، وتحسس العرق.. وهو ينداح من جبهته، ويغمر وجهه، ثم أزاح الغطاء عن رأسه.. ليكشف عن بضع شعيرات بيضاء.

وتقلصت أصابعه المتشبثة بمقود السيارة.. وهو يتمتم لنفسه:

ـ ماذا يفعل «جابر أفندي»؟!..

ـ أين ذهب الذي كان؟!

ـ كيف يتقرر مصيري مع ـ المدير ـ الجديد.. مع إنسان لا أعرفه؟!

ـ لقد سمعت أن ـ المدير ـ سيختار لي عملاً جديداً في مدينة ـ الدمام ـ ولكن.. لا.. لا يمكن؟

وانطلقت السيارة.. تقفز.. بعد أن كانت تسير بخطوات بطيئة، وابتعدت.. غابت في زحام السيارات الكثيرة.. متجهة إلى محطة البنزين!!

# الغرفة ذات النافذة الواحدة

رفعت الغطاء الثقيل عن وجهها وهي ترى أشعة النهار الدافئة تغمر الكون الممتد أمامها من النافذة، وحملها جسدها الرشيق بحركة ناشطة.. تستعيد بها الحيوية والقدرة على العمل.

وجالت نظراتها في الغرفة المربعة التي لا تملك سواها مأوى بين غرف البيت الكبير.. وقد تكسرت عنها موجة البرد القارس مع سطوع الشمس وانتشارها، وذهبت عنها الرعشة التي سرت في جسدها منذ غشى الليل سائر أرجاء المدينة.. وقامت الفتاة تحمل بين يديها الناعمتين فراش نومها الثقيل، ثم وضعته في ركن من الغرفة خصِّص له، واتجهت نحو الحمَّام.. تتثنى في ليونة عود القرنفل الطري.. فهي لم تزل في ربيع عمرها.. رغم أن أيامه زجت بها في جوٍّ خريفي مقشب..

واختفت داخل الحمَّام فترة ثم عادت إلى غرفتها تلفُّ قامتها بملاءة رقيقة لا تظهر منها إلا استدارة وجهها الأسمر في احمرار الشفق الخفيف. وأدت صلاة الصبح في خشوع ناسك!.. وبعد فروغها كانت تهيم في أفكار مضطربة غير متناسقة ـ كعادتها كل يوم ـ حتى تغمض بأجفانها على حركة عينيها في نوم قلق!

إنها تعيش في فقر عاطفي، وجدب حناني، وفاقة مالية!..

وارتسم الوجوم.. يحيط عينيها الواسعتين في فتنة.. وبدأت تستعيد

الماضي الذي شاهدته، والماضي الذي عرفته فيما بعد.. شأن كل يوم معها.

لقد توفي والدها في اليوم العاشر من ولادتها، وصوت البكاء لم يتلوَّن بعد في فمها عن نغمة واحدة.. وإدراكها للأحداث لم ينضج.. فلم تجد غير حضن واحد تتمسك به، وتندسُّ فيه كلما ظمئت إلى صبابة من حنان وعطف.

تركها والدها لأم لم تزل تجهل معنى التجربة في الحياة.. يغمض تفكيرها المحدود عن التصرف..

وأمها ليست جديرة بهذه المحنة المبكرة مع ريعان شبابها، ولكنها صمدت للنوازل، ومفاجآت الزمن، ونذرت الشباب تقدمه قرباناً من أجل حياة هذه الطفلة المحرومة من عاطفة الأبوّة، فأفنت ربيعها في صراع مستمر.. وكانت نقطة انطلاق ذلك الصراع يوم وفاة زوجها.. ذلك اليوم الذي استقبلت فيه بدموعها كلمات المواساة والعزاء، واستقبلت أيضاً الجحود، ومنطق الإنسان في كلمة: «اللهم لا أعرف إلا نفسي»!

لقد بحثت بنظراتها بعد انفضاض جموع الناس عن أخ زوجها، عن الأقارب.. كل الذين كانوا يتزاحمون على مجلس زوجها لم تشتمَّ لهم بعد الآن رائحة!.. وقالت لها الحياة يومها أن التواكل والاعتماد على حسنات هؤلاء مصيره الموت.. فقد نفذت ثروة الرجل قبل موته ولم يبق من تلك الثروة سوى هذا البيت المتواضع القائم على ثلاثة أسقف، ومعنى هذا أن دور الكفاح.. بدأ من ذلك اليوم.. وهي امرأة رجراجة الجسد، لكنها عزيزة الجانب.. فكانت خطواتها الأولى مهتزة.. عندما ملأت البيت بمستأجرين يشاركونهم السكن.. فأمَّنت مورد عيشها، وعيش ابنتها بالمبالغ البسيطة التي تستفيدها من ملء هذا البيت، وحنت على طفلتها.. ترعاها

وتنظر إليها في كل يوم نظرة جديدة... فيها صلاح التنشئة وقوامها... لم تبعثر مشاعر قلبها على إنسان آخر.. غير طفلتها، وغير ذكرياتها التي تنساب إلى خواطرها كلما تمعَّنت في وجه هذه الطفلة.. رغم أنها سمعت زفرات الأسف على شبابها الذي يقبر، وعبارات الإعجاب بجمالها الذي لم تشوِّهه تجاعيد الزمن.. وحاجة هذا الجمال إلى رجل يحضنه ويحميه من غوائل متنوعة! ولكنها أصرَّت في عزيمة الرجال أن تبقى لأمنية واحدة، تروي نموَّها حتى يكتمل لتنطلق حلقة جديدة من حياة أسرة.

وراودها عمُّ ابنتها يوماً ـ بعد إهمالها أشهراً ـ أن تكون زوجة ثانية له يهبها الحب ويعطيها السعادة التي تغمرها من كل جانب. وهو أحقُّ بها وبرعاية ابنة أخيه!

ـ قال لها: الحياة قاسية، وتحتاج إلى جلد، وعزيمة لا تتوافران كثيراً في المرأة! وحرام أن يتبدد هذا الجمال.. ليصبح كأوراق الشجر الجافة يتساقط أثر بعض!

ـ قالت: إن قولك بعيد عن مفهوم الشفقة والاهتمام بابنة أخيك، فلو أردت هذا المكنون النفسي النابع من شغاف القلب.. لبادرت به يوم أصفر وجه أخيك.. فإذا هو بلا حياة، ولكني أسمعك تحشر جمالي.. كدافع سلطاني على عقلك.. لتتزوجني وتنعم بما تشتهي، وتقول إنها الشفقة، إنها متأخرة يا سيدي ـ هذه الشفقة ـ أما الجمال فقد نذرته!..

ـ قال: .. مورد البيت لا يكفي لتغطية النفقات، ومستلزمات العيش..!؟

ـ قالت بابتسامة نصفية: الله معنا... ثم أطرقت لا تجيبه... حتى يئس من موقفها فنهض في حموة غضب، ولم يعد!..

وعادت إلى طفلتها.. تقبِّلها بشغف وحب، وهي مقتنعة بكل ما

قالته، وفي قلبها فرحة تصفق وحنان يسكب على الأمل الباقي.

* * *

هكذا كانت أمها.. وحياتهما معاً بعد موت أبيها..

وتقفز السنوات تباعاً.. تزيد في عمر الطفلة، وتبني في كيانها الجسدي مراحل الشباب الغض، فبلغت الثالثة عشرة، وهي لا تعرف من وجوه المقربين إليها إلا الوجه الذي يطالعها بين كل لحظة وأخرى ولا يفارقها.. وجه أمها التي قذفت بثلاثة وأربعين عاماً وراء عمرها وبأيامها التي وقفت مع الماضي في فصول طويلة سارة تارة، ومحزنة تارة أخرى. وتعرف وجهاً آخر كانت تختلف إليه في طفولتها.. تبتاع منه الحلوى، وبعض مستلزمات الدار الصغيرة.. وجه عم «محمد» صاحب المتجر الذي يجلس تحت النافذة.

أما «عمُّها» فإنها لا تعرف شخصه إلا من خلال تصورات الخيال، وحكايات أمها عنه، إنها ابنة الثالثة عشرة.. ترفعها الحياة إلى مدارج المستقبل وألوان شتى من مراحل العمر؟! وأمها التي تجعَّد عمرها، وذبل نشاطها.. تهبط بها الحياة إلى مستقر النهاية الطبيعية بعد حياة طويلة.. أقعدها المرض في ركن من غرفتهما.. لا تملك الحركة، ولا تستطيع المسير.. وقد استبد القلق بالفتاة الوحيدة، وأخذ منها الاضطراب كل مأخذ وهي ترى أمها تشارف على النهاية!!

ترى من سيحميها من غوائل الزمن.. ومن يدبر أمر عيشها وتصريف حقوقها الباقية في هذا البيت؟ ويخنقها البكاء بعنف دون رحمة بهذا الرواء المتفجر من جسدها، ووجهها، وتخفي هذه الخواطر عن أمها المريضة..

وهي لا تعلم أنها خواطر مطابقة لما يعتلج في تفكير أمها. .

وعند غروب يوم باك. . يطرق الموت باب هذه الغرفة. . ويعتصر نفس أمها، ويصعد روحها إلى الذي كوَّنها، وتنطلق الصرخات المبحوحة من صدر الفتاة الصغيرة. . ليسمعها جيران البيت والحي. . ويتوافد المشاركون في الألم. . يهدئون من روع هذا الشباب الفارع، المرتعد، الخائف. .

وفي غمرة الألم الشامل لكل من في البيت. . يطرق باب الغرفة رجل لا يعرفه أحد!. .

ـ من الطارق؟

وتخرج نظرات الفتاة من وراء ضلفتي الباب. . لترى رجلاً يشيع الشيب في أكثر رأسه! وآثار خدود خفيفة تنتثر في وجهه وتسمعه يقول:

ـ أنا حسن. . عمُّك!. .

وترتسم المفاجأة على وجهها في تعبير من الشك، وهي تهمس لنفسها:

ـ عمِّي!. . هل صحيح أن هذا عمِّي!. . وكيف أخرج إليه وهو يراني شابة في مقتبل العمر؟

وتصحو لنفسها، وللرجل الواقف عند الباب ينتظر الإذن بالدخول. . فتخرج إليه محوطة بحياء حزين محسور، وتقبِّل يده وهو يمعن النظر فيها، ويكاد الدمع يطفر من مآقيه. . ويقبِّل جبينها، ثم ينطلق في إتمام مراسم الدفن. .

* * *

وينتشر صوت المؤذن من أعلى مآذن الحرم.. يرتل: الصلاة خير من النوم!.

ولم تكن نائمة.. بل كانت تودِّع من بقي من المعزين وتحاول كبح إصرار عمِّها على مفارقة هذه الدار.. لتسكن في بيته، وتخيِّم على الغرفة كآبة قاتمة.. بعد أن انفضَّ كل من فيها، حتى التي كانت تقيم فيها.

ولم تجد حلاً سوى أن تنصاع لرغبة عمِّها والمسؤول الوحيد عنها فتذهب إلى بيته.. تشاركهم الحياة.. والعيش..

وفي بيت عمِّها.. كانت تجد السلوى التي تنسيها الحوادث بعض الشيء.. وكانت تلاقي حناناً من شقيق أبيها.. غير أن هذه السلوى لم تعمِّر طويلاً.. تحولت إلى معنى آخر في ذلك اليوم الذي دار فيه نقاش بينها وبين عمِّها:

ـ قال لها: إن شبابك قد نضج ـ يا بنتي ـ وجمالك في عظمته، وهذه هي السن الملائمة للزواج فلا ترفضي الفرصة ـ كما فعلت أمك رحمها الله ـ واكتسى وجهها بحمرة الخجل.. وهي تطرق برأسها وتنصت! وتابع قوله:

ـ .. وقد استقبلت الكثيرين من الراغبين في الزواج، وكنت أرفضهم لعدم اكتمال الشروط التي أريدها فيهم، فمرة يأتيني شاب وسيم.. يمتلئ صدره بحرارة الرجولة، غير أن دخله لا يكفي لتحمُّل نفقات بيت، ومرة يطلبك آخر، ودخله غير مضمون أيضاً، فأنا أريد الإنسان الذي أضمن معه مقدار دخله دون أن يهبط، و.. قد رضيت أخيراً بإنسان يصلح أن يكون زوجاً لك! إنه يمتلك داراً شامخة ومالاً لا ينضب مورده، وهو أيضاً شخصية اجتماعية معروفة في الأوساط الراقية.

واشتمَّت رائحة جديدة في حديث عمِّها.. أرادت أن يفصح عنها وهي تقول له:

ـ أنت عمِّي ووليُّ أمري الآن، ولكنه تقرير مصير ـ ما دمت تخبرني ـ ومرحلة لا تنتهي إلا بانتهاء العمر.. فكم عمره؟

ـ وتلجلج في كلامه، ثم استعاد رباطة جأشه وهو يخرج صوته بصراحة قائلاً:

ـ عمره.. ثلاثة وخمسون عاماً!.. ولكن لا دخل للعمر في هذا الموضوع..!

وأحست أن الأرض تطوح بها.. وضغطت على كلماتها وهي تقول:

ـ وهل يليق بك أن تقبر أربعة عشر عاماً في لحد هذه الشيخوخة الدارجة إلى النهاية؟!

ـ قال صارخاً: أنا أريده لك وكفى، ولا داعي للنقاش.. إنها وقاحة منك أن تجادليني في هذا الموضوع بدون حياء!؟..

وانسحبت من مكانها على قطرات دموعها الساخنة، وتركت عمَّها يخرج من باب البيت في طريقه إلى السوق، لانتقاء جهاز العرس.. وكأنه رمى من وراء مفاهمته الوهمية.. أن يغرق قلبها في يأس أبدي، وقد باتت تتذكر أمها، وتتصور موقف أبيها لو كان يعيش هذا الحاضر؟!

وسهرت لياليها التالية، وقلبها يتقلب في صدرها مثقلاً بما فيه.. ينتظر لحظة النهاية!

* * *

ولم تطل الأيام..

فقد أقيمت ليالي العرس في ضوضاء واضحة.. كأنها تزفُّ إلى فارس شاب.. في مراحل حياته الحية!!..

ودخلت البيت الجديد.. بعد أن ألقت بقلبها خارجه.. ووضعت مكانه شعوراً صلداً في يبس الحجر، وجالت بعينيها في أرجاء بهوه، وغرفه الكثيرة الواسعة الغالية الأثاث.. وشرد تصورها بسرعة إلى ـ الغرفة الصغيرة ذات النافذة الواحدة، والأثاث المتواضع، وقارنت بين المسكنين، والحياتين.. أيهما يجلب الراحة والاطمئنان إلى نفسها؟.. وهل يفعم شعورها بالرضا لهذه الأبهة التي لا تدري من أين جاءت؟.. وطافت بسمة فاترة حول شفتيها الدقيقتين وهي تنساب مع فكرة المقارنة.

ـ ليتها تعود إلى الماضي.. إن أصرَّ الماضي على جفوتها وعدم العودة!

واستقبلت حياتها الجديدة.. مع زوجها الكهل، ومع ابنة له.. تشاركها سنوات العمر، ونضارة الشباب، وبدأت تخلق لنفسها شخصية جديدة.. فيها الكثير من قسوة التصرف، وجدِّية المعشر، وضعت زوجها في يد، وباليد الأخرى قبضت على ابنته.. تسيِّرهما في البيت كيفما شاءت، وتملي عليهما ما تريد!

والزوج يرضخ لهذه السياسة محافظة على إبقاء هذا الجمال، يطلي به حياته، ويزيِّن بيته، فهو لا يقدر على التفريط!..

والابنة تهيض بجناحها، من أجل مشاعر والدها، ومن أجل نفسها، بعدما لفظها بيت زوجها.. وهي تواري في أحضانها طفلاً صغيراً ثمرة زواجها الفاشل!

وطغت هذه الشخصية على كل من في القصر الشامخ ـ حتى

عمِّها.. كان لا يحتمل قوَّتها عندما يزورها لماماً.. فيفرُّ هارباً منها، ومن بيتها!..

وتمتد هذه الحياة أعواماً، وفي خلالها كان الزوج يرتقب بلهف.. بشرى وليد يتكوّن، غير أن البشرى تبعد، والأمل يذوي في كل مرة.. وهي تطرب لهذا اليأس في نفس زوجها.. إنها تخاف المجهول، المستقبل الخفي المعالم.. فلو مات هذا الهيكل المحطم في شهقة واحدة، لخلّف لها عناء الأبد حتى تلحق به!. كما لحقت أمها بأبيها وتركتها لغيب انحسر عنه حظ أنكد..

ويزداد قلق الزوج.. عندما يشملها السرور، وتحسُّ أن البيت يغلي بمن فيه دونها، ويتهمها بتعطيل أداة النسل فيها..! فلا يثيرها هذا الاتهام.. بل يبلد فيها الحس، ويشيع الفرح وهي تقول له:

ـ أنت تحارب إرادة الله، وأنا أؤمن بقدر الله خيره وشره.

ويجيبها بغيظ مكبوت: ولكن ثروتي، مالي.. هل يذهب في بطون أخرى، وينعم به غير أهله؟.. إن ابنتي الوحيدة.. ستغلب على أمرها عندما أموت!.

ـ وتقول له: أنا أعرف أنك لا تريد أن أشاركها هذه الثروة ولكنك لا تعرف أني زاهدة في هذا المال المجمَّد الآسن!.. إن ابنتك ستعود إلى زوجها بدون شك، ولتفهم هذا..

ويشتد غيظه وهو يصرخ:

ـ ابنتي ستنعم بها بعد موتي! هذا حسن!..

وتجيبه بهدوء:

ـ ولكن ابنتك ستعود إلى زوجها ـ كما قلت ـ مرغمة من أجل طفلها.. ومن أجل حبها له.. إنها تحبه، ولم يفرِّق بينهما إلا سياستك وتدخُّلك.. ستؤول هذه الثروة إلى زوجها وإلى الطفل!

ويهمُّ بضربها، وهو يفقد اتزان أعصابه، ثم يتراجع أمام نظرات عينيها النفاذتين، وتدخل إلى غرفتها تلمُّ أمتعتها، وتصفق الباب في وجهه.. إلى بيت عمِّها مرة أخرى..

وهناك.. يثور عمُّها في وجهها، وهو يتصور الثروة التي طارت إلى الأبد، وتحملها خطواتها التي تئن إلى بيتها الأول.. الذي طالما ضمَّها تحت سقفه، ورأت من نافذته الصغيرة الوحيدة ـ لأول مرة ـ وجه الحياة، وتجمع خيوط النور.

عادت إلى البيت المهجور منذ أن فارقته.. وقد عشعش فيه العنكبوت!..

عادت إلى الغرفة المربعة.. لتشاهد كل يوم أشعة النهار الدافئة.. تغمر الكون وتحمل بين يديها الناعمتين.. فراش نومها الثقيل، وتتثنى ـ رغم أحداث عمرها ـ في ليونة عود القرنفل الطري.. وفي نهاية كل شهر يصلها مبلغ بسيط من الإنسان الذي عاشت معه بعض عمرها.. على غير ما تريد..

وفي كل يوم.. كانت تهيم في أفكار مضطربة ـ كعادتها حتى تغمض بأجفانها على حركة عينيها في نوم قلق.

# شـــذوذ. .!؟

حمل «عم أمين» صينية الشاي الأثرية.. بعد أن وضع عليها «الفناجيل» بكل حرص وأناة، وسار ناحية غرفة مدير المدرسة.. يتصنع المشية المؤدبة، وبعد أن مسح مكتب المدير بمنشفته الغارقة في الوساخة.. وضع «فنجال» الشاي وهو ينحني انحناءة احترام وأدب تقليدي.. ثم تراجع خطوات إلى الوراء، وعاد إلى غرفته الصغيرة التي يعدُّ بها الشاي الخاص لأساتذة المدرسة.

وانطلقت صفارة مراقب المدرسة تعلن ابتداء «الفسحة» الكبيرة للطلبة، ومع صوت الصفارة.. كان «عم أمين» يصلح من وضع «عمامته» على رأسه بفنية!.. ثم أعدَّ «براداً» خاصاً من الشاي.. واتكأ على باب الغرفة.. يجول بعينيه في وجوه الطلبة المنطلقين إلى فناء المدرسة!.. وبعد دقائق.. كانت الغرفة الصغيرة تكتظ بعدد من الطلبة.. مخصوصين، جعلوا من غرفة «عم أمين» مستراحاً لهم في الفسحة.. بعيداً عن الضوضاء الكثيرة في «الفناء».. ثم بدأوا المداعبة مع «عم أمين».. وهي مداعبة معهودة منهم له.. ومقبولة عنده منهم..!!

كان يبتسم لكل كلمة يسمعها منهم ـ على عرض فمه المتوسط الحجم، وهو سعيد بادي الانشراح، وعند انتهاء «الفسحة» الكبيرة.. يكون براد الشاي الذي أعدّ.. قد انتهى إلى الحثالة!..

ويهدأ «عم أمين» من جلبة الحركة فقط.. ويأخذ في تنظيف الأواني التي أمامه.. والتي خلَّفها له أصدقاء «الفسحة» وينهمك في توضيب الغرفة مرة ثانية!..

وهكذا.. تمضي الأيام «بعمِّ أمين».. راضياً بخيرها.. عاشقاً لها.. بكل شعوره.. لا يشغله شاغل عن المدرسة، حتى في أوقات «العصر».. كان يعود إلى المدرسة بعد أخذ راحته الجسمية في البيت، ويستقبل طلاب الجمعيات المؤلفة في المدرسة يقفز مجموعة من درجات المدرسة.. ليقدِّم شاياً حاراً لجمعية الصحافة مثلاً.. ثم شاياً ـ لجمعية التمثيل.. وبعد الساعة الواحدة ـ عندما يخرج مدير المدرسة.. يتجمع عنده نفر من الطلبة.. يتسامرون في غرفته الصغيرة حتى الساعة الثالثة ليلاً..

وفي هذا الوقت.. يخرج «عم أمين» من المدرسة.. طارحاً عمامته.. مسدلة على كتفيه، وبين يديه دفتر كبير فيه أسماء الطلبة المتأخرين والغائبين يومهم عن المدرسة.. وساعتها يحلو له طرق أبواب بيوت التلاميذ ليأخذ إمضاءات أولياء أمورهم ـ مع عذر تافه ترسمه حروف تقليدية (معذور!) ومن هذه الزيارات الليلية.. اتخذ «عم أمين» أصدقاء له من الطلبة قام الودّ بينهم.. يقضي عند هذا «ليلة الجمعة» لسماع حفلة «أم كلثوم!» ويقضي عند ذلك ليلة الاثنين.. يتفانى في خدمة ضيوف تلك الليلة، ثم يعود إلى بيته وقد شارفت الساعة السادسة أو الثامنة ليلاً..

وفي البيت يجد امرأته تطلق «شخيراً» عالياً.. لا تحس به، وأبناءه الخمسة يتقلبون.. مع أحلام ونوم، ويرفع «الناموسية» بحذر ـ ليلقي برأسه الخائف، ويستغرق في نوم عميق!..

وذات صباح.. وهو يقف بين المجموعة المعروفة من أصدقائه الطلبة.. يوزع عليهم الشاي والابتسامات.. رأى مدير المدرسة.. يقف

معه بين مجموعة الطلبة.. بوجهه الأسمر الصارم.. ونظراته الملتهبة تكاد تحرق كيان «عم أمين..» وارتعد.. ووضع صينية الشاي على الصندوق الخشبي المستَّر بقطعة من النايلون المنقوش.. وألقى برأسه وسط صدره الناحل، ولم يرفعه.. حتى قال له المدير:

ـ ما هذا يا «عم أمين»، أليس للطلبة فناء يجدون فيه الشاي، والأكل؟

وارتجَّ «عم أمين» وقال بارتعاش:

ـ والله.. والله أنا لم أدعهم، ولكنهم من أنفسهم يجلسون**!**.

قال له المدير: غرفتك ليست «غرزة» لطلاب مخصوصين.. أتسمع؟..

وارتعد «عم أمين» ثانية، وأعاد رأسه إلى صدره وسكت طويلاً.. حتى ذهب المدير إلى غرفته، ثم نظر حوله.. خوف أن يجد الطلبة يسمعون تهزيئه، ولكنه كان وحيداً في غرفته ولم يعد الطلبة إلا في اليوم الثاني.. فراداً كاللصوص، وقصَّ عليهم بقية حديث المدير، ثم علَّق قائلاً:

ـ أما مدير؟.. يحشر نفسه فيما لا دخل له فيه**!!**..

وأخذ مدير المدرسة.. يراقبه، ويشدِّد عليه أوامره، غير أن الطريقة التي اتَّبعها مع «عم أمين» لم تنجح.. بل كان يشعر في كل مرة بلسان «عم أمين» يمتد خلفه كلما تكلم معه**!**..

وبحث له المدير عن وظيفة في مدرسة أخرى.. ليبعده، ثم أبلغه بأمر نقله إلى وظيفته الجديدة، وودَّعه بنظرات فيها راحة واطمئنان.

ومرَّ يومان..

وفي اليوم الثالث.. كان «عم أمين» يقف أمام مكتب مدير المدرسة التي كان بها.. بانحناءة احترام وأدب تقليدي.. ثم قدَّم له ورقة صغيرة من الجهة العليا «المسؤولة» كتب فيها: «يعاد الفرّاش أمين إلى عمله الأول»**!**

# فين طريقك.. فين؟

دخل ساعي البريد، وهو يحمل على كتفه حقيبة ملأى، مكتظة بالرسائل من كل بلد، ولون، وبخطوط مختلفة، متعددة.. وعلى ذراعه الطويلة تنام مجموعة أخرى من الرسائل التي يتكفل هذا الساعي بإيصالها يومياً إلى أصحابها.. وهو غير ملمٍّ بما تحويه تلك الرسائل، وبما تحمله من معانٍ.. وأخبار!..

ووقف الساعي أمام مكتب «عادل كريم» سكرتير المدير العام.. ينتظر منه التفاتة.. حركة من رأسه المشدود إلى الأوراق التي أمامه.. وطال انتظاره.. والسكرتير منهمك في عمله، لا يحس بأحد معه في الغرفة. وتكلم الساعي:

ـ يا أستاذ.. يا أستاذ عادل.. عندي لك جواب.

وارتفعت جمجمة «الأستاذ»! عادل، وعليها نظرات متضايقة حانقة مصوَّبة نحو وجه الساعي النحيل الأصفر.. وقال:

ـ رسالة؟.. من يبعث لي رسائل؟!.

ليس لي في خارج هذه المدينة معارف أو أصدقاء أو أقارب!.

ومدَّ يده يلتقط المظروف.. ورسم خطوطاً متشابكة في دفتر البريد.. وخرج الساعي.. تاركاً الأستاذ عادل يقلِّب الرسالة بين يديه في حيرة

واستغراب! وقرأ خلفها.. والدهشة تزداد أماراتها على وجهه!.. فتاة.. بنت.. تبعث له رسالة؟! إنه إنسان لا يحب هذه المسالك.. لأنه جاد دائماً في حياته، والمرأة عنده لا تستحق التفكير إلا عندما تكون حقيقة واقعة.. تعيش معه في بيت واحد.. أما الآن..

وفضَّ الرسالة.. وقرأ:

«عزيزي الأستاذ عادل..

تخيَّرت اسمك من بين الأسماء الكثيرة التي تملأ صفحة التعارف في المجلة.. لأنني أود التعرف إلى شاب من بلدك الإسلامي العظيم.. أريد أن أعرف عن بلادكم الكثير.. الكثير، صور البلاد، طباعكم، عاداتكم، أعيادكم.. فهذه رغبتي، أما هوايتي فهي الموسيقى، وسنوات عمري تشارف الثامنة عشرة..

أرجو أن تجد رسالتي هذه.. تجاوباً عندك على الرغم من عدم معرفتي بشخصيتك وميولك، وأهوائك..».

«دعد»

ووضع الرسالة فوق مكتبه.. وجذبه تفكير طويل عميق!.. وأسئلة حائرة لم يجد أجوبة عن الكثير منها..

من الذي بعث باسمه، وعنوانه إلى تلك المجلة؟.. أي مازح ثقيل أوقعه في هذا «المقلب»؟..

ثم.. لماذا اختارته هو بالذات، وفي المجلات أسماء لكثير من هواة المراسلة.. من أبناء بلاده الذين يوُّدون من صميم قلوبهم مثل هذا النوع من المراسلة؟!

وهل تفاءلت هذه الفتاة بالتجاوب عنده.. عندما بعثت إليه برسالتها؟.. إنها مسكينة لا تعرف آراءه!..

وامتدت يد «عادل» إلى الرسالة، وهمَّ بتمزيقها وهو يرسم على وجهه ابتسامة ساخرة.. ولكن أعصاب يده تجمدت فوقها..

لماذا لا يتجاوب معها.. ما دام أنها تودُّ معرفة هذا البلد، واستقاء المعلومات.. للثقافة فقط؟.. إن هذا واجبه كمواطن مثقف!..

وفي غمرة هذه الحيرة، والتردد.. سمع اسمه:

ـ أستاذ عادل.. المدير يريدك!

وبتثاقل ظاهر.. سحب «عادل» خطواته إلى غرفة المدير.. ثم عاد في خطوات عاجلة إلى مكتبه، وأمسك بالرسالة.. وأغرق نظراته بين سطورها.. ثم.. كتب:

«عزيزتي دعد..

النساء في أشكالهن، وطبائعهن، وأسلوبهن مثل قوس قزح.. مثل ألوان الطيف السبعة.. كل واحدة تتصرف بكثرة تلك الألوان.. وكل واحدة تظهر بشكلها.. الذي يعطي جميع تلك الألوان.. وكل واحدة تقابل الرجل بعدد تلك الألوان.. ولهذا فإن الرجل يقف حائراً في أغلب المواقف، والظروف أمام قدرة المرأة على إرضاء الرجل، وإغضابه، وإثارته، وصدِّه، وإيقاعه ونفوره!.. وهذه الحقيقة الصارخة أخافتني، وأكون شجاعاً عندما أقول طبعتني على الجدة مع كل امرأة.. وتسببت في تكوين رأي خاص في المرأة عندي.. يقول: إنها لا تستحق التفكير إلا عندما تكون حقيقة واقعة تعيش معي في بيت واحد!..

ولهذا ترددت كثيراً.. وأنا أمسك برسالتك.. هل أكتب لك وأنا الذي وجدت نفسي في حرج.. لأنني ـ مثلك فوجئت باسمي على صفحات المجلة من هواة المراسلة؟!.. غير أني قررت مراسلتك لأكتب لك عن بلدي.. عن طباع أهله، وعاداتهم، وأعيادهم.. و.. لأتزوَّد بمعلومات جديدة عن المرأة!

لا تغضبي من صراحتي.. واعتبري هذه أول رسالة من مجموعة طويلة.. وإذا أردت معرفة هوايتي.. فلا أهوى غير القراءة.. أقرأ كل شيء.. وربما كان بين القراءة والموسيقى توافق.. وربما انعدم ذلك التوافق.. فأقفل المذياع لأستمتع بالقراءة وحدها..

«عادل»

وأودع الرسالة في صندوق البريد وهو يحدِّث نفسه عن المرأة.. عن رأيه فيها كإنسان مغرٍ.. منفر، غامض.. واضح، صعب.. سهل..

وتحوَّل «عادل كريم» إلى إنسان آخر.. بتفكير يختلف كثيراً عن ذلك التعقيد.. والانشغال بموضوع واحد.. يكاد لا يتغير، ولا يخرج عن حدود عمله، وإدارته: ماذا نسي أن يعمل، وما يودُّ أن يقوم به في الغد؟!.

أصبح يعيش بعدة أفكار..

سيعمل في الغد كشوف الحسابات.. ويعقب بنفسه على ورشة السيارات لتنهي إصلاح سيارة المدير!.. ويفكر اليوم في الرسالة الغريبة التي قدمت.. وتعلقت في ذيلها رسالة منه.. بعثها، وهو في انتظار ما تقوله المرأة في رأيه عنها.. وهي لا شك ستدافع عن المرأة.. ستثبت طيبتها وضعفها ومسكنتها أمام كل رجل..

وتتلقَّفه الأيام.. وهو يعيش هكذا، في انشغال ذهني لا يني، ولا ينقطع.. يتشعب به التفكير تارة.. وينحصر به تارة أخرى إلى درجة أنه يصمم على إهمال الفتاة إن هي أجابت، وتجاوبت مع آرائه!..

ولكنه في قرارة نفسه.. كان ينتظر الإجابة.. كان شغوفاً لمعرفة ما ستقوله الفتاة.. فإن رأيه الآخر عن المرأة يقول: إن المرأة تتعلق بالرجل الذي يبدي لها ألوان الإهمال، واللامبالاة بجمالها وشخصيتها!.. كان يترقب موعد قدوم الساعي في كل يوم.. ويستقبله بأعذب الكلمات:

« ـ ها.. يا عم سعيد.. جوابات ما عندك؟!».

ويسكب الساعي على وجه «عادل».. ابتسامة تقليدية، ثم يغادر الغرفة!..

وبعد شهر..

جاء الردُّ إلى «عادل».. وفي داخل الرسالة حديث أدب... ومعلومات واسعة عن بلدها «لبنان» عن جباله.. عن سحر الطبيعة فيه... عن طباع أهله وعاداتهم...

وفي الرسالة الثانية أيضاً هذه الكلمات:

«لقد وضعت على المرأة كتلة من الحديد.. فلم تجعلها تستطيع الدفاع.. أمام رأي وجدت فيه الصلابة، والتعصب لطرف..

أما النساء يا صديقي.. فلم يضعن على الرجال إلا نتفاً من القطن.. قالوا إنه غادر.. غير مأمون.. عدد نظراته فاقت ألوان الطيف التي ذكرتها بأضعاف أضعاف!.. لا يعترف بمنطق الاستئناف بعد الحكم إذا حكم في قضية امرأة.. ومع هذا فإن المرأة تجري إليه مسرعة عند أول ابتسامة يضعها بين شفتيه الغاضبتين!..

لا أزيد على هذا.. وإنما أزيدك معلومات عن بلدي.. وقومي.. وأهديك بطاقة عليها رسمي.. للإحاطة فقط بالقسمات التي تطالع خطوط رسالتك، وتتابع آراءك رغم ما فيها من إجحاف»**!**..

وتتوثق هذه الصداقة التي كتب أول سطر في فصولها صديق مجهول.. لم يعرف حتى الآن..

ويشتاق «عادل» لزيارة «لبنان».. البلد الذي لم تقدَّر له زيارته حتى اليوم.. ويعتمل الشوق في صدر «دعد» هي الأخرى لزيارة «الحجاز» لتتعرف على معالمه التي صوَّرها «عادل» في أغلب رسائله.. وترى الناس الذين عرفت عن طباعهم، وعاداتهم الكثير دون أن تعيش في وسطهم يوماً واحداً.

ويتطور اسم الأيام.. إلى سنوات في عمر صداقتهما.. والرسائل تتوالى في غير فتور، وانقطاع.. وبالرغم من تحوُّل الأيام إلى شهور.. ثم إلى سنوات.. فإن الرسائل لم تحمل في يوم.. كلمة واحدة من كلمات الغزل الرخيص**!**.. وعبارات العاطفة المراهقة طيلة سنوات ثلاث..

وبعد هذه الفترة الطويلة.. تلقَّى «عادل» رسالة من نفس البلد «لبنان»..

لم تعد دعد وحدها هي التي تراسله وتبعث إليه بالمعلومات عن بلدها.. بل كانت الرسالة الثانية من أبيها.. من والد دعد.. تحمل كلمات الثناء.. والإعجاب بأخلاقه، ورسائله إلى ابنته، وثقافته الواسعة التي اكتشفها من خلال رسائله لدعد**!**..

واصطدم «عادل» مرة أخرى بموجة من التساؤل والاستغراب**!**؟ أي صديق ذلك الذي دفع به وسط ثلاثة أعوام طوال.. يراسل فيها هذه

الفتاة.. ويدفعه الآن لمراسلة أبيها أيضاً؟!..

وماذا يقول ذلك الرجل عنه.. وهو يراه يندفع بقوّة إلى مواصلة المراسلة مع ابنته، وقد قرأ آراءه في المرأة، وقوله إنها لا تستحق التفكير إلا عندما تكون حقيقة واقعة معه في بيت واحد!؟..

وتدفعه السنوات الثلاث إلى الكتابة.. إلى مواصلة الحديث بالمراسلة مع صديقته «دعد» ومع أبيها أيضاً!..

* * *

وعاد إلى بيته بعد أن وضع الرسالة ـ كالعادة ـ في صندوق البريد.. وعند باب منزله.. أخذه والده من يده في حديث رأى أهميته واضحة على وجه أبيه.. وأنصت للصوت الذي يقول له:

ـ أنت الآن يا عادل في سن الثالثة والعشرين.. وموظف في درجة أفتخر بها في المجتمع.. وإلى متى يا ابني؟.. ألا تريد أن تتزوج؟.. إن الشباب الذي يصغر سنَّك قد أنجب أطفالاً.. وأنت بعد تصرُّ على الانفراد؟.. ألم تتغير نظرتك نحو المرأة؟..

وتطلَّع إلى وجه أبيه..

كان يودُّ أن يقول له: إن نظرتي لم تتغير فقط، ولكنها فنيت، انمحت.. وعدت أنظر بواقع آخر إلى المرأة التي لا تترك الرجل حتى تجذبه إليها!..

ولكنه صمت..

وطال الصمت.. يزيد الموقف حرجاً وتعقيداً مع أبيه..

ـ ماذا قلت.. بل ما رأيك في «نوال» ابنة عمِّك، إنكما تربَّيتما معاً،

تعرفان من طبائعكما ما لا نعرفه نحن الآباء.. والأمهات.. ومع هذا.. إذا كنت تودُّ غيرها فلا أمانع.. فقط أريدك رجلاً مكتملاً..

وتكلم عادل:

ـ كما تريد يا أبي.. نوال هادئة، ومتزنة، وجميلة!.. ولكن وددت لو كانت هذه الفكرة بعد سنوات أيضاً..

ولم يوافق والده.. قال له:

ـ .. لا بل بعد شهور..

ودخل إلى غرفته يفكر!؟.. لم لم يقل لوالده أنه يريدها.. يريد «دعد»؟.. وما الذي ألجم لسانه عن الكلام؟!..

* * *

وتفرقت بطاقات الدعوة على الأصدقاء والأقارب،.. ووضع عادل على رأسه «العقال المقصَّب».. وسار وسط ضجيج الدفوف..

وفي هذه الليلة.. رأى صديقه «حسن» يجذبه من ذراعه وهو يضحك قائلاً:

ـ والفتاة اللبنانية؟. وسنوات المراسلة الطويلة.. أنسيتها؟!

وحدَّق عادل في وجه صديقه.. وقال:

ـ إذن فأنت الجاني!.. أنت السبب في كل ما حصل.. ولكن الذنب تتحمل وزره أنت، والمقلب الذي عملته للمزاح.. لم ينته إلا بغير ما توقعت.. خذ عنوانها واكتب لها الحقيقة بدون كذب!

قال حسن: ـ بل أتركها للأيام تشرح لها الحقيقة..

وانغمس «عادل» في ليالي فرحه واستقبل أيامه الجديدة مع ابنة عمِّه.. زوجته نوال بمفهوم يصوِّر معنى الاستقرار..

ومرَّت الأيام سعيدة.. حلوة..

وتلقّى عادل المفاجأة.. عندما علم بفرحة الجنين الذي ستضعه زوجته بعد شهر.. أول مولود لهما..

وانطلق إلى السوق.. يختار الملابس للمولود الأول..

دفع بقدميه إلى كل معرض للأقمشة والملابس.. ليختار.. وينتقي، وعند باب أحد تلك المعارض توقَّف فجأة.. وتحجرت النظرات تحدِّق في الداخلين إلى المعرض!.

لا شيء.. ليست هناك امرأة صارخة الجمال تسترعي النظر بكل هذه المفاجأة!.. وليست هناك فتاة من بلده.. لم تضع على وجهها ما يستره.. إنما هناك كل شيء..

هذه الفتاة التي تهمُّ بدخول المعرض معه.. وهي تمسك بذراع رجل كبير مسنّ قد يكون والدها.. إنها.. إنها «دعد».. يعرفها من الملامح الواضحة في الصورة التي عنده..

ولكن ما الذي وضعها في هذا المكان.. بل ما الذي قدم بها إلى هذه الديار؟!

والتقت النظرات.

واقتربت منه الفتاة بصحبة الرجل المسنّ..

لا.. لا تقترب.. إنه لا يعرفها!!..

وقالت له برقّة وعذوبة:

ـ أستاذ عادل.. عادل كريم؟

ـ ز... ز... نعم عادل كريم..

ـ أنسيت؟.. قوس قزح وألوان الطيف؟!

ـ لا.. لم أنس يا دعد.. لقد عرفتك منذ نظرتي الأولى إلى وجهك.. أنتم في دياركم أهلاً وسهلاً.

وتقدَّم من أبيها يحيِّيه.. ويحضنه،

وسالت عبارات الشوق واللهفة تحضن هذا اللقاء.. وتعبت الأقدام من الوقوف.. دون أن يحس أصحابها بتعبها!.. وترددت لهجة العتاب على انقطاع الرسائل:

ـ لماذا يا عادل يا بني توقفت عن الكتابة.. لقد كنت أحسد ابنتي على صديق عاقل.. متعلم.. فهم معنى المراسلة مثل ما فهمت أنت؟!.

وتقول له دعد:

ـ لقد ظننا أنك مريض.. ثم فكرت أنك تراجعت، وعدت إلى رأيك الأول في المرأة.. وآثرت أن تنهي ما استمر سنوات ثلاث..

وأسقط في يد عادل.. لم يعرف ماذا يقول، وكيف يتصرف]!.

ولم يملك إلا أن دعاهما إلى زيارته في بيته.. وامتدت الأيدي تتعانق مرة ثانية. ثم تفترق إلى لقاء.. واتجه عادل بخطى عشواء إلى سيارته الصغيرة.. وألقى بجسده داخلها.. وضغط على البنزين بقوة متوجهاً إلى البيت.. ليستقبل الضيوف بعد ساعات!

وفي طريق عودته.. كان يتصارع مع عدة أفكار وهواجس، و..

هل يقول لامرأته؟.. هل يحكي لها سرَّ السنوات الثلاث؟ وكيف

يقف أمام الفتاة القادمة... التي تظن أنه يعيش وحيداً... مع نظريته الأولى عن المرأة!؟

وكيف يكون وقع المفاجأة بالنسبة إليها؟..

* * *

وصرخ الجرس في فناء الدار الصغيرة.. وخرج عادل ونوال يستقبلان الضيوف ـ بعد أن عرفت زوجته كل ما حدث..

ومع خطوات الأقدام.. كانت نظرات «دعد» مشتَّتة.. حائرة تتطلع إلى أثاث البيت، وإلى وجه المرأة التي استقبلتها!!؟

ترى من تكون هذه المرأة؟.. أخته؟ ولكنها حامل.. في شهرها الأخير؟..

وتقدَّم منها عادل وأشار إلى نوال قائلاً:

ـ نوال.. زوجتي!!..

وارتسمت ابتسامة باهتة صفراء على وجه دعد، وهي تحاول تصوير الفرحة على وجهها..

وانتهت الزيارة بعد دقائق.. وهي التي كانت في ذهن دعد ساعات تطول.. وابتعدت خطوات دعد عن سمع عادل.. وكأنها خطوات الحارس الليلي وهو في طريقه إلى بيته بعد طلوع النهار!!

وانقضى شهر..

وفي أعقابه كانت أصابع عادل تفضُّ رسالة من لبنان.. من «دعد».. وكانت نظراته تقرأ:

عزيزي الأستاذ عادل..

لقد كانت مفاجأة لي بلا شك.. بل سمِّها صدمة!.. وقد أحسست ببوادرها وأنا أرى رسائلك تنقطع عني!

كنت إنسانة معك.. ولم أكن امرأة أمامك؟!

قد أعترف لك الآن.. بأن قلبي كان ممتلئاً باسمك وشخصك وصورتك.. أنت فقط، ولم أصرِّح لك.. لأن هذا هو المفروض ـ كما أعتقد ـ وما ينفع التصريح في تلك الأيام.. وكلانا بعيد عن الآخر مسافات طوال!؟..

لقد كنت أجلس في أيام الانتظار لرسائلك.. يوماً بكامله في البيت أعلِّل نفسي بوصول رسالة منك.. حتى يغطي الشفق الأحمر وجه السماء.. حتى أسمع صوت العصافير تغني بدون صوتي.. كنت أقول:

ـ أين أنت الآن.. كنت أغني لعبد الوهاب «فين طريقك»!!؟

وأعترف يا صديقي.. أن تلك التصرفات كانت تصرفات فتاة غضة.. لم تعرف، ولم تعِ..

ولكني سعيدة الآن..

سعيدة لأنني ارتحت لراحتك واستقرارك في بيت الزوجية، وهذا منطق الإخلاص يا صديقي..

وسعيدة لأنني عرفت الطريق إليك، وعدت منه وأنا أتمنى لك الحياة الهانئة..

أما طريقي أنا.. فقد أصبح بعيداً بعيدًا!!.

# سماعة التلفون

شارفت الساعة على الواحدة والنصف ليلاً.. وفي هذا الوقت كانت كتل الظلام تستقر في كثير من زوايا «سويقة».. وقد بدت بعض المتاجر المتراصة إثر بعضها، وأمامه مقفلة، ووقع أقدام غير منتظمة تذرع الطريق جيئة وذهاباً.. بعض هذه الأقدام أتعبها أصحابها من كثرة التسكع في طول الطريق وعرضه يدفعهم الفراغ إلى ذلك!.. ويندفعون أيضاً بإحساسات مراهقة!..

لقد أصبحت حركة البيع والشراء في هذا الشارع المخصص لبيع الأقمشة، والملابس.. فاترة مات فيها النشاط، «فالموسم» الذي تزداد فيه حركة البيع انتهى ولحقت في أثره زفرات فائضة من قلوب بعض التجار.. لأنهم لم يستطيعوا تصريف بضاعتهم مثلما كانوا يحلمون ويأملون.. وهذه هي فترة أخرى تمرُّ أقسى من غيرها.. فهي فترة «البصارة» كما يطلقون عليها.. وفيها تبرد حركة البيع والشراء..

ولهذه الظروف فإن أغلب أصحاب المتاجر في «سويقة» يفضلون أن يوصدوا أبواب متاجرهم في هذا الوقت المبكر من الليل..

وقام «أحمد صبري» يجمع نماذج الأقمشة التي يعلقها يومياً في كل صباح أمام متجره، ثم وضع على كتفه إحرامه، وأوصد متجره متخذاً طريقه إلى بيته..

كان يحسُّ في صدره ضيقاً وتأفُّفاً لا يدري مصدرهما!!.. ربما كانت هذه الأحاسيس نتيجة للحالة التي يعيش فيها هو، وكل جيرانه أصحاب المتاجر الأخرى، فتور في السوق وفي البيع، ومع هذا فإنهم لم يلمحوا بوادر علاج لأزمتهم!.. ماذا جرى؟

وغرق في ذهول، وحيرة.. لم يفق منهما إلا عندما طالعته نوافذ بيته الذي يسكنه، وتذكَّر زوجته الجميلة الشابة، وطفله الأول في وجهه براءة عذبة حلوة.. لماذا يدخل عليهما منقبض الأسارير.. متجهم الوجه؟.. ما هو الذنب الذي اقترفاه حتى يشركهما في بأسه وضيقه؟..

ودفع ضلفة باب البيت المكوّن من طابقين، ثم أوصدها، وبدأ يصعد درجات سلَّم البيت في بطء وهدوء..

وقبل أن يصل إلى مدخل الدور الثاني.. سمع صوت زوجته يعلو وقد أحاطته الفرحة!.. مع من تتكلم.. من جاء إليها؟!..

وأمسك بخطواته عن التقدم، وأنصت إلى صوت زوجته ينساب رقيقاً إلى أسلاك التلفون.. ممزوجاً بضحكة ناعمة ليِّنة؟!..

وقد سمعها تقول:

ـ لا أستطيع الحضور غداً، لأن «أحمد» لا يخرج من البيت إلا متأخراً كعادته في كل يوم سبت!

! .......

ـ تحديد يوم الاجتماع غير معروف بالنسبة إلي الآن.. دعوه للظروف عندما تسمح!..

! ................

ـ ها.. ها، وهل أنتم مشتاقون لرؤيتي إلى هذا الحد؟

! .............

ـ ألا يمكن تأخير مجيئي إلى يوم آخر؟

وتزداد ضحكاتها وهي تقول: القلوب عند بعضها!..

! ............

ـ .. وأنا أيضاً أتمنى أن أراكم في كل لحظة.. الاجتماع بكم غايتي وسعادتي، ولكن ـ كما تعرفون ـ مسؤولية البيت، والأطفال. و... الزوج أيضاً؟!

ـ عندما أجد الفرصة القريبة.. سأتصل بكم، وأحدِّد موعد الاجتماع!

ولم يتحمل «أحمد» أكثر مما سمعه رقة وحبًّا وشوقاً عارماً.. فقذف بنفسه إلى داخل الغرفة.. تدفعه أعصابه المتوترة، وأمسك بسماعة التلفون بعد أن نحى زوجته، وأدار إصبع التلفون بسرعة قبل أن ينقطع الخط، ولا يعرف من هو المتكلم!.. وتجمدت أصابع يده على السماعة كأن لا دم فيها!..

وتجمدت في الزوجة نظراتها.. وهي تحدِّق في سحنة زوجها، وحالته.. ماذا أصاب الرجل؟.. إنه هادئ بطبعه منذ أن اقترنت به قبل عام مضى؟ ونظرت إلى نفسها.. ما لها هي الأخرى ترتجف.. ما بال أرجلها تتخبط؟!.. و.. هو.. زوجها.. لقد عاد مبكراً هذه الليلة. لماذا؟!.

واضطربت في دوّامة هذه الحيرة!.

أما «أحمد» فقد قال بصوت حانق.. وفمه على سماعة التلفون:

ـ من المتكلم؟!

! . . . . . . . . . . . .

ـ شكراً. . أريد المركز!

ووضع السماعة في مكانها، وقد اقتربت منه زوجته تقول:

ـ هل تأكدت من شخصية المتكلم؟!. .

وارتفعت نظراته باردة بلهاء لا حياة تطل معها. . وبحث عن الكلمات في حلقه الجاف، وقال بصوت متشنج:

ـ ألا تستطيعين الاحتفاظ بكل هذه الضحكات التي سمعتها، وبكل ذلك الكلام الرقيق الذي لا يليق بسمع عامل السنترال إلى أن تلتقي أختك وتضحكان ما شاء لكما الضحك؟. . وسحبت خطواتها إلى ركن الغرفة. . وهي تقول:

ـ ولكني لا أعترف أن كلامي غير لائق وخال من الأدب.

ـ إن طريقة حديثك لا أقبلها أنا كرجل يسمع صوت زوجته في التلفون!. .

ـ ماذا جرى لك؟. . وأين كلامك السابق؟. . ألم تقل لي مرة أننا مظلومات في كثير من حقوقنا، وإنكم أنتم الرجال تغتنمون عواطفنا نحوكم، وتظللون علينا حتى تنسونا حقوقنا؟!. . ولماذا تضع في بيتك تلفوناً ما دام في اعتبارك، وفي مفهومك مثل هذه الاعتقادات، ومثل هذه الآراء؟!. . لقد كنت أتكلم مع أختي، وليس مع إنسان غريب دفعتك ظنونك إلى توهُّم شخصيته؟

ـ أنا لا أحتمل هذه المرافعة، ومهما قلت بالنسبة لقضيتكنَّ في

مجتمعنا نحن الرجال.. فأنا لن أرضى مطلقاً هذه اللهجة في التلفون.

ـ إذن.. أنا لا أريد تلفوناً في بيتي..

ـ وأتعب أنا في أعمالي التجارية من أجلك؟!

ـ وأنا لا أعرف غير هذه اللهجة.. إن هذه أصواتنا نحن النساء هل لديكم ما يحيله إلى صوت خشن؟!..

وامتلأ وجهه بحمرة الغضب.. وقد اقترب منها حانقاً يقول:

ـ شيء عجيب!.. إن لسانك الذي يجيد لهجة الرقة في التلفون يجيد أيضاً لهجة التحدي معي أنا؟

ـ ولكن رقة لساني كانت مع أختي.. أف.. أين ذهبت آراؤك السابقة.. أم أنك تجعل الغضب يتحكم في أعصابك إلى هذه الدرجة؟

ـ أنا أكفر بآرائي في المرأة كلها.. ومن الآن عليك أن تفهمي أنك إذا تحدثت مرة أخرى في التلفون فأنت.. أنت طالق!!

* * *

وهدأت العاصفة.. كأن ماءاً بارداً غمرهما في تلك اللحظة.. وشعر «أحمد» بأطرافه تتثلَّج، وهو ينهار على الأرض!.. ماذا فعلت يا أحمد؟.. انظر.. انظر إلى وجهها الذي كان منذ لحظات مورِّداً.. تفوح منه رائحة الحياة الناشطة كيف تحوَّل إلى اصفرار باهت.. انظر يا «أحمد» إلى هذا الفم الرقيق الممتلئ.. وقد اتسع يرمز إلى بلاهة!

وتابع «أحمد» حديثه إلى نفسه:

ـ من أجل التلفون؟.. وأين ذهبت آراؤك في المرأة.. نعم أين ذهبت

كما قالت لك؟.. لقد كنت تحدِّثها دائماً بأقوال تشيع السرور في نفسها، وتضع الاعتزاز والثقة على سحنة وجهها. كنت تقول لها يا أحمد: إن الجهل دائماً يظلم الناس، ولقد كان الجهل في مجتمعكنَّ.. بنسبة ٩٩٪ ولهذا فقد كنتنَّ مظلومات.. يستعملكنَّ الرجال كالخدم للغسل والكنس والطهو والاستمتاع فقط!.. ليس لكنَّ رأي.. بل أنتن منجذبات إلى كل ما يقرره الرجل!.. إن النساء في صدر الإسلام كنَّ يتمتعن بحقوقهن كاملة.. بل إن مشاركتهن لأزواجهن معروفة!.. لقد قلت هذا يا «أحمد».. وماذا فيها لو كظمت الغيظ، وبحثت موضوع الشك هذا بهدوء.. وأنت الذي تضع ثقة كبيرة في زوجتك؟..

هل دفعك إلى هذا التصرف ضيق صدرك من حالة السوق؟.. ولكن ما ذنبها؟!..

ولكن يا «أحمد» إنك تحبها.. تعشقها.. تتفانى في هذا الحب، ولهذا فغيرتك في محلِّها.. أتذكر يا «أحمد» ذكريات هذا الحب الذي أثمر الزواج وأنتج هذا الطفل الجميل البريء؟..

قبل عام ونصف.. جاءت إليك في المتجر فتاة قالت عنها نظراتك المتفحصة إنها لا تتعدى التاسعة عشرة.. ووقفت أمام متجرك، وقد أبرزت يدها اليمنى التي تمسك بقطعة قماش.. وقالت لك بصوت يكاد يضيع في موجة الحياء:

ـ عندك من هذا القماش؟

وقمت يا أحمد يا صبري لحظتها بسرعة، واختطفت طاقة القماش وفردته أمام وجهها المتواري خلف خمار شفاف أسود.. ومرة أخرى قالت لك نظراتك عنها:

ـ أوه.. كم هي رائعة جميلة، بيضاء، ذات قوام ممشوق، تنفذ من نظراتها أشعة ساحرة، وبرزت أنامل يدها تتلمَّس جودة القماش وهي تسأل عن سعره، لقد كانت تقف في هدوء يلفُّه حياء لم تألفه كثيراً!..

ولففت لها القطعة التي اشترتها، ونظراتك تتعلق بنظرتها الثانية إلى وجهك. لقد كانت هي الأخرى تفحصك بنظراتها.. نظرات فقط.. وغابت قطعة القماش تحت عباءتها، وقد أحسست أن قلبك أودعته تلك اللفافة..

ما هذا يا «أحمد».. ماذا أصابك.. هل كانت هي الأولى من النساء اللاتي يقفن أمام متجرك ويبتعن منك؟.. ولكن لم تكن الأولى، إنما تختلف.. تختلف يا «أحمد».. ولكنها أين غابت.. ومن تكون؟..

* * *

وانطلق «أحمد» يقفز من متجره، ويمسك بأول منعطف رآها تدخل إليه، ونظراته مبعثرة تصطدم بوجه كل واحدة.. حتى الرجال!.. ماذا أصابك «يا أحمد»؟.. إنها هناك.. هناك!

وأحس بارتياح ينسرب إلى قلبه، وأخذ يسير وراءها دون أن يقترب منها حتى لا تشعر بمطاردته لها..

ومرَّت دقائق عشر.. عاد بعدها ووجهه يتهلل بشراً بعد أن عرف من تكون، وأي بيت دخلت!؟..

وانقضى شهر على حبه الذي استعمر قلبه، ولم يعد يفكر إلا في ذلك الوجه الكريستال ـ كما سمَّاه! ـ والكريستال أغلى نوع في الزجاج الشفاف!..

ورآها يوماً تقف أمامه.. تماماً نفس الوقفة الأولى التي فتحت له آفاقاً جديدة في قلبه.. وهي تقول له:

عندك «حبرا» أصلي؟!..

وظهر الامتعاض على وجهه وهو يجيبها:

آسف.. لا توجد عندي!..

وعندما تحركت قدماها لتغيب بها في المنعطف.. سمعته يواصل حديثه لها:

في السوق «حبرا» ولكنها مختلفة توجد أصلي، وتقليد.. وخوفاً من الوقوع في نوع رديء.. اسمحي لي لمدة دقائق تقفين أنت هنا، وأسرع أنا لأعود إليك بنوع أصلي جيد!

وأحسَّ بأن نظراتها تنغمس في وجهه، وكأن فمها ينفرج عن ابتسامة ماكرة! ومدت إليه نفس اليد الجميلة تعطيه قيمة القماش!..

لقد كانت تقف أمام متجره وحيدة.. كأنها حارسة على ما في داخل المتجر، ونظراتها مبعثرة في وجوه الغادين والرائحين، وتفكيرها يعمل كعداد الكهرباء الذي يحس ضغطاً!؟.. لماذا رضيت بهذا الحل.. وهو.. ماذا يعني بتصرفه هذا، ومن نظراته تلك؟!

وأطلَّ «أحمد» برأسه من بين السائرين.. ثم ناولها اللفافة وهو يقول:

سأحرص من غد على توفير «الحبرا» في هذا الدكان!

وقد حرص «أحمد» على أن يكون السباق إلى بيت أبيها قبل أي إنسان.

وعندما احتواه كرسي «النصة».. كان يتطلع إليها بِوَلهٍ.. لقد رآها تضع تحت جفني عينيها بريقاً من الجرأة،.. وهي تركز نظراتها في وجهه.. كأنها تريد أن تطمئن!.. وشعر بارتياح نظراتها وهي تتجول في وجهه. ثم.. أغمضت عينيها على بسمة رقص لها قلبان!..

ووضعت زوجته طفلهما الأول في جوِّ الحب والتفاهم..

وخلق الرباط المقدس بينهما معاني كثيرة من التوافق والوله.. تغار عليه حتى من النظرة العابرة، ويتذكران معاً الأيام القصيرة الحلوة عندما كانت تبتاع منه!

* * *

وأفاق «أحمد» من استغراقة.. وقام يبحث عنها، ووجدها تضع وجهها الصغير على ساعدها، وقطرات من الدمع تبلِّل الساعد.. ولم يملك نفسه.. فقد احتضنها وعلى وجهه أسف عميق!..

وذات ليلة..

استيقظ «أحمد» وهو يشعر بمغص حاد في أمعائه، ويتلوَّى بكامل جسده واضطر الطبيب الذي جاء أن ينقله إلى المستشفى لإجراء عملية الزائدة الدودية!..

وبقيت الزوجة في البيت.. لا يراها إلا في أوقات الزيارة المعيَّنة، يحاصرها الإحراج في كل لحظة تسمع فيها صوت التلفون!

وانتهت العملية، وعاد زوجها إليها، وقد أنهك المرض قواه.. يصارع في يومه صداعاً يوثق رأسه بالوسادة دائماً..

وازداد المرض «بأحمد».. وارتفعت درجة الحرارة إلى مستوى

مفزع.. وأصبح في حالة تدعو إلى طبيب يفحصه، وينقذه مما هو فيه من ألم، وينقذ زوجته من الاضطراب الذي كبَّلها..

وبدأ «أحمد» يثرثر بكلام مفكك ليس له معنى يربطه.. وزوجته في اضطرابها تبحث عن إنسان يدعو الطبيب..

وفجأة.. قفزت إلى التلفون، وطلبت شقيق زوجها من بيته لينقذها، وينقذ أخاه من ألمه القاتل،.. ولكنها قبل أن تنهي المحادثة ألقت بسماعة التلفون في عنف.. وصرخت، وارتفع صوتها بنحيب حزين!..

وأمسك «أحمد» برأسه الثقيل بين يديه، وانحدرت الدموع من عينيه، وألقى برأسه المثقل بكل شيء على الوسادة!!

# على سياج السفينة

.. وانفضَّت حملات الموج عن جانبي السفينة.. وبدأ الطريق هادئاً أمامها كأنها تسير على بساط من القطن.

وأطلق أحد مساعدي القبطان آهة ارتياح.. وانطلق إلى ظهر الباخرة.. يلحق بآخر نظرة من هذا اليوم الآخذ في الأفول.. وأعجبته حمرة الشفق القاني.. والشمس تذوب بين أحضان الغروب.. فمال بظهره العريض على سياج السفينة.. وضبط آلة التصوير التي بيده.. ثم التقط صورة فنية للشمس في آخر لحظاتها..

وظن أنه انتهى من تصويره.. ولكنه أبصر على بعد قريب منه.. ذراعين بضَّتين.. وخصلاً من الشعر الأشقر.. تتناثر في عدم اكتراث على كتفين.. سوياً بفنية.. وازدادت نظراته اتساعاً.. كأنها عدسة تصوير.. ثم أحسَّ حركة تدبُّ في رجليه.. سار معها.. حتى وجد نفسه وجهاً لوجه.. لا يفصل بينهما إلا المساحة التي قدَّرها.. ليستطيع أن يلتقط صورتها.. وركّز عدسة التصوير.. على عينين زرقاوين.. وضعتا بعناية فوق خدين.. في لون الشفق..

وتنبَّهت للواقف بمقربة منها على صوت آلة التصوير.. وعلت وجهها حمرة خجل.. ثم تحوَّلت إلى غضب..

ـ إنه صفيق هذا الرجل!.. كيف يجرؤ على التقاط صورتي بهذه الوقاحة.. هل ظنني تمثالاً لا يملك الحركة والكلام والتصرف؟..

ولكنه.. بعد أن أعاد آلة التصوير إلى جرابها.. تقدَّم إليها في خطى دبلوماسية كان فيها الاستغفار عما فعله.. ووضع ابتسامة خفيفة على شفتيه.. وهو يقول:

ـ آسف.. يبدو أن تصرُّفي هذا أزعجك؟

! .........

ـ لقد كنت أعتقد ـ في وقفتي ـ أن الجمال تتمتع به الشمس في لحظات غروبها.. والشفق يسدل عليها غلالته الوردية.. ثم تحوَّلت نظراتي بمنتهى السرعة إلى حيث كنت.. فإن كان تصرُّفي أثارك.. فهو تصرُّف بدون إرادة!..

ـ ولكن.. مفروض عليك أن تستأذن عند التقاط الصورة.. ومن حقي أن أوافق أو أرفض..

ـ وإذا كنت فقدت الإرادة.. والتصرُّف؟..

... لقد رأيت وجهك أمامي.. فظننت أن الممانعة من قبلك لا وجود لها!

ـ ألم تشعر بأنني كنت شاردة عن كل ما حولي؟

ـ ولم الشرود؟!..

ـ أنا أرجو أن أتسلَّم الصورة التي التقطتها!..

ـ حالاً.. دقائق، وأعود بها مرآة تعكس لك المنظر الذي أفقدني التصرُّف!

وحجبته غرف السفينة عن عينيها.. وبقيت وحدها.. تشاهد أنوار السفينة.. يضيئونها استقبالاً للمساء.. وقد انعكست ظلالها على صفحة الماء!

وشرد بها التفكير إلى وطنها «السويد».. إلى أمها العجوز التي أتت يد الزمن على نضارة وجهها فحوَّلته إلى تجاعيد على طبقات!.. لا تستطيع أن تعمل.. أن تساعد ابنتها لكسب العيش..

إنها تذكر الدموع المنهمرة من عيني أمها.. وهي تخبرها بنبأ فصلها من المصنع الذي كانت تعمل فيه.. إنها في حيرة.. لعدم حصولها على عمل.. وقررت أخيراً أن تعمل على ظهر هذه الباخرة ـ في أي عمل ـ لتعيش حياة الشرفاء!..

وتساقطت قطرات من الدمع المر.. ألهبت الوجنتين اللتين اقتطعتا من الطبيعة!.. وسمعت من يقول لها:

ـ أراك تبكين.. آسف ـ مرة أخرى ـ لما سببته لك يا عزيزتي!

ـ إنني لا أبكي ـ يا سيدي ـ على الصورة المصورة.. ولكني أبكي على الصورة الأصل!

ـ وهل من يملك كل هذه الثروة من الجمال يبكي؟.. إن من يملكون هذا الجمال.. يشتاقون دائماً إلى قطرات من الدموع ولا يجدونها!..

ـ أنت تعيش في البحر ـ يا سيدي ـ .. أنت تشاهد الشمس وهي تنشر ابتسامتها العذبة في لحظات شروقها.. ثم وهي تستحي.. فتحتجب عند الغروب.. هذا جو الشعراء.. أنت مصور يا عزيزي السيد!..

ـ عجيب منك هذا السواد النفسي الذي يخيم على حياتك.. وأين موطنك؟

ـ موطني السويد خلفت فيه أماً أخاف عليها في كل يوم أن تلفظ أنفاسها.. ولا يقوم أحد بدفنها!..

ـ وما هو العمل الذي تشغلينه؟

ـ أنا!.. عملي هنا على ظهر هذه الباخرة..

ـ كيف؟.. من متى وأنت تعملين هنا؟..

ـ قريباً.. من يوم أن أقلعت الباخرة عن بلدتي..

ـ ي ـ... ي... يبدو أنك آنسة؟

ـ واحمر وجهها وهي تقول: فعلاً!..

ـ إذن.. أنت زميلة في العمل.. والرحلة.

وقدم لها صورة جميلة لفتاة.. تقف على سياج السفينة.. تترك شعرها لقبلات النسيم..

وابتسمت.. وهي تقول له:

ـ إنك تجيد إخراج الأصل.. في نفس الصورة!..

ـ أشكرك.. إن هذه هوايتي، أمارسها كلما انتهيت من عملي هنا.. وأملك مناظر كثيرة تصور الطبيعة الرحيمة.. أحاول أن أصبغ نفسيتي بجمالها..

ـ وأين موطنك؟..

ـ موطني الأصلي «المكسيك» ولكن أعيش ـ الآن ـ في موطني

هذا.. وسط البحر.. ولي فترة أستريح فيها.. وأعيش مع الناس على الأرض، ولو أني أحس بشوق عظيم إلى البحر كلما بعدت عنه أياماً!

ـ وكيف تترك أهلك!

ـ إن أهلي ـ يا سيدتي ـ هؤلاء.. كل الذين على الباخرة.. أهلي زملائي في العمل!.. وأهلي كل زملاء الرحلة من ركاب السفينة..

ـ ولكن عمرك يقاس بالخامسة والأربعين.. وليس لك أطفال؟

ـ إنني أبحث عن الأم.. قبل الأطفال..

ـ إنك إنسان طيب.. كالطبيعة الخيرة..

ـ وأنت إنسانة.. بدأت أحبها.. فهل تقبلينني زوجاً لك.. أحمل على كتفي ٤٥ عاماً؟

ـ إن الرجل.. يعرف مكان عقله في الخامسة والأربعين من عمره!..

* * *

واتفقا على الزواج.. في بلدها.. وبجانب أمها ـ بعد انتهاء رحلة هذه الباخرة..

وبعد أيام.. وصلت الباخرة إلى ميناء جدة.. تفرغ حمولتها.. ثم تواصل سيرها..

ونزلا معاً إلى الأرض.. ليتجولا في أسواق جدة.. وفي طريقهما إلى الأسواق.. تعلقت النظرات بعنق الفتاة الجميلة..

والتقط عدة مناظر للناس.. على أرض جدة.. وفي شوارعها.. واختار عدة مناظر لهما.. تذكاراً لزيارتهما معاً لأول مرة!.

ثم عادا إلى الباخرة.. في انتظار الرحيل..

ولكنهما فوجئا بالبوليس.. يقتحم عليهما مكانهما.. وينزلهما محوطين بالجنود!..

وسكت الرجل المكسيكي وهو في يد رجل البوليس في جدة!.. وتعلقت فتاته بذراعه في ذعر وخوف.. لا تدري من أمرهما شيئاً..

وفي السجن.. وجد من يتكلم معه بالإنجليزية.. فقال له:

ـ ماذا فعلنا؟

ـ يقولون إنك تتجسس، وتأخذ معك صوراً تستخدمها للغرض نفسه!

ـ وخطيبتي التي معي.. أين هي؟

ـ سيطلقون سراحها ـ على ما أعتقد ـ لأن المشتبه فيه أنت وحدك!!..

ـ وضحك الرجل بجنون.. واقتحم غرفة رئيس السجن.. يصيح:

ـ إذا كنت جاسوساً عندكم.. فاسجنوا خطيبتي معي.. لقد كنا معاً على ظهر السفينة من بداية الرحلة!.. إنني أتهمها معي زوراً.. كما اتهمت أنا!

ولم يهدأ الرجل من هياجه.. إلا عندما شاهد خطيبته.. ووقف بعصبية.. ثم توجه إليها.. كمن أصيب بلوثة جنون، وضحك في وجهها.. ثم قال:

ـ ابعثي إلى أمك برقية.. قولي لها سنتزوج.. سأتزوجك أنا فقط.. لوحدي.. حتى ولو بقينا في السجن!

# أم بلا حنان

أخذت أشعة الشمس المخضبة بالشفق القاني تنحدر وراء الجبال الشامخة التي شهدت الكثير من أحداث الحجاز.. وتفسح للنجوم مكاناً تتلألأ فيه..

وأخذ الباعة من أصحاب المتاجر الصغيرة، والمتواضعة.. يستعدون لإضاءة متاجرهم (بالأتاريك) قبل أن تعم الكهرباء البيوت والمتاجر..

وفرغ عم (باسويد).. ـ الحضرمي المتخلف ـ من شحن (الأتريك) بالهواء، وامتدت يده تقبض على السلسلة المدلاة من سقف المتجر وأمسكت يده الأخرى «بالأتريك» ترفعه إلى مكانه المعروف الذي يعلق فيه كل ليلة.. وفي اللحظة التي أوشك فيها أن يعيد قدميه إلى الأرض.. زلت قدمه اليسرى فتدحرج كالبالون العائد من الفضاء وبه ثقب. ومع ارتطام جسده بالأرض سمع صوت النحيب المتقطع الخافت الذي ينحدر إلى أذنه كل ليلة من نافذة البيت الذي يقف تحت متجره المتواضع.. وحمل جسده بين قهقهات الكثير، وجزع القليل من المارة والجيران وهو يتمتم:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، منذ أن توفي «حسين» وامرأته لا تفارق الدموع عينيها، وصوتها يأتيني كل ليلة في أنين مخنوق.. يسبب لي حادثاً شبيهاً بحادث الليلة..

واستمر الأنين المخنوق، ثم تطور إلى نحيب متواصل يجرح الرقة المتناهية في صوت الباكية «زوجة حسين» التي تركها زوجها في أوج شبابها ونضارتها، وخلفها للحياة وتصرفات الأيام وهي في الخامسة والعشرين..

كانت جميلة منذ أول نظرة إليها.. حتى مستقر النظرة وعمقها. لها أنف شامخ في كبرياء، وشفتان رقيقتان ركبتا إطاراً لفم صغير لا يعرف القهقهة.. وإنما يغري بالبسمة التي تطوف حوله..!

وهي بهذا الجمال الهادئ الذي سوره الحزن الطبيعي.. أنجبت من زوجها أربعة أبناء.. تركهم لها.. للخمسة وعشرين عاماً، لترى الأيام كيف يمكن لهذه المرأة الغضة أن تتصرف..!؟

لكن «فاطمة» نفسها لم تكن تعلم كيف تتصرف، وما هو المستقبل الذي ينتظرها وكيف يحولها، وما هي معالمه..!؟

أفكار كثيرة تنتابها في كل حين.. وعندما ترى أبناءها يقفزون حولها.. وعندما تختنق الشمس في ثمالة النهار ولا تجد ما يخفف عنها ثقل تلك الأفكار.. تندفع دموعها الصيبة وتتساقط بغزارة.

وقد تمنت في ليلة من لياليها لو أن حظها لم يقذف بها في بيت الرجل الذي رحل وتركها تعول وحدها كمية الأبناء!.. ثم عادت فأسقطت الكثير من دموع الندم على أمنيتها. فهذا حظها.. وعليها أن ترضى بما كتب الله لها في سجل عمرها..

لقد كانت تعيش في بيت أبيها عيشة السيد الذي يطلب كل ما يريده ولا يرد له مطلب.. هانئة بحب أمها، وعطف والدها، وأمواله المتدفقة التي لا تنضب..

وتقدم إلى أبيها الكثير من طالبي يدها.. يتمنون أن يصل هذا الشيء الثمين بين أيديهم.. غير أن العقلية التي تسكن في رأس والدها أصرت أن يكون الزوج من الذين لا يملكون ثروة طائلة تضيع بين أكداسها حقوق الزوجة، ومن الذين لا يجمعون أكبر عدد من الأهل والأقرباء حولهم.. حتى لا يقصر عمر الزوجة في بيت زوجها!!..

واضمحل ذلك الإصرار العتيد عندما تقدم «حسين» إلى والدها بكل الشروط «والمؤهلات» التي يريدها والتي تنحصر في مهنة «الدلالة».. يعيش الزوج على سوقها، وعلى ما تدر عليه بحسب الحظ والطالع، وحركة السوق!.. وهي مهنة شريفة بلا شك.. ومعناها في عقيلة والد «فاطمة» أنها تدفع الزوج إلى الكد الطويل وتفصد العرق لينداح من جبهته ويبني به حياته وحياة أبنائه، وبهذا التفكير قال لزوج ابنته:

ـ لقد اخترتك زوجاً لابنتي من وسط السوق التي تضم الكثير من الأذكياء.. الذين يعرفون كيف يحافظون على قرشهم..

وقال الزوج يومها:

ـ إن السوق يا عم لم تعد تعتمد اليوم على الذكاء والحيل التجارية.. بقدر اعتمادها على المال الغزير.. والناس لم تعد تثق في وجود معنى الإخلاص.. إلا الثقة في وجود المال أمام أعينهم.. أضف إلى أن الاستيراد غير منظم، لأن كل واحد يستورد كل ما يحلو له ويظن فيه نجاح سوقه.. ما جعل الكثير من البضائع تتكدس في ساحة الجمرك تنتظر مستورديها ليدفعوا التخليص وقيمة الشحن، ولكنهم لا يملكون ذلك إلا إذا جاء عن طريق القرض والتسليف..

والبضائع نفسها ليست خاضعة لتسعيرة رسمية.. كل يبيع بالسعر الذي

فيه الربح الكثير.. ثم لا تنس يا عم.. الأغنياء الذين يحتكرون استيراد بعض البضائع ليزيدوا من ثرواتهم على حسابنا نحن الضعفاء تجار القطاعي والموزعين، وعلى حساب المستهلك..

وضحك الرجل الكبير في سنوات عمره وهو يقول لزوج ابنته:

ـ لا يا ابني.. إن أمامك التجارب لتعرف التجارة على حقيقتها. لأن الذي قلته مليء بالظن.. فلا يفتت العزيمة فيك..

ومضت تسع سنوات.. أفحمت «حسين» كثيراً وأعطته التجارب القليلة والمال المقتر، والأبناء الكثير، ورحل عن كل هؤلاء منهكاً معدماً تاركاً ظله المديد يحضن الأبناء وأمهم..

* * *

وقررت (فاطمة) بعد هذا الاسترجاع السريع لفترة حلوة من حياتها أن تبدأ الحياة الجديدة بإيمان قوي راسخ، وعليها أن تطلي الخمسة والعشرين عاماً بطلاء قاتم تأخذه من محنتها، ومن قسوة أيامها..

وتذكرت والدها ومديد عطفه عليها، وقالت تهمس لنفسها في تلك اللحظة:

ـ لماذا لا أستعين بوالدي على تربية هؤلاء الصغار.. يساعدني على تنشئتهم بسلوك يرضى عنه المجتمع والمستقبل؟

وافترشت هذه الفكرة في رأسها مكاناً كبيراً، ووضعت عباءتها التي بهت سوادها على رأسها، والتقطت يد ابنتها الصغرى.. في طريقها إلى بيت والدها.. وكأنها تسير بقدَمي راقصة الفالس التي انتهت من رقصتها في نشوة كبيرة!..

ودخلت الغرفة الكبيرة التي يتصدر في نهايتها والدها وهو يجلس بكامل ملابسه.. عقاله على رأسه، وعباءته السوداء الشفافة ترقد بجانبه على الوسادة، وأصابعه تدحرج حبات المسبحة في حركات رتيبة، وعلى شفته العليا شنب كث «يرقص عليه الطير!» ومن عينيه تبرز الصرامة التي لا تختفي حتى عندما يضحك.. وأخذت «فاطمة» يده تمرغ وجهها في باطنها بَوَلَهٍ وتقدير، وهو يقول لها:

هل أنساك التفكير في مستقبل أولادك زيارتنا ورؤيتنا؟!..

ـ قالت بألم: إن التفكير يملك كل عقلي، ولكنه لم ينسني أبوي وأهلي، وقد جئت إليك اليوم لأراك، وأشعر بالحنان الذي فقدته مرتين.. مرة عندما فارقت هذا البيت إلى زوجي، والمرة الأخرى عندما فارقني زوجي إلى مثواه الأخير..

ومال رأس الوالد إلى صدره وهو يجيبها:

ـ لم نمنع عنك الحنان، يا ابنتي، ولكنك أردت منعه عن نفسك.. عندما عرضنا عليك العودة إلى هذا البيت فلم توافقي..

ـ قالت: .. وذلك لأن عندي أربعة أبناء، ومهما يكن اهتمامكم بهم، فقد يسببون المتاعب إذا انضممنا جميعاً في بيت واحد، لكنني لن أستغني عن عونك، وقد جئت اليوم أطلبه منك.. أتمنى أن تساعدني بقليل من المال.. لبينما تصفى حقوق زوجي من التجار، ومن كان يسعى لهم في تجارتهم، أما الدار الصغيرة ذات الطابق الواحد التي امتلكها زوجي الراحل بعد أبيه.. فإن النزاع عليها لم ينته بعد ـ كما تعلم ـ مع من ادعوا أن لهم فيها «قراريط»..

وانطلقت نظرات والدها الصارمة إلى عينيها المتطلعتين في رجاء وقال لها:

ـ إسمعي ما أقوله لك، وفكري جيداً في هذه الخطوة التي أريدها لمستقبلك، فأنت في شباب ناضج يغري ويغوي، وجمال دفع بالكثير من الرجال إلى تجديد خطوبتهم لك، ورغبتهم في الزواج بك.. ثم أنت إلى جانب هذه الصفات.. الهامة.. تعيشين بلا زوج.. وحيدة أرملة.. تعانين تربية أطفال أربعة، وليس في يديك الثروة التي تدرئين بها خطر الشيطان عنك، وتدفعين بأبنائك إلى طريق المستقبل المضمون.. فالزواج خير لك في هذه الظروف.

وطفرت دمعتان من حدقتي عينيها، ونظرت في وجه أبيها قائلة:

ـ عندما مات «حسين» يا أبي لم يترك لهؤلاء الأطفال إلا قلباً واحداً يتهافت على حبهم كلهم بلا استثناء.. فهل يتحمل هذا القلب زوجاً جديداً يزاحم أبنائي في الحب..!؟

وأنا لا أدري كيف يكون قلب الزوج الجديد بالنسبة إلى أولادي.. فقد كفتهم الأيام إهانة يا أبي.. إنني نذرت نفسي لهم حتى أعدهم كباراً يعرفون طريقهم بدون أن يدلهم إنسان على معالمه..

وهاج الأب في وجهها يقول: إن أولادك في أحضاني أنا أصرف عليهم، وأعلمهم وأكسيهم.. إذا رأيت من زوجك ما يدل على بغضه لهم، وقسوته عليهم..

وتسللت أصابع (فاطمة) تعبث بنقوش الفراش الذي تجلس عليه، وقد أنهكها إصرار والدها.. وخنق أفكارها وأنفاسها أيضاً.

وعادت فلوَّحت برأسها يمنة ويسرة.. في إصرار.. لا تريد فكرة والدها.. لا تريد الزواج..

وجمدت نظرات الأب.. تحملق في وجه «فاطمة» بقسوة، وساد الغرفة خرس وسكون، ثم قال لها:

ـ لا أستطيع أن أقدم لكم المساعدة، ولأبنائك الضمان من الشرور إلا إذا ضمنت حاضرك أنت ومستقبلك..

وما دام العناد يعنكب في رأسك فاعتبري أن أباك لن يدخل بيتك بعد اليوم أبداً، وأريني كيف يمكن أن تعيشي بلا زوج..؟؟

* * *

وخرجت الخطوات التي جاءت بقدمي راقصة فالس.. تتعثر كأن في قدمي صاحبتها شوكة تحد من خطواتها..

وقبل أن تصل إلى بيتها.. انعطف بها الطريق إلى متجر الشيخ (سليمان الصائغ) وقد كان يجلس في متجره بلحيته البيضاء الناصعة في وقار.. يزود أبناءه الذين يساعدونه في أعمال الذهب والصياغة بالمشورة وكيفية معاملة الناس، والتفت إلى المرأة الفارعة التي تقف أمامه في خجل، تريد أن تقول حديثاً لا تود أن يسمعه غير الشيخ سليمان، وأعطاها أذنه وهي تقول:

ـ عندي ابن أود أن تضعه عندك في المتجر يساعدك ويساعد أبناءك ويتعلم البيع والشراء لأحفظ قدمه من الانزلاق في الأخطار.. ويساعدني أيضاً بقرشين تنفع أطفالي..

وأومأ الشيخ برأسه وهو يقول: لا أمانع أبداً. ولكن من الأفضل أن

تبقيه في المدرسة يكمل تعليمه.

ـ قالت: لقد قررت أن أجعله يدرس بالليل.. ويعمل بالنهار.. وهو ذكي يقبل على الدروس والمذاكرة..

وتسلَّم ابنها عمله الجديد الأول في متجر الشيخ سليمان.. لينال منه في نهاية كل شهر مائة ريال.. وتسلمت ـ فاطمة ـ أنواعاً من الأقمشة.. لتحيلها ابنتها الكبرى التي بلغت الثالثة عشرة من عمرها إلى فساتين جاهزة.. لقاء أجرة تساعد على استمرار الحياة في هذا البيت.. أما الابن الثاني فقد بقي في مدرسته يكمل تعليمه وبقيت الابنة الصغرى تذهب كل يوم إلى مدرسة للبنات تشرف عليها امرأة مسنّة لتتلقى الدروس المبدئية في الخياطة والتفصيل والشؤون المنزلية والقراءة والخط..

* * *

ومضت أشهر أربعة على هذا النظام الحياتي الجديد للأسرة المترملة.. لم تر (فاطمة) والدها في أثنائها، ولم يطرق باب بيتها إلا أمها العجوز التي جعدت معالم وجهها أحداث الزمن.. جاءت لتخفف الوحشة التي أناخت في أركان البيت الكبير..

وبعد أربعة أشهر جاءها والدها يجر عصاه في يده وقد لاحت بسمة خفيفة استقرت على شفتيه، وكادت أن تطفر من عينيه دمعة لا يعرف كيف تجمعت.. وقال لابنته:

ـ لقد أعجبتني شجاعتك يا ابنتي على مواجهة الحياة، وأعجبني تصرفك وكدك لتأمين المستقبل لهؤلاء الصغار.. وقد جئت مهزوماً أحمل إليك الرضا ـ كل الرضا ـ وأبارك خطواتك.. فإني أحس بقرب الأجل.

وربما انتقلت إلى العالم الآخر..

وبكى الجميع لهذا الموقف المؤثر.

ولم تمض ثلاثة أسابيع حتى انتقل والدها إلى المكان الذي توقع أن يستقر فيه..

* * *

وكبرت الأيام بالأبناء، وتطورت بحياتهم..

تزوجت الابنة الكبرى بشاب تخرَّج من الجامعة، واحتضنها وأخذها تعينه على مواصلة نضاله في الحياة، وسافر بها إلى لندن ليرتفع بثقافته هناك.. وعاد الابن الكبير من القاهرة متخرجاً.. يحمل شهادة جامعية في يده.. في الوقت الذي ودعت فيه «فاطمة» ابنها الآخر.. ليزداد ثقافة وعلماً وينال الشهادة التي يحلم بها.

ونظرت «فاطمة» حولها.. فلم تجد إلا ابنتها الصغرى تشاركها هذه الوحدة.. وهي الأخرى تسير في طريق الزواج.. بعد أن جاء بيتهم شقيق زوج أختها يطلبها زوجة له.

ولم يبق لها إلا فلذة كبدها البكر الذي تركت العرق يتفصد كثيراً من أجل هذا اليوم الذي رأته فيه، لكنها ستزوجه.. ستسعده بامرأة تخلق له جنة صغيرة في هذه الدنيا!..

ولكن من ستزوجه!؟

وقال لها بعد أن عرضت عليه رغبتها: لقد قررت أن أتزوج ابنة الشيخ «سليمان الصائغ».. فقد رأيتها ـ صدفة ـ ترفل في هالة من الجمال.. وهي إلى جانب هذا الإغراء.. متعلمة.. أخذت شهادة التوجيهية عندما

تركها والدها مع والدتها وأخيها الذي يكبرها بسنوات في القاهرة زمناً طويلاً. .

واعترضت والدته قائلة: لكني لا أحبذ الزواج بها. . فربما قالت لك يوماً. . أنت إنسان كنت تعمل أجيراً عند والدي فلا تتطاول علي، وهي أيضاً تعتز بالشهادة التي في يدها لتصول بها عليك. . . لأنها من الفتيات القليلات اللاتي حزن على شهادة مثل شهادتها في بلادنا!

ـ قال ابنها: أما إنها تتطاول. . فلا تستطيع ذلك لأن العمل ـ مهما كان ـ فهو كفاح، وثقافتها تمنعها أن تقول. أما الشهادة فلا تصول بها إلا على بنات جنسها. . أما أنا فثقافتي تبعد عن ثقافتها وتعلو بمراحل كثيرة.

ومرة أخرى قالت له أمه: وإذا لم يوافق والدها؟

ـ قال: في هذه الحالة أبحث عن عروس أخرى!. .

لكن الشيخ سليمان وضع يده في يد الشاب المكافح، وبارك له الزوجة وبدأت أيام الفرح يضج بها بيتان. . ويزغرد بأحلامها قلبان، وحولهما قلوب تمنت ميلاد هذا اليوم. .

وانتقلت صور الحب من بيت الشيخ سليمان. . إلى البيت الذي شهد كثيراً من صور المآسي والكفاح. .

لقد كانت الأم سعيدة بزواج ابنها رغم أن الخيفة والحذر يتوجسان في قلبها من معاملة الزوجة لابنها. . بتفكير أم الزوج، وأم الزوجة!.

* * *

وزفت الابنة الصغرى بعد سنة من زواج أخيها. . إلى الرجل الذي طاردها حتى حظي بها في عمر الزهور. .

وبقيت «فاطمة» في بيت ابنها تشاركه العيشة الهانئة، وتظلل بحنانها قلبين يزداد فيهما الحب أصالة في كل يوم، لكن طبيعة الاحتكاك ـ وخصوصاً في مجتمع النساء ـ أدت إلى الخلاف بين الزوجة وأم الزوج..

واشتعل الهدوء فأصبح دخاناً يخنق من في داخله..

وبلا حرج.. جاء الابن إلى أمه يحدثها في أمر جلل.. في فكرة هدمت كل ما سنّته الأم في ماضيها، وأهرقت كل الأحلام التي تكوّنت في النفس الباحثة عن الحنان..

تسمرت النظرات التي تاهت في البحث عن الحنان.. في وجه الابن.. في قسماته، في طوله الفارع، في مكنبيه العريضين، واستمعت إلى ابنها يقول لها بصراحة عارية.. لا تسترها حتى ورقة توت:

ـ إن سكنكما معاً ـ أنت وزوجتي ـ أصبح أمراً مستحيلاً، ولا أريد أن أدخل نفسي كل يوم في حلقة نكد وشقاق. أنت يا أمي تريدين أن تعيشي بعقلية ما قبل عشر سنوات.. وزوجتي تود أن تعيش هذا العصر، وهي متعلمة، وأنت...

وقاطعته أمه قائلة: نعم يا ابني، وأنا جاهلة لا أفهم، ولا أحسن التصرف.. أليس كذلك؟

وأكمل ابنها: .. ولهذه الأسباب، فمن الخير أن تعيشي في بيت لا يشاركك في مسكنه أحد، وأنتقل أنا وزوجتي إلى سكن خاص، وأتعهد بدفع إيجار هذا البيت.. ومرتب شهري أرى أن يكون في حدود مائة وخمسين ريالاً، وهو مبلغ أظنه يكفيك!.. وقد ارتحت إلى تنفيذ هذه الفكرة لأنني لا أود أن أفقدكما.. أو أفقد إحداكما.

ومن وراء قطرات الدموع قالت: .. وشقيقك الذي انتهى من دراسته.. ترى هل سيقبل صداقتي وجواري له، أم يرفض هو الآخر؟

ـ قال: أما أخي فإنه سيعود.. ليباشر عمله في مدينة الرياض.. لقد جهزت له ذلك بحسب رغبته.

* * *

وقامت الأم بخطوات ثقيلة منهكة.. تجمع متاعها وحوائجها، وتفصلهما عن متاع ابنها وزوجته، وهما ما تبقّى لها في هذه الدنيا.. استعداداً لانتقال ابنها إلى الدار الجديدة الخاصة..

ومع أشعة الشمس المخضبة بالشفق القاني.. وقد أخذت تنحدر وراء الجبال الشامخة.. أرسلت «فاطمة» نظرة عميقة إلى البيت الذي عاصر تلك الأحداث، واصطدمت نظراتها بالمتجر الصغير الذي يقف فوقه بيت الأحلام والكفاح.. وقد مات فيه الحنان..

ورأت «عم باسويد» وقد أحالته السنوات الطويلة إلى هيكل عظمي متهالك، وهو يجلس أمام «الأتريك» يشحنه بالهواء.. وهو لم يقتنع بفائدة الكهرباء.. ثم رأته وقد امتدت يده في إجهاد واضح.. تقبض على السلسلة المدلاة من سقف المتجر، وأمسكت اليد الأخرى بالأتريك.. ترفعه إلى مكانه المعروف الذي يعلق فيه كل ليلة!

# الجدار الآخر

# المقدمة

**بقلم: الأديب الكبير الأستاذ محمد عمر توفيق**

أخشى أن يكون من سوء حظ هذه القصص أن أقدمها أنا.. إلى القراء، في ظروف أحس معها أن آخر شيء قد أصلح له الآن: هو أن أكتب أو أن أقرأ.. وهذا قد يحرك الأسف ـ في نفسي على الأقل ـ لافتقاد متعة من أحب المتع والهوايات!

إن هذا قد يضع نقطاً على الحروف.. معناها: أنني أقدم قصصاً لم اقرأها كما ينبغي لمن يقدم شيئاً من هذا القبيل.

ثم إنني أحس أن عملية التقديم إنما هي ـ أو كما يجب أن تكون ـ من حق الكبار.

هناك ـ مثلاً ـ روادنا..

وأنا، في معية جيلي، إنما نأتي بعد الطلائع وبعد الرواد!

غير أن المسألة في هذه تبدو أقرب إلى حسن الظن أو إلى التفاؤل، أو شيء كهذا، من مؤلف القصص.

أما الأولى..

# الإهــــداء

.. إلى الناس.. كل الناس، أقدم بعض فيض من نفوسهم وأدعهم ـ بما استطعت ـ يستجلون جوانب من حقيقة النفس البشرية، والبحث في متاهات الحياة عن صدق الإنسان استقصاؤه صعب المنال.. برغم أنني أحد «كل» الناس!!

**عبد الله**

# ما يحبّوك البَنات

مبنى البلدية في «أجياد» يقف في وسط ميدان مغمور طمسته المنازل الشاهقة المتناثرة في هذا الحي في شكل هندسي قديم جداً.. لم يهدم التخطيط بعد هذا المبنى، ولم يقوض المنازل الكبيرة التي أصبح مكانها اليوم ميداناً واسعاً كبيراً.

كان ذلك قبل سنوات طويلة.. طويلة.. ربما زادت على العشر سنوات. وعلى يمين الداخل إلى المبنى زقاق ضيق قصير لا يتسع إلا لاثنين.. زقاق يفصل بين مبنى البلدية الأبيض وبناء قزم تسمع منه صوت «مطابع الحرم» لصاحبها الشيخ السباعي.. لطباعة البطاقات ودعوات الزفاف وبعض الأعمال التجارية التي لم تتسع حتى ذلك الوقت.

ويلتصق بهذا البناء منزل كبير، حُوِّل دهليزه إلى مكتب تجاري اسمه «مكتب الكندوائي» لخدمة المسافرين على البواخر إلى الهند.

وأمام باب هذا الدهليز التجاري «دكة» بنيت من الحجر الصلد الذي يقف شاهداً مع كل متحدث عن قوة بناء السلف الغابر، وتدلل هذه الأحجار المتراصة أن الجيل الماضي كان لا يعتمد في البناء إلا على الحجر، وتسمع من يستطرد قائلاً:

ـ إسمنت إيه يا ولدي. هل كنت تسمع أن عمارة انهارت أو مالت

لأن «أساسها» ضعيف، وبناءها تراب؟!

ويرتبط هذا الاستقرار الملموس لفترة تاريخية خلت عن البلد بشاهد عجيب لا أدري لماذا يعمد بعض أولئك الرواة إلى شده بتلك الفترة؟

الشاهد آدمي.. إنسان يمشي ويتحرك ويفتح فمه، ويأكل ويشرب.. وإن كان لا يدري الآن ما يقوله الناس عنه.. كل ما يسمعه ويعيه.. تلك النداءات الشقية التي يقذفه بها الأطفال ـ كل أطفال مكة ـ لحظة مشاهدته سائراً أو جالساً.. يلم نفسه على نفسه وينسى ما حوله.

الأطفال يصرخون في وجهه قائلين: ما يحبوك البنات!

ويفرون هاربين من وجهه، ومما تقذفه يده عليهم من حجارة. ويسأل كثير ممن لا يعرف حياة هذا الآدمي: ما هي قصته.. ما نوع الارتباط بين حياته وهذه العبارة الغريبة.. هل يغضب إنسان إذا اكتشف أن البنات لا يحببنه؟

يغضب.. هذا شيء لا يحتاج إلى جدل.. كل إنسان يتوق إلى حب البنات، فالبنت دائماً تبدو في ذهن الرجل قبل الزواج رقيقة.. خجولة.. حلوة، إن في ملامحها، أو تكوينها الطبيعي ناحية جمالية تناقض العيوب التي فيها.

والبنت شطر الرجل الآخر، كما أن الرجل شطرها الآخر، كلاهما مكمل للثاني بحسب قاموس الحياة. لكني كآدمي.. كرجل، ألا أغضب إذا قيل لي: ما يحبوك البنات؟ إنني أغضب فعلاً عندما تقول لي البنات أنفسهن: لا نحبك.. فهذا يعني أنني مشوَّه.. ثقيل.. شخص غير مرغوب فيه!

وملاحظة جديدة في حياة هذا الرجل البائس الذي اتخذ شكل المجانين في أعين الناس، أن بنتاً واحدة لم تحاول يوماً أن تعاكسه. . أن تؤلمه. . أن تقول له «ما يحبوك البنات» بل إنني طوال وقوع نظري على هذا الآدمي لم أشاهد بنتاً واحدة قد اقتربت منه، لتقول له: ما يحبوك البنات.

لماذا؟

هل يعني هذا أن البنات حقاً لا يحببنه، فابتعدن عنه، ولم يعد يحظى بكلمة «بناتية» واحدة؟

أم أن البنات يشفقن عليه، ويتعاطفن نحوه، فيحز في نفوسهن إيذاؤه بكلمة لا يحبها.

أم أنهن آذينه في شرخ حياته، وآلمنه، وتسببن في مأساته فاكتفين بما وصل إليه؟

ما يحبوك البنات: عبارة فيها تساؤل كبير. يعني أن في حياة الرجل المجنون هذا حباً (مفقوداً) ضاع منه، فضاعت حياته كلها!

ولكن. . هل يصنع الحب كل هذه المأساة المحزنة؟

يفعل الحب. . هذا أكيد، ولكن كيف فعل الحب هذه المأساة في حياة آدمي أراد أن يعيش الحياة إنساناً فعالاً؟

إن كل التساؤلات الجوهرية التي تهم المعرفة عن حياته، كلها تضيع في غابة كثيفة من الشعر الأبيض والأسود على وجهه، وفوق جلدة رأسه!

ما يحبوك البنات: هكذا عرف بهذا الاسم.

قامته طويلة فارعة، وجهه طويل، لحيته كثة مهملة، أسنانه مهشم

أكثرها، ثيابه مهلهلة، رقعت جوانبها بألوان الخيوط كأنه في حفلة تنكرية. إن أيامه كلها أصبحت حفلة تنكرية يعيشها ليقول للناس كلهم:

ـ حياتكم ملونة.. ممزقة.

وفي وقت الظهيرة تقبض يداه المعروقتان على حزم الكراث.. لا شيء غير الكراث. هو (غذاؤه) اليومي.. يلوك هذه الحزم، ويبتلعها هانئاً، ثم يتوسد على التراب أمام دهليز «الكندوائي» التجاري، وينام الظهيرة كلها نوماً عميقاً لا يسمع أبداً أي صوت من الأصوات التي تقترب من جسده وهي تقول: ما يحبوك البنات!

وفي العصر، ينفض التراب عن ثوبه الكالح المهلهل ويقف ليشاهد الأرض التي كان ينام عليها وترش بالماء ثم يبصر مجموعة كراسٍ خشبية تصف أمام الدهليز التجاري، ويخرج أصحابها للجلوس، وقضاء فترة العصر.. ويخبط هو على قدميه، ويمشي بحثاً عن لا شيء.

إن هذه الرقعة أمام الدهليز التجاري هي بيته الذي يأوي إليه ظهراً وليلاً.

وتعود معه العبارة الفارقة كالعلامة الفارقة: ما يحبوك البنات لينام ليله، ونباح الكلاب في أذنيه وذرات الأتربة على عينيه.

وفي دوامة هذه المأساة يسمع من يقول له مع الصباح ونشاط الحركة في الشارع: ما يحبوك البنات!

ويثور ويمسك حجراً ليقذف به نحو أي اتجاه ثم يلوك بين أسنانه حبة «تنبول» وكأنه يفيق للحظات، ويتذكر حياته... يستعيد قصته بذهول مر!

هل صحيح أنه آدمي؟

هل يعتبره الناس إنساناً كان له عقل يفكر فيه، وسواعد يشقى بها ويحصل على قوت يومه؟

إنه لا يعرف الناس. لقد ابتعد عنهم سنوات طويلة، فغشيت البأساء عينيه، فلم يعد يبصرهم على حقيقتهم.. بل لم يعد يرى أن «حقيقة» تضمهم. فهم يعيشون حياتهم بلا حقيقة. يمشون سادرين بالوهم، وبالتخيل، وبالأحلام. الحياة عند كل الناس مجرد حلم طويل خادع.

هو أيضاً كان مثلهم.. يعيش الخديعة، والأحلام الطويلة التافهة. كان يملك متجراً في قلب محلة «أجياد».. متجراً متوسطاً يبيع فيه، ويكسب قوت يومه، ويهنأ بساعات الراحة من ليله.. سعيداً بحياته المنفردة.. ليس له أب، أو أم، أو أسرة.

كل ما يربطه بمعنى القرابة أخ غائب لا يعرف مكانه، ولا يسمع أخباره. ملامحه افتقدها.. اسمه «مشتركاً».. يشترك معه في كثير من هؤلاء الناس الذين لا يعرفهم. إنه يعرف أشخاصاً كلهم لهم اسم «علي» وأخوه «علي» لا يعرفه، وهذا يحدث كثيراً بين الأحياء والأخوان والأسرة الواحدة.

أن نفترق، وأن يتحقق الرحيل يوماً ما، وأن تقطع الأخبار، فتنتهي الروابط كلها، كل هذا محتمل ومتوقع ولكن أن يعاني كل الناس حرقة الفرقة وعذاب الوحدة، والابتعاد عن الآخرين، وقطيعة المشاعر. فهذا مثار تفكير لم يحدث أن تعرض كل الناس لهذا الانفصام الإنساني، وهذا ما دفعه للشرود النفسي، وأن يغذ أكثر في استحلاب الأحلام التافهة.

أخوه رحل، وافترق عنه، وتقطعت الأواصر، هذا أمر طبيعي لا

تثريب فيه. غير أن رحيل كل الناس، وافتراقهم عنه وعن أنفسهم سبَّب له الألم والحسرة.

وسدر في متاهات الأحلام أكثر. أغرق خياله في أمانٍ عريضة.

ماذا فيه هذا المتجر.. ماذا يجني من ورائه؟ المال القليل.. يجمعه على أصابع يده؟ ولا يجني من ورائه إلا صلات تستمر دقائق يقف فيها الزبون ويذهب بعد أن يرمي إليه بقطعة النقود، وينظر حوله فلا يشعر به أحد!

وأمام متجره نوافذ مدلاة على الشارع.. على بعضها شيش، وستائر من الجريد اسمها «الكبريته» في تعريف أهل مكة. وفي الليل.. عندما تضاء «الأتاريك» ـ قبل انتشار الكهرباء ـ كان يلمح بنتاً في حوالى العشرين، أو هكذا بدت لناظريه. لها قوام متناسق، حلو، بديع. يراها كل مساء بعد أن تضاء «الأتاريك» وربما تراه هي في النهار من خلف الشيش، أو «الكبريته». في الوقت الذي لا يتمكن هو من اختراق هذا الحاجز!

ويتساءل: لماذا تتخذ مجلسها كل ليلة في هذا الموعد؟

استطالت الأحلام، وعرضت، وتبلورت، وتحولت إلى وهم كبير. إنها تحبه، إنها تترصد حركاته، بلا شك!

ولم يعد يبيع بعد حلول المساء. إنه يجلس في داخل المتجر و«يعمر شيشة التنباك» ويغيب مع أحلامه وأوهامه!

إنه يتساءل مرة أخرى: هل يمكن أن يكون للناس «كلهم» اسم واحد.. «علي» مثلاً؟

أن يعاني الناس. كل الناس حرقة الفرقة، وعذاب الوحدة، والابتعاد

عن الآخرين، وقطيعة المشاعر.. هل يحدث هذا؟

إن ستاراً من الانسلاخ الإنساني يتم في حياة الناس!

إن الستائر كثيرة في حياة البشر. لكنها تتنوع وتتعدد. ستائر داكنة وثقيلة، وستائر شفافة وخفيفة. إلا أن الاختراق يتم دائماً. اختراق الستائر سهل، بل وتمزيقها مهمة ناجحة. لكن الوقوف أمام «الخليفة» أو ما هو وراء الستائر، أمام المحسوس كالعواطف والمشاعر.. أمام «المرغوب» والأثيري. هل يتم هذا الوقوف؟

ترى هل ترغبني هذه البنت التي شغلت مسائي كل ليلة؟

هذه البنت تؤلم عيوني، وتفتت ضلوعي.

رأيتها مرة خرجت من باب البيت، وسارت أمام دكاني تتخطر. وغابت ووراءها خادم صغير، ثم عادت قبل الغروب. وفي الموعد ذاته اتخذت مكانها المعتاد!

أحس الآن أن هذه البنت أصبحت غرسة في قلبي. جذورها تغور في أعماقي لا يمكن اقتلاعها إلا إذا حفر قلبي.. إلا إذا فتت.. أجن.. نعم أكاد أجن!

ولكن.. ما الفائدة؟ هل أتزوجها؟

إنني أعتقد أن الناس لا يمكن أن يكون كلهم باسم واحد. هذا رأيي!

إن كل الناس يعانون الفرقة، والانفصام، والابتعاد عن الآخرين، وعن أنفسهم. أما أن نحاول تفتيت ذلك الابتعاد، فنفوس الناس جبلت على قطيعة المشاعر. إن ما في متجري من مال وتجارة يهمني، ويلصقني به، فلا أفكر في البحث عن أخي الغائب. إن حياة أخي بما فيها مما لا

أعلمه... ربما كان فيها مال، أو جاه، أو حتى حب... كل ما فيها شيء يجذبه إليه فلا يبحث عن أخيه. الحب أيضاً تحول إلى فرقة، وبعد.. كشيء مادي بحت.

إنني أترك متجري هذه الأيام.. أهمله ولا أهتم به في لحظات المساء حتى تمتلئ نظراتي بوجه تلك الفتاة التي غدت شغلي الشاغل، ليس لأنني أتعلق بها. أبداً.. هذا وهم. بل لأنها أعجبتني.. شدهتني ملاحتها، وتناسق جسمها، وطولها، وأريد أن «أمتلك» كل هذا الجمال.

مجرد امتلاك كما امتلكت المتجر بحدب، ورغبة. (أود) أن أمتلك هذه البنت بحدب ورغبة. لأكون صاحب متجر، وزوجة حلوة جميلة.

أنا أعرف أنني إذا امتلكت الزوجة سأبصرها مع مرور الأيام متجراً قديماً قد أستطيع تطوير بضاعتي فيه. لكني لا أقدر على تطوير متجري في البيت.

وغفا على تأملاته هذه. ولما تقدم إلى أبي البنت كما يسميها ـ يخطبها لنفسه، سألوه:

أسرتك.. أهلك.. مدَّخرك.. واقعك؟

وتضج فلسفته ثانية، ويجيب: لا أهل. لا أسرة.. لا مدَّخر إلا رأس مال المتجر (بلا رصيد).. لا واقع. إنني أريد أن أبني واقعاً لنفسي، أو أهرب من الواقعية.

ـ وسألوها: ترضينه.. تتزوجينه؟

ـ وأجابت: أنا أتزوجه؟ مستحيل. عينه طويلة، قليل أدب، مهنته دائماً «البحلقة» في نوافذ الجيران، شكله يا لطيف.

وجاءه الجواب المؤلم الممزق: آسفون.. لقد رفضت صاحبة الشأن، فازداد استغرابه.

هذا العصر الذي يعيشه لا يقيم وزناً، واعتباراً لرأي البنت. هل يسبقون الزمن؟

ولكنه يريد موافقتها هي فعلاً.. هي وحدها!

ولأول مرة في حياته يبكي، ويبكي.. ويفغر فاه دهشة. فقد رآها في المساء في الموعد نفسه تراقبه، وترصد حركاته، وعينه الطويلة.

وترك المكان. اختار متجراً آخر بعيداً، وهو يجتر آلامه.

وقال له الناس: «البنات على قفا مين يشيل»، ولا يهمك!

كل الناس أصبحوا يعرفونه.. كل الناس سمعوا حكايته فجاؤوا يقولون له: ولا يهمك. خيرها في غيرها. إنهم يجيدون دائماً الحديث عن القطيعة!

ولعق جراحه من جديد، وتقدم إلى فتاة رشحها له بعض الذين أرادوا أن يكونوا زبائنه الدائمين.. انشقت الأرض وأخرجت له زبائن دائمين.. لماذا الآن؟

وأخذ... ورد!

تريث.. سنعطيك الجواب.

تمهل.. إنهم يسألون عن أخلاقك وحياتك.

ولم يحتمل.. اتجه نحو البيت الثالث في قائمة الترشيحات، ونقر الباب.. جئت أطلب يد ابنتكم!

ـ آسفون.. لقد رفضك بيت قبلنا.

وفي متجره.. يأتيه طفل يشتري منه نصف درزن صلصة ويعطيه القيمة، وهو يقول:

ـ ليش ما زوجوك.. ليش ما يحبوك البنات؟!

ويقفز خلف الطفل ليضربه.. يجري وراءه فلا يلحق به، ويعود إلى متجره.. وبعد الغروب يجلس مهموماً، حزيناً، و... «يعمر شيشة تنباك» ويتوه وراء أفكاره، وتقف أمامه امرأة متلفعة بردائها الأسود تقول له: أعطني صابوناً.

ويحدِّق في قوامها، بنظراته المفجوعة.. إنها هي.. صاحبة النافذة!

وتعطيه بضعة قروش، وتتوقف، وتتلجلج، وتقول:

ـ ما عندك صابون لغسل الوجه؟

ولا تنتظر إجابة.. إنها تفر هاربة، وهو صريع ذهول مر قاتم.

إن هذه البنت قاتلة.. قتلته، ومزقته. سرقت النبض من عروقه لتجعل كلمتها تعيش في ذلك النبض المسروق..

كلمتها: ما يحبوك البنات!

وتحولت أيامه إلى استغراق.. ثم إلى سرحان، وابتعد عن الناس.. عن الحركة.. أصبح لا يسمع من ضجة الناس سوى عبارة واحدة يزعق بها الأولاد!

وتحول الاستغراق والتهويم إلى صراخ.. أصبح يصرخ.. فجأة يجد في نفسه رغبة للصراخ:

لا.. أنا ما أحب البنات!

وارتبك المتجر.. يوماً يفتحه، وعشرة أيام يتركه مقفلاً.. كهذه الدنيا التي أقفلت كل أبوابها في وجهه. إنه يمشي.. لا يتعب، كل أيامه خطوات حافية على الأرض!

إن خطواته الحافية تصرخ معه.. تردد فلسفته القديمة التي قالها وهو عاقل في دنيا مجانين. يعيدها اليوم وهو مجنون في دنيا حافية الخطوات:

ـ إن كل الناس يعانون حرقة الفرقة والوحدة والانفصام والابتعاد عن الآخرين، وعن أنفسهم!

إن أحداً لا يصدقه. وهو عند الناس مجنون بالحب.. لأن البنات لا يحببنه!

كلهن رفضن الاقتران به... هل هذا صحيح؟

ومرة أخرى يحل الظلام المحمل بالأتربة والغبار، ويعجن ساعده تحت رأسه، ويغط في النوم، وفي أذنه صراخ يتعالى دائماً ـ وباستمرار: ما يحبونك البنات!

# قصة في رسالة

## أبعَــاد!

**يا أعز الناس:**

لقد ودعت حياة الناس ـ هذه ـ التي يملؤونها بالحركة والضجيج، والصراخ، والأحاديث التي لا تهدأ.. يملؤونها بالخداع، المبطن بمظاهر الحب..

ودّعت حياة الضجيج.. يوم فقدت عربتي توازنها، وحكمة سائقها، فقذفت بي الفجيعة إلى فضاء الصحراء. لا أعي من أمري شيئاً.. وعندما أفقت بعد أيام ثلاثة.. تكشفت لي الحقيقة الرهيبة.. التي تمر بحزم على قطع ساقي الأيسر..

يومها عرفت ـ أيضاً ـ أن الطائرة حلَّقت بك قبل يومين في طريقك إلى الدراسة العالية.. بينما العربة أوغلت.. فانحدرت بي إلى خط التساوي مع التراب والحجارة!!..

وانطوت أحزاني على أحزاني.. وأنا واجم الوجدان.. مشروخ الإحساس.. وتلقفتني «الفاجعة» لتمارسني الأيام بدورها «فاجعة» متحركة

ببطء.. أو تلوكني الساعات بين بندولها «صدى» لضربات ذلك «البندول»... وهكذا طوال شهور كنودة كالحة... لم أكن أملك من يومي.. ومن أمري.. ومن تنفسي العضلي إلا أن أشخص البصر عبر نافذة المستشفى.. أقبل الناس بعيني لشدة الشوق الذي أحسسته تلك الأيام لهم.. ولضحكاتهم.. وتذكرتك غائم العين.. أُداري حنيناً يصارعني لينطلق من صدري، وقلبي، ونفسي ليلحق بدربك!!..

وبمثل ما ودعت حياة الناس.. عدت «فجأة» إلى هذه الحياة بقلب طفل، ومشاعر عاشق وَلِهْ، وتطلع متفائل أبله. عدت عشوائي الخطى أتخبط في سيري بتأثير ضربات بندول الساعة.. وفي ذلك الوقت كنت أتطلع بنظراتي التائهة المنفلشة إلى حركاتهم.. إلى خطواتهم.. كيف يسيرون.. كيف يحركون تلك الأرجل؟!..

عدت ـ يا أعز الناس ـ والتفاؤل يغمرني.. والأماني تزيغ أفكاري، وتربك تحركاتي.. كأي مؤمن جديد.. يخافون عليه من الردة أو الانتكاسة!.. وكنت كالذي يحاول التخلص من شارع مزدحم لكنه يعرف أنه يتحتم عليه أن يعبر امتداد ذلك الشارع!!

وبكل قوَّتي.. بكل الطاقة المختزنة طويلاً.. بكل فوهات المصب الحبيسة في جسد وفكر مسجيين على سرير أبيض.. أقبلت على الناس، وقبل أن أضيع بجسدي ونظراتي وأحاديثي وابتساماتي في زحام أولئك الناس.. سارعت أجلو ذلك الصدأ، وأزيل الغبار عن فترة تركتها، وقد تجمدت بكل ما فيها من حياة وبهجة، وشباب وحيوية..

وفجأة أحسست ـ أيضاً ـ كأن خطواتي قد أُلجمت، وأن اندفاعي البريء، المتعطش قد كبح.. وأن فرحة الأطفال التي واكبت لهفتي قد

أطفئت، ولم أملك ـ لحظتها ـ إلا أن أترك الحرية لنظراتي فلا أكبِّدها ولا أرهقها أكثر مما فعلت.. تركت نظراتي تنتكس، وترتطم بالأرض.. تحفر هذه التربة الصحراوية التي تتعطش إلى نظراتك وخطوك عليها، وتغور هرباً من الناس..!!

وأجلت النظر حولي.. تذكرتك، وطافت الرؤى بي أستعيد بداية السعادة..

ثم.. صحوت ثانية على حقيقة أيامي.. فغامت الرؤى بي.. ومر شريط طويل في مخيلتي.. اسمه حياتي، والتقط فترة قصيرة من هذه الحياة.. فيها حشد مقيت لإرهاصات ألمي اليوم..

* * *

ذلك اليوم الصمغي في مدينة «جدة»، وثيابنا ملتصقة بأجسادنا، والطلبة وراء باب حجرتي يملؤون الصالة ضجيجاً، وصخباً.. عندما فُتح الباب، ودخل «الفرّاش» يطلبني باسم مدير المدرسة..

وأصلحت من هندامي بعض الشيء.. عدلت «العقال» المائل، وثبتت نظارتي على أرنبة أنفي الدقيق مخافة أن تخذلني أمام المدير، وتسقط(!!).

وطالعني وجه المدير المنتفخ، الأبيض.. ونظر إليَّ الرجل محدقاً لحظات.. ثم قال:

ـ أنت تعرف بلا شك أن وظيفتك اسمها «وكيل المدرسة»؟!

ـ ذلك أكيد يا سيدي المدير.. ولكن من أسلوبك الساخر هذا أحدثت غلطة ارتكبتها، ولا أعلم عنها؟

ـ غلطة؟.. هيه!.. اسمع يا سيد وكيل المدرسة.. ينبغي أن تلتزم حدود الأدب المتعارف عليه بين الناس.. وتبتعد عن طريق المشرفة الاجتماعية التي تعمل عندنا في القسم الداخلي، وتقشع عنها مضايقاتك الكثيرة، وينبغي أن تعرف أيضاً أنها ابنة «ناس»، وأكابر يتنزهون عن كل أفكارك المريضة التي تحلم بها!!

ـ المشرفة الاجتماعية؟.. أنا.. ضايقتها، وعاملتها بأسلوب مغرض يخلو من الأدب؟.. من قال هذا؟!

ـ أيوه.. أيوه.. من قال هذا!! تفضل وأقرأ هذا أيها السيد المحترم؟.

وتناولت منه بضع أوراق.. واتضح لي أن المشرفة الاجتماعية الآنسة «نادية» تتهمني فيها بمسلك ملتوٍ وإنني أتعمد مضايقتها دائماً.. لأنني ـ كما أضافت ـ قد عرضت عليها صداقتي ورفضت (!!).

هكذا؟!

وارتسمت على شفتي بسمة باهتة.. هي خليط من الهزء، والسخرية، ومعرفة بأخلاق البشر هؤلاء!!

إن الحقيقة معكوسة في شكوى الآنسة «نادية». بدون افتئات عليها، أو تحامل.. الحقيقة هي:

ذات يوم رن جرس الهاتف على مكتبي، ورفعت السماعة.. وتسلل إلى أذني صوت الآنسة هذه يقول لي برقّة متناهية:

ـ يا سيد «عادل» هناك مفاهمة معك حول مطالب القسم الداخلي التي

لم تؤمنها المدرسة للأطفال.. فأرجو أن أراك.. ـ لدقائق ـ إذا انتهيت من مشاغلك.

وبعد ساعة على المحادثة الهاتفية.. كنت أطرق باب الجناح الداخلي في المدرسة، وأجدها تخرج إلي من حجرتها بابتسامة مرحة، وألحت علي أن أدخل.. ودخلت، وفي خطواتها ذلك الاضطراب الملاحظ ومرت لحظة صمت. كانت في خلالها مغضية تزجي الوقت بلعبة الأصابع المتشابكة في يديها.. وقلت:

ـ أستطيع أن أعرف المطالب، ومدى ضرورتها؟

ـ قالت: هناك في الواقع حاجة إلى أغطية صوفية بمناسبة اقتراب فصل الشتاء!!

ـ قلت: ألا تلمسين ـ يا آنستي ـ إهدار أناقتي الآن بسبب هذا الرشح الذي يفرزه الجسم بفعل الحرارة.. إن الشتاء بعيد الأياب!

ـ قالت: هناك مطلب خاص بي!.

ـ تفضلي..

ـ إن قرار احتجازي طوال الأسبوع في المدرسة دون أن أخرج، سبب أكيد لتوافر حالة السأم التي أشعر به.

ـ إن هذا قرار من السيد المدير، ويمكنك مشافهته في ذلك.

ـ أرجوك.. إنني أرتاح إليك كثيراً.. إنني أشعر بتقارب كبير بيني وبينك.. إنني يا.. «عادل» أعتبرك أخاً، وصديقاً، وانعكاساً لأفكاري!!

ـ ماذا؟.. آنسة «نادية» لعلك تشعرين بصداع، أو حمى خفيفة، أو اضطراب بسبب هذه الحرارة؟. أرجوك.. أنا هنا «وكيل المدرسة» فقط..

و. . أخ لك بدون شك ولكن. . . أخ فقط يا آنستي. .

ـ عادل. . أرجوك، لقد كنت معك صريحة، وربما كنت جريئة في تقدير موقفي معك. . إلا أنني أعتز بك.

ـ آنسة «نادية» ترحيبي بصداقتك لا يمنعني أن أقول لك يجب أن تحافظي على مستوى التقدير عندي لك.

ـ هكذا. . ولكني. . أف يا الله. . ألا تقدر. . ألا تحترم مشاعر الآخرين؟ ألا تحب!!

ـ نادية. . اسمعي. . لم أقل إنك قبيحة، لأن جمالك أخاذ بدون جدل، لكنني ـ يا أختي ـ أحب مثلك تماماً. . أحب واحدة. . حلوة. . جميلة مثل «سميراميس». . نصفها، ونصفها الآخر بشر، وهي اليوم بعيدة عن بلدنا. . في رحلة شريفة. . في رحلة دراسية لتنال الشهادة الجامعية. . ولقد كان ارتباط روحينا وثيقاً إلى درجة أن الموت لن ينجح في قهر هذا الارتباط. . أفهمت الآن؟!

ـ أفهم كل ما تريد أن تقوله. . لكنني لست شاعرة في مستوى ملاكك ذاك. . فأتشبث حتى بروحك. . إنني أريد منك أن تمنحني أيامك الحاضرة فقط. . وسنرى من سينتصر في النهاية. . الروح. . أم المادة. . إنني عاطفية أيضاً، وذات قلب. . لكنني لا أحلم كثيراً. . إنني أعيش الواقع، وأخلق ما أتمناه!!

ـ أنت مغرورة. . ونهَّازة للفرص، والحب ـ يا فتاتي الصغيرة ـ لا يمتزج بالغرور والانتهازية. . الحب هو الذي يحقق الفرص. . وليس الفرص هي التي توجد الحب، وتحققه. . الحب لم يكن في يوم من الأيام «مادة» يعبث بمفهومها الناس. . وعندما يتحول إلى مثل هذا. .

فسيصبح اسمه «شركة» كالتي تحاولين إقامتها معي الآن.. الشركة الزوجية المتحدة!!..

وتركتها على حافة سريرها في حجرتها الخاصة.. وعدت إلى مكتبي مضطرب الأعصاب.. حانقاً على هذه «الطفلة» التي تريد أن تفلسف الحب.. بتأثير «حالة» تعيشها!!

* * *

ورفعت رأسي نحو المدير المحتقن.. الذي كان يمعن النظر ليرى تعابير وجهي لحظتها.. والبسمة الصغيرة لم تزل على وجهي.. بسمة شفقة، وعطف من أجل تلك الصغيرة الغريرة.. وتكلم المدير يقول:

ـ ها.. ما رأيك فيما قرأته؟

ـ قلت: صحيح!؟

ـ قال، واحتقان وجهه يزداد: وتعترف بمثل هذا التبجح؟

ـ قلت: هل أكذب عليك؟.. لقد حدث كل ما سطرته الآنسة «نادية»، وإنني أعتذر عنه بشدة!

وكنت أعرف أن الاعتذار في مثل هذه الحالة.. لا يجدي أبداً، وأتوقع الإجراء الذي سيتخذ ضدي. لكنني سأتقبل كل شيء.. دون أن أتورط فأجلب لهذه الفتاة الصغيرة بلا خبرة ولا تجربة الخزي، أو الإحراج، أو على أقل تقدير.. أسبب لها ما سوف يطبق عليّ بعد لحظات..!!

ـ قال المدير بنبرة هزء: نعم؟.. تعتذر عنه بشدة.. يبدو أنك لا تستطيع تقدير الأمور والحوادث.

ـ قلت: بلى يا سيدي.. أستطيع، ولكنني أريدك أنت أن تفعل ذلك!!

وقمت إلى مكتبي بعد هذه المناقشة الساخطة.. ونسيت ما حدث، وأنا في دوامة العمل، وصخب الطلبة.

ومرت أيام، وفي يوم.. تقدم إلى مكتبي «الفرّاش» وفي يده مذكرة يطلب مني أن أتسلمها رسمياً.. وكانت قراراً بفصلي من العمل بناء على مسلكي الأخلاقي..

وتسلمني الطريق. إنساناً مذهولاً.. تائهاً.. غبياً.. مثالياً إلى الدرجة التي تغضب الناس، وتدفعهم لتطبيق النظام.. وهو إجراء سليم طوال الزمن الذي أحتفظ فيه بحقيقة «العمل» الذي تسبب في فصلي!

وأخذت العربة تقودني بدل أن أفعل هذا أنا.. وفي اعتقادي أنني منطلق إلى مخبز معروف..

وفجأة رأيت أمامي سيارة نقل ضخمة، مدمرة تندفع نحو عربتي.. أو لعلّ عربتي هي التي اندفعت إلى طريقها، وسمعت صوت الاصطدام، والهول.. ثم لم أعد أدري شيئاً.. وبعد أيام ثلاثة.. تمثلت لي «الفجيعة».. أو الحلقة المفقودة للفجيعة.. فإذا أنا في فضاء الصحراء.. وإذا بالأطباء يصرون على بتر قدمي اليسرى!!

وأضحى اسمي مضغة تلاك في أفواه الناس.. بدون رحمة، ولا تفهُّم..

شد ما أمقت حياتهم هذه..

شد ما ترهقني أيامهم..

ويا شقوتي بهذه الأيام ـ كذلك ـ وأنت ذات منأى بعيد..

ليتك هنا معي، فأنت وحدك القادرة على اقتلاع نظراتي من لحدها اليوم.. وإعادة الحياة إلى حركتها، وتطلعاتها الشريفة المضيئة بالأمل.. أنت وحدك علمتني ـ مرة ـ كيف يسوس الإنسان حياته الكئيبة، ويحيلها إلى حديقة غناء.. يرقص فيها الطير.. وذلك عندما كشفت لك عن ماضٍ بلا طعم، ولا رائحة.. فقلت لي:

ـ نحن صناع الطعم، والرائحة، واللون!!

ولم أكن أعلم أن أيامي التي سبقت التحام روحينا هي بالنسبة إلي ماضٍ منعدم السحنة.. وكنت أنت صانعة للحاضر، وفيه!!..

إن هذه النفسية هي التي لوّنت أفكاري بما شرحته.. لقد كنت سعيداً بأيامنا معاً.. برسائلنا.. بنقاشنا، باحتدادنا.. بالمحاولة التي قام بها كل منا على حدة.. محاولة سيطرة فكره وآرائه على تفكير الآخر.. إلا أنني كنت سعيداً.. أقصد كنت واهماً.. فما أحلى الوهم أحياناً.. فهو كل السعادة..!!

كنت واهماً أن النظرات غافلة عن سمائنا التي كانت تحلِّق فيها روحانا..

كنت واهماً من الصحائف التي زرعنا أفئدتنا، وقدرنا، وسعادتنا على بياضها النقي في مثل سرائرنا.. ونفوسنا، وقلبينا.. صحائف لا يمكن أن تذوب، أو تصفر، أو يخرمها الزمن.. ففجعت عندما علمت أن عوداً واحداً من الثقاب.. واحداً فقط أتى على نقائها بيد غير يديك.. فأحالها كومة سوداء هشة تبعثرها النسمة العابرة بعد أن كانت النسمة تزيد حروفها وضوحاً وصدقاً ونقاءً ورونقاً..

كنت واهماً أن أحدنا إذا أصابه المرض.. فلن يكون علاجه ـ مهما

كان ـ في قوة البسمة التي يمنحها الآخر لتكون بلسماً سريع المفعول.. فازداد توتر الصدق في وجداني، وأنا أعاني من مرض نفسي أقوى من مرض الجسد.. هو النوى، ومع هذا فإن النوى في داخلي يعاني هو الآخر كظماً قوي الإرادة، وقوة الإرادة مستمدة أيضاً من تطلعي إلى بسمتك التي ستشرفين بها على درب المستقبل.

* * *

والآن...

قد أبعث إليك بشرى خروجي من المستشفى.. لم يبتر الأطباء ساقي.. فقد بذلوا كل علمهم للمحافظة عليها.. إلا أنني عدت إلى حياة الناس «أعرج».. أنقل قدمي المعطوبة بعد أن كانت تنقلني.. وأجررها على الأرض.. وفي الوقت نفسه.. أجرر حولي نفسيات الناس، وأسلوبهم في الحياة.. ويهمني أن أكون قد وفقت في التعبير عن حقيقة المرحلة الراهنة في مسيرتي المنفردة الموحشة.. التي أحاول بها أن أفلسف طبيعة المستقبل الذي ينتظر لحظة لقائنا من جديد.. إن اللقاء سيكون مادياً!!.. ولا تجزعي من هذه العبارة، وتتذكري نقاش «نادية» معي حول المادية.. أو الروحية في الحب.. اللقاء سيكون مادياً بمعنى أن أكفّنا قد تمتد للتعانق. لتتصافح.. بمعنى أن نظراتنا قد تلتقي في قبلة رؤيا.. لا رؤى!!.. لكن لقاء الروح لن يتحول في معناه، وإيجابيته إلى مفهوم مادي.. لقاء الروح مستمر منذ التحام روحينا، وإلى الأبد!!

اللقاء سيأتي، ولا أعلم توقيته.. إلا أنني أعرف أنه سيجدني تحت أنقاض نفسيات الناس..

ولكن.. إذا تحقق اللقاء.. سأنسى من أجلك كل النوائب بأشخاصها، وأحداثها.. وأسبابها.. وسأعود سعيداً.. سعيداً جداً، ولو بالوهم مرة أخرى..

وما أحلى الوهم أحياناً.. فهو كل السعادة!!

# قشــور الرمَّـــان

بدوية من وادي «ليه».. خطرت أمام عينيه الضيقتين على ما فيهما من اتساع مدى، وغور.. واختلطت في أثرها كل الرؤى، وتلوّن البساط الأخضر الممتد أمامه، وغامت السماء الزرقاء الصافية اللانهائية، وأعشيت نظرته.. في اللحظة التي شعر فيها بغيث يسقي جفاف نفسه القاحلة!

ماذا دهاه؟

هل طرأت عليه معاناة نفس متعبة؟

أيشعر في داخله.. بحس غريب له لون لازوردي؟

لون لازوردي.. يكاد أن يكون مثبتاً في خيوط ذلك الثوب الفضفاض الذي تتلفع به.. وفي خيوط خمارها الداكن المنحسر عن بحيرتي عسل صافٍ!. أرض الثوب زرقاء داكنة.. محلاة ببقع حمراء.. وسوداء.. فيها تجانس فريد.. غريب.. يراه لأول مرة حلواً.. زاهياً قشيباً.

إن الدليل قد خف رشيقاً من أمامه. في رهافة النسيم العليل الذي يهب على مدينة أرهقتها الرطوبة!

لقد تسلل هذا الرجل من متاعبه، وشظف أفكاره إلى هذا الوادي الحالم.. في ليلة جمعة.. ينسى فيها دنياه.. ليعيش حياة النجوم، ويتذوّق مرشف القمر ـ على أنف روّاد الفضاء! ـ ويعب من هذا الوجود

الأخضر المتصل أمامه.. أرضاً.. تربة.. خيراً. حباً يلتحم فلا يبدو إلا وجوداً واحداً.. هو حياة هؤلاء البدو.. الذين ينتعلون تراب الوادي ويستظلون باسقاته، ويغمضون أعينهم على موكب مشتاق يخط طريقه في السماء.. موكب النجوم.

وتخلى عن النافذة المتواضعة التي أخذت من وقته ساعات حنين، وتذكر، وتأمل.. ودفع بخطواته إلى طريق هادئ.. يقطعه بقدميه ليلتقط بنظراته الولهى هذه أحلى المشاهد التي تنطبع في النفس.. فلا تبهت ولا يصيبها البلى.

في السماء أشعة نور تمزق ستاراً أسود حالكاً. ما عتم أن تلاشى سواده.. فتدفقت الأشعة هادئة.. حنون، ومع ملاحقة الأفق لمعرفة منتهاه.. كانت المحاولة قد أضنته.. وكان بحثه قد أصيب بالنضوب!

فكر لحظتها أن «الأفق» قد لا يكون في السماء..

الأفق.. في التأمل!

الأفق.. في التفكير!

الأفق.. في النفس!

الأفق.. في الأماني؟

أما «أفقه» الآن.. فهو متابعة.. بحث.. حتى يتمكن من العثور على «بحيرتي العسل» الصافي!

لكن.. ما هي دوافع هذا كله.. لماذا؟

همس لنفسه بهذه الحيرة التي تحركه، ولم يرتقب صدى هذا الهمس.. بل واصل ممشاه.. ينقل قدميه. قافزاً بين «فلج» التربة

المرتوية.. مطلقاً زفرات من صدره.. يستنشق بها هواء عليلاً معافى ويعطر رئتيه برائحة الأرض والزرع.. كأنه يغسلها بهذا العطر.

وفجأة فقد توازنه، وزلت قدمه اليمنى في «الفلج» وسقط كل جسمه على الأرض، وتطلع حوله مخافة من عين رصدت هذا التهاوي لتطلق ضحكات السخرية!. وقام يحمل على ثوبه الأبيض الناصع طيناً.. وماء، ولوناً قميئاً.. فهل يستمر، ليكتشف منتهى الأفق؟!

يستمر برغم هذا الوحل. فالاتساخ في ثوب يخلعه بحسب هواه.. ورغبته. ولن يكون في ضمير، أو «أفق» لا يملك بعد استفحاله إرادة التغيير فيه!

ـ أين أجدها؟!

خاطب نفسه هكذا.. وهو يتابع خطواته الهينة البطيئة متجولاً.. مستمتعاً.. رغداً بهذا الانعكاس في عينيه..

واضطربت خواطره قليلاً.. وهو يصطدم بتساؤلات.

ـ ماذا تروم من ملاحقتها.

ـ تبصر.. أنها نقيض لك.. في فكرك، في تفكيرك في أمانيك، في أحلامك، في أسلوب استمتاعك بالحياة، في النظرة إلى الحياة ذاتها.. إنها «إنسانة» كنزها في هاتين البحيرتين من عسل مصفى.. في أصالتها.. كشيء له جذور ضاربة في الأرض لا يمكن اقتلاعها، أو إيقاف نموها.

.. وأنت إنسان متعلم.. متحضر.. تملك قدرة التفكير واتساع التطلع.. وهي جاهلة.. بدائية.. تفكيرها ليس فيه أفق، وإنما له سطح، أو غطاء!

ـ أعرف هذا ـ أيتها الخواطر المضطربة ـ . . وأعرف أيضاً أن المتابعة لخطوها. لا يعني تشبثي بها «كمادة» وإنما يعني عثوري على منهل جديد غريب كما يقولون ـ هو الأصل لحياتي. . لتاريخي لجذوري أنا أجهل فلسفته حتى اليوم. وأتوجع عند استشعاري بجهلي. . هذا الأصل. . يتشكل. . ويتبلور. . «كمعنى» يفيد الديمومة. . ولا يناله الإفلاس (!)

لقد استوى ـ الآن ـ تطلعه وفكره على منطق مفحم. . يشحذ خطواته، ويدفعه ليجدّ في البحث.

أين يلتقي بها. . وكيف. . وهل يصح له أن يحادثها. . وما هو تعريف العيب، والحق في هذه الرقعة الصغيرة من عالمه؟!

وألح عليه تساؤل جديد:

ـ تود أن تقابلها من أجل الاستمتاع بحلاوة العسل المصفى من بحيرته. . أم من أجل تبلور «المعنى» الذي يفيد الديمومة؟

والتزم بالصمت. صمتاً مضاداً يقف في وجه الصخب الذي افترش نفسه، وتفكيره.

وتوقف قليلاً. . وهو يراقب أول عمل يبادر به الفلاح يومه الغامض.

الرجل، والمرأة، والفتى، والفتاة. . كلهم حركة، وجهد، وعرق. . أيديهم تبهج هذا الزرع المنتعش. . وتشذبه وتربيه. المحراث. «المحش» واليد التي تتغطى بالطين. . لتعدد مجاري المياه. . وتوزيع السقيا. . واليد الأخرى التي تقبض على أعواد البرسم الميعسمة. . . بحنو. . . وحب حتى في لحظة جزها. . واليد الأخرى التي تقبض على الفأس لتزرع. ويمضي صاحبها مورم القدمين.

وبهرته هذه الصورة.. منقولة في مشهد من الطبيعة الرائعة.

ـ ما زال يلتزم الصمت المضاد للصخب الذي في داخله.

ومدَّ من خطواته.. في محاولة يبخر بها الصخب.. لينتصر الصمت مؤكداً!

* * *

وتضم بقلقه.. وذهوله ساعات من يومه.. جففها تحت أشعة شمس معافاة.. منتصرة.. حتى إذا ارتمى وهجها وراء قمم الجبال.. تلقف خطواته ثانية، وابتعد حتى عن وجوده!

تلك هي.. تلوح لناظريه مرة أخرى.. تستأنس بثغاء شياهها، وفي يدها عصاها تهش بها.. وتكاد لا تبين في داخل ثوبها الأزرق الداكن المحلى.. ببقع حمراء وسوداء.. وعلى رأسها رداء ثقيل أسود يلحف حتى وجهها.. رداء كنود قاهر. مرهق.. انهزمت فاعليته القوية. وغرقت في بحيرتي العسل المصفى!.

مرة ثانية.. العسل المصفى!

مرة أخرى.. المعنى.. أم المادة؟!

وتوسعت خطواته.. فإذا هو أمامها.. خيل إليه كأنه أحد هذه الشياه.. بكل علمه.. بكل حضارته.. بكل خصوبة حياته.. لا فرق أبداً بينه، وبين أحد هذه الشياه.. ثوان قليلة، وفي إمكانها أن ترفع عصاها، وتهش بها عليه (!).

ماذا يقول؟!

خرس.. إلجام.. تهتهة، ارتعاد فرائص.. ارتعاد منطق، وتلجلج نطق.

ـ السلام عليكم..

قالها.. وأُغمي على شجاعته كلها!

ـ عليكم السلام!

سمعها تحييه بهذه اللهجة.. بصوت ينتشر دائماً مع تباشير الصباح..

ـ يقولون إن هذا الوادي يمتد كثيراً.. ليوصلنا إلى وادي «ليه» الكبير؟!

ـ هذا هو الوادي لا ينقطع بل يستمر حتى بلوغ نهايته عند مشارفه من غاد.

ـ أهلك قدماء في هذا الوادي؟

قالت باستغراب غاضب:

ـ علامك.. ويش تقول.. من أنت..؟!

ـ قال: لا تحنقي.. عربي أنا مثلك!

ـ قالت: ماذا تريد؟

ـ قال: أريد أن أعرف تفاصيل أجهلها عن أرضي.. وتربتي.

ـ قالت: عانه.. هناك رجال مثلك ينبئوك!

ـ قال: وأنت.. لماذا لا تعرّفينني على واديكم هذا؟

ـ قالت: الغريب.. لا نحادثه.

ـ قال: لست غريباً.. بل ابن أرضك.

ـ قالت: اجفل.. عانه.. هناك.

ـ قال: بل أنت.. حدثيني أريد أن أسمع منك!

ـ قالت: ملحاح.. تنح.

ـ قال: الإلحاح مطلب ـ أحياناً ـ يا ابنة الرمان.. فحققي مطلبي..

ـ قالت: حضري!

وأشاحت بوجهها، وفي يدها عصاها تهتز بعصبية..

ـ قال: حضري.. من أصل بدوي..

ـ قالت: ثرثار.. إنني أفهمك.. وأنت لا تفهم قيمة وعاء الماء.. والرعي.. والحصاد.

ـ قال: علميني قيمة وعاء الماء.. والرعي.. والحصاد!

ـ قالت: نحمل على رؤوسنا وعاء الماء.. فلا نهرق منه قطرة واحدة.. وأنتم تخليتم عن الوعاء.. وأسرفتم في استخدام الماء.. ونغبش في الصباح للزراعة.. وتحصيل ما يكسبنا قوت أيامنا.. وأنتم نسيتم نور الصباح.. فلا تتعرفون على يومكم إلا تحت وطأة حرارة الشمس. لتقولوا بعد ذلك متأففين: حرارة قاتلة.. شمس محرقة.. ونعد قدراتنا وجهودنا للحصاد كل عام.. ننتظر المواسم. فنجني السعادة، والبسمة.. وأنتم متلهفون.. عجلى.. جعلتم كل يوم من أيامكم.. يوم حصاد.. فخسرتم.. الجني والبسمة!

ـ قال بعد إصغاء: فصاحة مبينة!

ـ قالت: هذه تستطيع أن تتعلمها!

ـ قال: أنت قاسية في لهجتك.

ـ قالت: سامحني يا أخا العرب.

ـ قال: لن أسامحك حتى تقطفي لي حبتي رمان من بستانكم!

ـ قالت: قليل ما طلبته لتأكله.. وكثير ما طلبته لتدخره.. وتتلذذ به (!).

ـ قال: لم أقصد.. لقد طلبت ما آكله.

ـ قالت: حرارة الشمس جعلتكم نهمين.. حتى بتم تظنون أن كل شيء يؤكل.

ـ قال: لا تقسُ عَلَيَّ.. حتى لا أحتقر نفسي.

ـ قالت تعال..

وسار في إثرها.. صامتاً حتى مدخل البستان ثم التفتت إليه.. وحدقت فيه ملياً.. وقالت:

ـ لا عليك.. ابتعد، وعد إلى مكاننا، وسألحق بك!.

وفغر فاه دهشة، ونكص.. إلى حيث أمرته، والثواني تتباطأ في وقته.. وأوجس كل محذور.

ورآها تسعى إليه.. خفرة.. رشيقة.. جذلى.. حتى إذا اقتربت منه.. قالت:

ـ هاك.. رمانتان كما طلبت.. عسى أنك بعد أكلها تحسن الفهم.. ونحن نحب أن نتعلم مثلكم، وننتظر افتتاح مدرسة هنا.

ـ قال ضاحكاً: وأنت.. ألا تودين أن تحسني فهم مقصدي وحديثي،

أنا أعرف أن المدرسة ضرورية لأمثالك.. فحرام أن يُهدر هذا الذكاء.. ولقد حان وقت افتتاح هذه المدرسة قريباً.. ولكن ألم تقرئي نظراتي؟

ـ قالت بخفر: ماذا تريد أن تقول؟

ـ قال: أريد أن أعرف الحب منك.. أن أقرن الحضري.. بالبدوية.. تشاهدين حضارتنا وأتعلم ذكاءكم!

ـ قالت وعيناها في السماء: الحب.. والزواج؟!

لا تستطيع يا أخا العرب أن تحقق ذلك لنفسك.. ولي.. وافرض أننا فزنا بهذا الأمل.. فهل تخلص لطبيعتي البدوية.. أو أبصرك يوماً تسدر في طريق الضياع.. أفتقدك.. وأفتقد شياهي.. وجبالي، وأرضي؟!

ـ قال: ما يدريك أنني قدير على التمسك بأصالتي وبعهودي؟

ـ قالت: أخاف الضياع.. أخافه!

ـ قال: كيف يكون الضياع؟

ـ قالت: أنت تحبني.. وتتزوجني.. وتمتلك حضارتك وأصالتك معاً.. ثم يخونك مبدأ الحفاظ.. فماذا بعد أكل الرمان؟

ـ قال بوجوم: قشرته!

ـ قالت: هل تحتفظ بالقشرة.. أم ترميها تحت قدميك؟!

ونظرت إليه طويلاً بطرف عينيها!

ولم تنتظر إجابته، وإنما رفعت عصاها، وهشت بها على شياهها واحتضنها «الأفق» وغابت فيه.. فلم يعد يحتفظ في عينيه إلا بالسواد والبياض فيهما.. ومشروع مدرسة!.

وتطلع إلى يديه.. وفيهما حبتا رمان موردة القشرة.. ربما كانت حباتهما حلوة.. «كالعسل المصفى» فاقعة الحمرة، وربما كانت الحبات كالأرز.. لكنه يعرف أن رمان «ليه» حلو، لذيذ!

والقشرة؟.. إنها تداس بالأقدام كما عبرت هي.. فهل كانت الحلاوة في الرمان معنى، أم مادة؟!

كان يهذي بهذا التساؤل.. وهو في طريقه إلى المدينة.. إلى الحضارة!..

إنه يقول.. كل الآكلين.. يتلذذون باللباب.. ويقذفون بالقشور.. هذه القشور هي التي حفظت ما في الداخل.. احتفظت بالجوهر!.. ليست كل القشور.. وإنما «قشور الرمان» فقط!!

# حيث تموت الحيَاة. . مِن جَديد!

في الطابق الثاني من المستشفى الكبير، تسللت حزم ضوء مبعثرة من نافذة أسدلت على جوانبها ستارة بيضاء، وقد أوغل الليل في لجة سكون عميق.

وبدت أضواء كهرباء الفلورسن خافتة، تتسكع على الأرصفة التي انتشرت في زوايا ظلمة، أحالت هذا الشارع الممتد في مدينة جدة إلى مستشفى آخر فرض فيه السكون، وخنقت الضوضاء.

تدلت عنق سعيد من الطابق الثاني، وهو يبحث بنظراته القلقة الضائعة عن معنى للحياة، أو صورة لبشر، أو هيكل لآدمي ليشعر بوجوده. لكنه كان دائماً لا يسمع غير أصوات أبواق السيارات بين الحين والآخر، وهدير عجلاتها على الأسفلت المتكسر يعلو ثم يتلاشى.

وأطلق زفرة من صدره، ثم عاد وأطلق نظراته الضائعة، لتضيع مرة أخرى في هذا الهدوء المخيم، ووضع مرفقيه على حافة النافذة، وألقى برأسه فوق يديه. وهمس لنفسه يقول بحرد وتأفف:

ـ ما هذا؟. . حياة. . دنيا. . بشر يتحركون، ويفكرون، وينتجون، ويبدعون؟!. . كلا. . إن الحياة التي أراها. . تطالعني كل يوم. . كأنني أشاهد فيلماً سينمائياً لا تتغير قصته، ولا ينوع حواره. . أين هو المجتمع

الذي يحفزني على المطالعة، لأبني فكراً في داخل دماغي؟!.. لا أجد ذلك المجتمع، لا أجد الناس، هؤلاء الناس مثل هذه اللمبات الكهربائية المنتشرة بانتظام على طول الشارع، تضيء في وقت واحد، ويضعف تيارها في لحظة واحدة، ثم يموت فيها الضوء في غمضة واحدة، إيه.. دعني أَعمل الخير أحسن.. لأذهب إلى داخل الغرفة لأرى هذا الصديق المريض.. كيف حالته الآن..

وعادت الستارة البيضاء إلى وضعها السابق على فتحة النافذة.

ونظر سعيد إلى وجه صديقه وإلى جسده المسجى أمامه على السرير، ولم يجد شيئاً جديداً.

وجه مصفر من أثر الخوف الذي عاناه صديقه عند بدء إجراء عملية الزائدة له، وجسد خدره البنج فلم يعد يتحرك منه، وليس في داخله، سوى نبض يتلاحق وفي رتابة عجيبة!

واتجه، بعد هذه النظرة السريعة، إلى السرير الثاني المعد لمرافق المريض، وقد ألقي في ركن الغرفة الأخرى، وامتدت يده تثبت وضع الأباجورة الصغيرة، وتحصر ضوءها على صفحات الكتاب المنبسط بين يديه. واستدار بوجهه ثانية، يحدث النظر في الجسد الذي أرغمه صاحبه على أن يقضي ليلته هذه.. على صورة ساكنة.

إن سعيداً لم يكن سوى صديق وفي، جاء إلى هذه الغرفة في المستشفى ليكون بجانب صديقه، يخفف آلامه ويصغي إلى مطالبه، ويرقب حركاته فوق السرير.

لا يهم، إن والد صديقه سيحتل هذا السرير في الليلة القادمة، وقد أدى واجبه، وتركزت نظراته تنبش في سطور الكتاب الذي بين يديه، ولم

يعد يشعر بشيء حوله، فقد مضى به فكره، وإحساسه بعيداً مع المعاني التي يقرؤها، وكاد في هذه اللحظة أن يجد نفسه، ويبصر واقعاً حياً يحوطه ليعطيه كل إنسانيته، لكنه فوجىء بالممرضة المناوبة تدخل إلى الغرفة، وقد وضعت في عينيها الواسعتين ذرات من الغضب، واحتقن وجهها بكدمات أوجدتها أعصابها المتوترة وتعلقت نظراته في وجهها الغاضب فهو لا يعرف ماذا أصاب هذه المرأة؟!

ولم تتركه يفكر في المهمة التي دفعتها للحضور في هذا الوقت، حوالى منتصف الليل، فقد اقتربت من سريره، وضغطت بأحد أصابع يدها الرقيقة التي طليت أظافرها (بالمانكير) على أزرار الأباجورة المضيئة، وأحالت الغرفة إلى ظلام تختلط به أشعة ضوء خافتة من لمبة صغيرة مدلاة في الحجرة! وفغر فاه من الدهشة، إذ لا يمكن أن يعيد هذا التصرف إلى ممرضة رقيقة تنتمي إلى فصيلة الناس! ولم يحتمل تصرفها، خصوصاً أنها أوشكت على مغادرة الغرفة بدون أن تتكلم..

وقذف الغطاء الذي دثر به رجليه بعيداً عن السرير، وقام يعدو خلفها نحو الباب وحدق في وجهها وقد شعر أن الاحتقان انتقل إلى معالم وجهه هو.. حدق فيها بغضب ثم قال:

ـ ما هذا التصرف، ألست إنساناً يمتلئ بجسدي هذا السرير؟.. ألا يمكن لك أن تستأذني قبل أن تتطاول يدك وتطفئ ضوء الأباجورة وأنت ترين الكتاب في يدي؟.. إيه إحنا في زريبة؟

ووضعت يديها في وسطها، وزاد تحديقها في عينيه، ثم تكلمت تقول:

ـ اسمع يا أستاذ.. كلمات جارحة لا يمكن أن أقبلها! إن المريض في

حاجة إلى هدوء، والضوء يزعجه!

ـ ولماذا لم تستأذني؟.. إن تصرفك وقح!

ـ كلمة واحدة يا أستاذ.. يجب أن تطفىء النور!

ـ وأنا أصر.. يجب أن أضيء الأباجور حتى انتهي من قراءتي!

ـ وأنا لن أمكنك من ذلك لأنني سأعود، وأطفئه!

ـ وأنا لن أبقى في هذه الغرفة، إلا إذا كانت الأباجورة مضاءة، وإلا فإنني مضطر لترك المستشفى، والتخلي عن مسؤولية البقاء بجانب صديقي..

ـ ذلك شأنك أنت أيها السيد!

ـ ومن شأنك أنت أيتها السيدة أن تضعي مقعداً بجانب سرير هذا المريض وتسهري على راحته حتى الصباح، فهو ما زال يسدر في غيبوبة البنج، أما إذا حدثت له مضاعفات خطيرة فستقع المسؤولية كلها على رأسك! و...

ـ اسمع، أولاً أنا لست سيدة، فيجب أن تتهذب في ألفاظك!

ـ آه.. سيدة.. آنسة كله واحد.. هكذا أرى على وجهك!

ـ وقح؟

ـ وأنت قليلة أدب!

وأدار ظهره نحوها، وعاد إلى سريره، وامتدت يده تضيء ثانية، وبحركة عصبية، أضاء الأباجورة، والتقط الكتاب الملقى على السرير، وتهيأ للقراءة من جديد.. وهو يختلس النظرات من باب الغرفة!

ورآها تخطو هذه المرة نحوه بخطوات رشيقة، كأنها ترقص الباليه، واقتربت من حافة سريره وهو لا يشعر بوجودها عنده، وأمسكت بيده تربت عليها هذه المرة وتقول:

ـ اسمع. العناد لن يفيد. أرجوك أن تفهم. هذا النور يسبب إزعاجاً للمريض..

وتراخت يداه بالكتاب ونظر إليها في استعلاء.

ـ أرجوك؟ تقولينها الآن، ومع هذا لن أتنازل عن القراءة مهما كان! وقذفت بجسدها على حافة سريره، وجلست والتقطت من يده الكتاب ثم أخذت تقلبه وهي تواصل حديثها إليه:

ـ يبدو أنك تحب القراءة كثيراً؟

ـ وأنت مالك.. ليس هذا شغلك.. إن مهمتك أن تسخني الحقن لتجهزيها للمختص بإعطائها للمريض.

وكاد يرى على وجهها عودة الاحتقان، وهي تنشب نظراتها في وجهه وعلى حفافي شفتيه، لكنها أجابته:

ـ إنني أقرأ بوعي وإدراك، أحسن منك وخريجة جامعة وممرضة من الدرجة الأولى.. أما أنت..

ـ أنا لا أكذب كثيراً و(من الدرجة الأولى) فما زلت في المرحلة الجامعية، في سنواتها النهائية، غير أنني أقرأ أحسن منك وأتحدى فهمك المزعوم!

ـ أنت اسمك إيه؟

ـ ها.. ها.. اسمي فاهم.

ـ طيب.. قم يا أستاذ (فاهم) وتعال لأضعك في غرفة خالية هادئة، تساعدك على الفهم الكثير، وتمكنك من إضاءة النور، وسأتولى أنا مراقبة حالة مريضك!

ـ لا.. لن أتحرك من هذا السرير!

ـ لا تكن عنيداً.. هيا.

ودفعتها خطواتها نحو الباب، وشعر أنه قد أطبق الكتاب، ووضعه تحت إبطه وحمل سجائره وسار خلفها! إلى أين؟ لا يدري!

ودلفت به إلى غرفة مجاورة ليس فيها غير سرير واحد وبضعة أرفف، ودواليب رصَّت عليها أدوية مختلفة.. وعرف أنها غرفة الممرضة المناوبة واقترب منها يقول:

ـ لكنك لست ممرضة مناوبة.. أين تستريحين أنت؟!

ـ أفهم ذلك، لكني لن أستريح، لأن مهمتي تقتضي مني أن أتجول طوال الليل باستمرار على غرف المرضى لملاحظتهم وأنت لن تنام هنا، إنك ستقرأ حتى تتعب، ثم تعود إلى سريرك لتنام!

وتركته يتهيأ للاستلقاء على السرير، في الوضع الذي يتمكن فيه من القراءة، وانتقلت إلى أرفف ودواليب الأدوية تبحث فيها عمّا تريده. وهدأت ثائرته..

ووجد تفكيره يتجمد عن متابعة فصول الكتاب، فقد كان يتطلع إليها ـ هذه المرة ـ وفي داخله علامات تعجب واستفهام. كانت تقف أمام الصيدلية الصغيرة تلك، بثيابها البيضاء وطاقية الممرضات المنشاة، قسمات وجهها رقيقة، صغيرة، وبشرتها سمراء مشربة بحمرة، في عينيها سواد

داكن في عمق هذا الليل، في فمها (زمة) تعبر عن الصرامة الموجودة في كل العالم على الإطلاق، وعندما ابتسمت له وهي تسأله عن اسمه أصابته الدهشة إذ لم يكن يعتقد أن هذه الشفاه المقلوبة قد ابتسمت قبل الآن، وهمس في نفسه:

ـ ليتها لا تجد الدواء الذي تطلبه بسرعة.

لكنها التقطت زجاجة صغيرة وفاجأته بنظراتها وهو ما زال (سارحاً) يتطلع إليها بذهول وسألته وهي تدفع خطواتها إلى خارج الغرفة:

ـ إيه.. مالك.. عايز حاجة؟

ـ شكراً.. إنني سأقرأ!

كنت أظن أنك انتهيت من قراءة عشر صفحات.

وتركته وحيداً. كان يفكر في طريقتها في الحياة ويتساءل:

ـ لماذا تبدو للناس عنيفة، شرسة، متنمرة، مع أن طبيعتها الرقة، والحنان؟!.. كيف تبدو شرسة، وهذه الرائحة التي استنشق فيها المرأة الزاخرة بالحب والعاطفة؟ ولكن.. لماذا اختطت لنفسها هذه الطريقة، في معاملة الناس؟ يجب أن أسألها، غير أنه لم يستطع أن يستمر، وأقفل الكتاب واتجه نحو غرفته، وهو يقاوم النوم الذي أثقل جفون عينيه.

* * *

ومرت نصف ساعة، صرفتها في ملاحظة المرضى، وتلبية رغباتهم، وعادت إلى الغرفة لترى ذلك المريض الصحيح! لقد كانت تفكر مع طرقات خطواتها على ممرات المستشفى في هذا الرجل الذي حاول أن يذلها الليلة وهي التي تمردت على شخصية كثير من الرجال وطوعتهم

لرغباتها. أما هذا، فإنه غريب، يختلف كثيراً. هل تقول إنه حاول إذلالها؟!.. كلا... لقد أذلها فعلاً عندما أرغمها أن تربت على يديه، وتسترضيه لكي يترك مريضه للراحة، وينتقل إلى حجرتها ليتابع قراءته، لكنه هددها بعظم المسؤولية عليها إذا خرج من المستشفى، وترك المريض وحده. وماذا يحدث لو خرج، وألزمها بالمسؤولية نحو المريض؟.. لا شيء! إنها أذلت.. هذا أكيد لا يحتاج إلى نقاش وهو قد أذلها.. وكان في تلك الأثناء رائعاً. رجلاً يؤمن بنفسه، وبوجوده مثلما كانت هي أيضاً عظيمة عندما أخرجته من هدوئه، وطبيعته، ومع هذا فإن حديثه حلو، يدل على ثقافة، ومعرفة وهي تميل كثيراً إلى الشاب الذي يحدثها بذكاء، ويخلق في الجو حواراً ينسيها الوقت فيما.. تقوله، وتفعله. وهل فعلت ما يرضيها مع هذا الشاب؟

لقد شتمته، وشتمها، ثم عقدا صداقة، وإلفاً.. وضبطته وهو يفحصها في أوله.. هكذا خيل إليها لحظة وقوفها أمام الصيدلية الصغيرة.

وهو كان وسيماً.. أعجبها كثيراً عندما انتشرت أمارات الغضب على وجهه واستمرت في إغضابه حتى ترضي في نفسها هذا الإعجاب بشكله وهو حانق. لكم تمنت أن تثير غضبه من جديد عندما أقنعته بالانتقال إلى غرفة (الممرضة المناوبة) لكنها.. لكنها ماذا؟!

أف.. هذا الليل ميت بلا حوار يعطي الحياة متعة من شفتين تتحدثان، ومن نظرات تفحص، وترى. إنه ميت بلا ضجيج.. كذلك الذي انتهى قبل ساعتين في غرفة الأستاذ فاهم!

أوه.. إنني لم أعرف اسمه الحقيقي بعد. وأسرعت الخطى نحوه، ودلفت من باب غرفة (الممرضة المناوبة) وفوجئت بخلو السرير من

الإنسان العجيب. لقد ذهب لينام وبالتأكيد وليطفئ ضوء الأباجورة أيضاً. وقفلت عائدة إلى غرفته. ورأته يغط في نومه، فوقفت عند حافة السرير تتطلع إليه:

يا له من مكابر عنيد. إنه لم يقرأ كثيراً إلى الدرجة التي دفعته لتلك الثورة، والعناد؟!

وسقطت قطع من ظلال الليل على وجهه.. في اللحظة التي سقطت فيها قطع أخرى من تأملاتها على وجهه أيضاً وهمست:

ـ ليتك تثور الآن. ليتك تحلم بخناقة. لتغضب قسماتك.. ثم تضحك بعد ذلك!

وسحبت الغطاء على جسده وألقت نظرة على صديقه المريض، وخرجت.. ولم تذق النوم.

وجاء الطبيب في الصباح، يحدق في عينيها المصبغتين بالاحمرار، وسألها:

ـ يبدو أن التعب أصاب مرضى كثيرين ليلة البارحة، فلم تتمكني من النوم!

ـ ذلك هو الواقع يا دكتور!

وصعدت إلى الطابق الثالث حيث سكن الممرضات، وألقت برأسها على الوسادة، ثم لم تعد تدري ما حولها!

وأفاق سعيد من نومه في صباح اليوم الثاني على صوت صديقه يطلب ماء، وأسرع يعدو إلى ممرات المستشفى بحثاً عنها، عن الماء، عن الطبيب. واصطدم بوجه آخر لم يره. ممرضة أخذت مجلس صديقته في

ليلة البارحة. وطلب منها الماء ورؤية المريض، وكاد يسألها عن حلم الليلة الماضية فلم يرق له إفشاء أسرار الليل وأضواء القمر ووصوصة النجوم.. ذلك من حقها هي.. ومن حقه هو فقط!..

وانفرج باب الغرفة، وفوجئ بوالد صديقه يدخل في لهفة وجزع، يريد أن يطمئن على ابنه.. ومرت لحظات.

ومر اليوم بكامله وسعيد في انتظار الظلام ليحتضن الليل بكل المعاني التي يحملها. وحدثت الكارثة له.

إن والد صديقه سينام هذه الليلة عند ابنه، والمستشفى لا يقبل سوى مرافق واحد!

و.. هي.. تلك التي لم يعرف اسمها بعد؟!

وبذل محاولاته مع والد صديقه دون أن يظفر بنتيجة تعيد إليه الأمل. وارتدى ملابسه الخارجية، وأخرج ورقة صغيرة ملأها بسطور أتعبته كثيراً وهو يكتبها وسلمها لصديقه.

ودفع بجسده إلى ممرات المستشفى وهو يرى الابتسامة التي ارتسمت على وجه صديقه عندما سلمه الورقة الصغيرة..

وغاب في جوف سيارة أجرة.. في زحام السيارات المكتظة بها الشوارع.

* * *

وجاءت الساعة الثالثة ليلاً.. ومع دقات ثوانيها كانت خطواتها تحدث صوتاً على أرض الغرفة التي يرقد فيها صديق سعيد.. إنها قادمة لترى حالة المريض، لتؤدي وظيفتها ككل ليلة.

. . والأستاذ (فاهم)، ولكن أين الأستاذ (فاهم). . غير معقول. . هل تحول في ليلة واحدة إلى رجل أشيب هرم؟. . الحب لا يعطي هذا المفعول بهذه السرعة؟!

أين هو إذن؟!

وأرادت أن تسأل. . لكنها لاحظت إشارة صديق سعيد، وخرجت، ثم عادت تحمل في يدها الحقنة اليومية للمريض. واقتربت منه كثيراً تسأله بعينيها عن صديقه. . ولم تتكلم!

ولاحظ حيرتها وكبرياءها أيضاً عندما أصرت على عدم السؤال عنه!

وسألها: ألا تسألينني عن سعيد؟

فأجابت: وما شأني به. لقد كان مرافقك أمس واليوم مرافقك والدك!!

ـ هكذا. . وماذا حدث ليلة البارحة؟

ـ ماذا حدث. . هل قص عليك. . لقد شتمني، وشتمته!

ـ ثم؟

ـ أين ذهب الليلة؟

ـ لقد انتهت مهمته بعد أن حضر والدي.

ـ ولماذا حضر والدك؟

ـ ماذا؟

ـ عفواً. . أقصد. . قال لي صديقك أن والدك يقطن مكة.

ـ لقد جاء من مكة وذهب سعيد و. . خلَّف لك هذه الورقة!

ـ ورقة. . دعني أرها. واختطفت من يده الورقة الصغيرة، وعادت إلى

الخارج، واسم سعيد يدوي في أذنيها.. فهذا اسمه.. سعيد.. سعيد!!

ووضعت مرفقيها على حافة النافذة، ويداها تمسكان بالورقة الصغيرة، وعيناها تتابعان سطورها القليلة..

«عزيزتي.. لا أعرف اسمها:

لقد كنت قبل أن أتشاجر معك، أقف أمام نافذة هذه الغرفة التي سيهنأ صديقي بالبقاء فيها أياماً قصيرة، وكنت أحدق في ظلال الضوء الباهت المنتشرة في عرض الشارع وطوله، وأشهد لحظتها الحياة وهي تموت، كما أحس بها تموت في داخلي، في إحساسي كل يوم، كل ليلة، إذ لم يكن في هذه الحياة أي جديد يحيل، ويطور، ويدفعنا للتفكير والابتكار، والإبداع.. ثم حدث الفصل السخيف بيني وبينك!

سخيف؟.. هل قلت هذا؟ كلا، إنه فصل حلو. كان هو السبب الذي جعلني أرى الحياة، الحركة، الشرايين التي تجري فيها الدماء بعنف، وكرهت وقفتي التي كانت أمام النافذة قبل المشاجرة معك، كرهت كل الماضي، وأحببت رائحة الغرفة الصغيرة التي جلست أقرأ فيها، أقرأ الحياة خاطفة، أنا متأكد من ترمد وهجها..

إن الورقة صغيرة، ولن أطيل.. إني أودعك. وأنا سعيد اسمي الذي لم تعرفيه، وسعيد لأنني استطعت أن أستشرف بنفسي حياة بهيجة لم أستطع أن أراها بنظراتي فرأيتها بأعصابي وأعصابك.

ولا تبحثي عني.. فأنا عائد من جديد.

وسقطت الورقة من يدها.. وسقطت نظراتها من حافة النافذة إلى أرض الشارع.. إلى حيث تموت الحياة.. من جديد!

# الكارثة.. شيء بسيط!!

ما زالت نبرات صوته تحيا في ذاتي، وفي مسامعي..

نبرات شحنت بطاقة هائلة من الألم، والحسرة، والتأوه الطويل..

وسحنة وجهه.. لم تفارق تصوري منذ ذلك اليوم الذي جاءني فيه.. كأنه يسير على قدم واحدة.. يكاد كيانه ذلك المطوح في فراغ حوله يتهاوى بين لحظة وأخرى!.

وجلس بجانبي..

ورأيته بعيني.. كحرف «الألف» الذي يكتبه طفل مبتدئ في تعلم الكتابة!

واستهلك من وقتي دقائق.. خلتها ـ في صمته العجيب ـ فترة طويلة جداً..

ولم يتكلم أيضاً!.

وضاقت أنفاسي.

وتكلمت أنا.. أسأله:

ـ ما بك.. مصيبة.. كارثة؟!

وارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامة صفراء افتقدت كل المعاني..

لكنه تكلم، وفي صوته موسيقى تصويرية اسمها: الألم!

قال:

ـ المصيبة لا تعمر طويلاً.. إنها تأتي اليوم، ويعمل الغد على إنهائها، والكارثة واقع يحل، وقد يحول الحياة.. غير أن التحول لا يستمر، ولن يكون هو الحياة كلها!

ـ إذن.. ما بك؟!

ـ إنه قدري.. مصيري، والمصير هو الحياة.. العمر!.. إن المصير إذ كان على غير الأمل الذي كنا نتمنى غرسه في نفوسنا.. يفوق في فاعليته الكارثة، والمصيبة!

ـ وهل عتمت الحياة في وجهك.. فلم تعد تر صورة مصيرك!

ـ كلا.. إن مشكلتي تمسكها من أول هذا الخيط.. فالحياة لم تتحول في نظري إلى فيلم لم «يحمض» بعد.. إنها أمامي تشع بالنور، ويعمها الضوء.. لكن «قدري».. مصيري أصبح كالفيلم الذي احتشد فيه كثير من الصور الحلوة الباسمة.. صور الربيع، والزهور، والطبيعة، والجمال.. ثم سقطت به «الكاميرا» وتعرض للضوء السريع.. فافترشه اللون الأحمر.. ولم تعد فيه صورة واحدة صالحة!..

قلت: أما أنك مجنون.. وسأقوم بواجب العزاء لنفسي فيك.. أو أنك قد أبللت من مرض كنت فيه دائم «الهلوسة»!..

ـ قال: لا شيء من هذا.. اطمئن!

ـ لن أطمئن حتى تتكلم بوضوح..

ـ سأتكلم.. لكني لن أقبل تعليقاً منك حتى أقص عليك أسطورة «قدري».

ـ سأصغي إليك.. شرط أن لا تظلم «قدرك» ومصيرك، ونفسك!

وتحرك في مقعده بعصبية.. وتحول حرف «الألف» المتعرج إلى ما يشبه «ثقالة الورق» البلورية!.. وسرى صوته في أذني ساخناً.. كأنه «يلسع» كل مشاعري:

ـ قال: قبل عام ونصف ـ على وجه التقريب ـ تحصلت على شهادة التوجيهية وكان الفرح يزغرد في كل جوانحي وهيأت نفسي لخوض معركة جديدة في دنيا العلم. والاستفادة الكبيرة من المعرفة.. كنت أعرف أن المرحلة التي سأسير فيها لكي أتخرج جامعياً، يحمل في يده مؤهلاً معترفاً به في أوساط المثقفين، وفي ظروف العمل، ومنطق الحياة.. هي مرحلة طويلة صعبة.. ستكلفني عرقاً ساخناً.

وحدث الشيء..

هل تعرفه؟!

شيء غريب.. غريب يحيل الرؤية إلى سواد حالك في عيني!.

أمسك والدي بيدي.. وكل ذرة في عصبه ترتعش، وقال:

ـ إنك ولد مسرف في اللهو.. وقد سمعت عن مغامراتك القصص المثيرة، وتهمني صحتك ووقتك، ولهذه الأسباب سأزوجك!

وسقطت كل الأماني والآمال ـ لحظتها ـ تحت قدمي. كدت أتحسسها بأصابع قدمي قطعاً متناثرة!

ولأول مرة.. ناقشت أبي جادلته.. احتجيت على قراره!

ولكن بدون جدوى.. ذلك قرار، ولا يمكن أن أَرفضه، أو حتى أتأفف منه!.

قلت لأبي: إن المستقبل للعلم.. وإذا تخطانا موكبه خسرنا كل شيء.. أما الزواج فهو شيء نملكه.. نقرره متى نشاء، وأنا شاب.. ومن حقي أن ألهو بساعات من أيامي.. لكني سأكون مجرماً لو تطاولت، ولهوت بسنوات هي كل عمري!

وفشلت محاولتي.. إن استئناف الحكم مرفوض!

وسيق بي إلى «عش» الزوجية كما تقولون! وحاولت أن أواصل تعليمي.. وأذاكر، وأؤدي امتحاناً كل عام..

لكنني زوج..

أنا مسؤول عن إنسانة.. لي اسم عندها.. وعنوانه الكبير: بعلها (!!)

ورسبت في نهاية العام..

ونجحت زوجتي في نهاية العام الأول من زواجنا.. نجحت في امتحان الزواج، وأنجبت لي طفلاً صغيراً!.

وعند هذا الفاصل من حياتي.. ستقول لي: قف.. إنك تستطيع بالكفاح.. والعزيمة.. والإصرار أن تنال النجاح في الدراسة!..

وسيجيبك أسفي العميق.. ذلك أن الكفاح والعزيمة، والإِصرار تعبيرات رائعة تلتقطها أقلامكم ـ أيها الكتّاب ـ لتخدروا مصيرنا بها!

لقد كافحت، وصممت، وناضلت.. وأتيت بكل تعابيركم هذه كتصرفات في واقعي.. فخرجت بنتيجة جديدة..

أهملت زوجتي، وطفلنا، والبيت، ومستقبلها كله!.

أصبحت أفكر في هذه التعابير. . وللمرة الثانية ـ رسبت ـ لكن. . في البيت!.

وشيء آخر. .

إنني أطلب منك أن تتطلع إلى وجهي ـ بغير الكآبة التي يتشح بها ـ وأجبني: ألا زلت شاباً صغيراً؟. هل تلمح شبح تجربة واحدة على وجهي. . دون هذه القصة؟ هل اكتمل نصاب الرجولة في سنوات عمري الغضة حتى الآن؟! فلماذا أتحمل مسؤوليتين. . ألا تكفيني مسؤولية واحدة تضطلع بصناعة مستقبلي أولاً، وتستطلع خطاي في طريق الحياة القادمة ـ ثانياً ـ؟

وسكت. .

وطال سكوته. .

ـ وسألته: وهل طلقتها؟

ـ وأجاب: لن يكون هذا خلقي. . فمن حقها أن تتزوج، وتنام في حضن يدثرها بالحنان.

ـ قلت: وأنت. . ألم تفتقد الحنان قبل زواجك؟

قال ضاحكاً: كنت أتغذى به في خيالي. . وبكل الأمل الذي كنت أزخر به!

ـ قلت: والخيال. . ليس هو الحقيقة!

ـ قال: اسمع. . لاتجادلني ـ بطريقة أبي قبل عام ونصف ـ أنا أجد الحنان ـ لو لم أتزوج ـ عند أمي. . وأبي. . وصورة حبيبتي التي أحلم بها بعد أن استقر بخطى مستقبلي!. أما إذا فقدت المستقبل.

ـ قلت: لست أعترض على واقعك بأنه أليم، ومرهق!

ـ قال: أنت مخطئ.. فلقد ابتعد واقعي عن منطقة الإرهاق، والألم.. إنه يعيش بي في «تابوت».. أنا في داخل «التابوت» شيء محنط.. كل أجزائه سليمة، لم يفتتها الدود والتراب.. لكنه محنط.. هامد النبض، وكل حركات عيني متوقفة.. جامدة.. مركزة على مشهد واحد.. واحد فقط كان هو حياتي قبل عام ونصف!..

وخرج..

ومرت لحظات.. أحسست أن نظراتي كانت في أثنائها تائهة في مشهد واحد.. واحد فقط!

# الغـــريـــب!

[إلى الصديق الكبير الذي علمني وهو يروي لي هذه القصة شيئاً كبيراً.. هو معنى وقيمة].

اندفعت خطواته تطرق أديم بلد السحر والجمال «اليونان» لأول مرة في حياته.. جاء إليها بأقدام عجلة غير مستقرة.. ليستطلع معالمها، ويعب من دفقات الجمال، ويهدِّئ خواطره في التطلع إلى طبيعتها الساحرة.

كانت نظراته تسوح في كل أرجاء هذه اللوحة الحالمة التي اكتست بمعالم الجمال، وهو شبه مغمض العينين.. كأنه في حلم ماتع لا يود أن يفقده!

إن الإنسان في ذاته قد افترش كل نفسه، وأثار كوامن الشجن فيها، وتغلبت إحساسات الحب. والبهجة.. فخيل إليه لحظتها أنه يحتضن بذراعيه هذه اللوحة الطبيعية من كل جوانبها.. يضمها إلى صدره، وتتكسر أجفان عينيه فيغفو على المتعة النفسية بكل ما جاش في صدره ذاك، ليغسل بقع الصدأ.. كل بقع الصدأ التي سببت الألم له وهو يعيش حياته داخل مجتمع يتجرع ذلك الصدأ!..

وفجأة..

خيل إليه أن مجموعة من الألوان الجميلة لوّنت نظراته.. فأبصر أمامه صورة ملوّنة تعطي كل تعابير الجمال من وجه فتاة أسر تطلعاته، فحدق فيها طويلاً منشدهاً، مهوماً، حالماً!

وجه دقيق.. كأن صاحبته قد أفاقت لتوِّها من نوم هنيء.. شحن بأحلام سعيدة، وعلى ذلك الوجه شعر أشقر وصفته نظراته بأنه تموجات شلال!.. وأنف صغير ليس فيه سوى رائحة العطر والشذى، و.. لم يستطع أن يندفع في التملي الطويل.. إذ أبصرها تقتعد عربة يدفعها رجل وخط الشيب فوديه، وفقد شعر رأسه ميزة الشباب.. لكن وجهه لم يفقد الوسامة، وحول العربة شاب فيه ملامح أصيلة من الفتاة، والرجل!

وطرق فكره هاجس لم يتأكد بعد!؟..

هل تكون هذه الصورة الملونة الباهرة لفتاة مقعدة.. حطم جمالها شلل قاسٍ لم يرحم معاني الرحمة، والحب، والهدوء الشائع في كل وجهها؟!

وهذا الرجل الذي داهمته الشيخوخة في مرحلة مبكرة من العمر.. هل يكون زوجها، وحبيبها، ورفيق رحلتها الأليمة في هذه الحياة؟!

والشباب الغض المتفتح على الأمل.. الذي ينضج به وجه هذا الفتى.. هل يكون شباباً سرقه من هذه التي أصبحت الحياة في نظرها مجرد غيمة على أرض جليدية.. لا تدفئُها شمس مشرقة؟!

وجاشت نفسه بالألم..

وأوغلت مشاعره تضرب في طريق رصف بالإنسانية العظيمة ورأى قطع الصورة التي مزّقتها النوائب، وهي تتكرس حول بعضها.. رأى الفتاة

المرأة، والرجل، والشاب، وقد انتحوا جانباً ظللته الشاعرية، وحنت عليه الطبيعة، وشبح ابتسامة هادئة تطوف على شفة الفتاة المرأة.. بل تنتقل بين شفتيها وشفتي رفيق رحلتها المؤلمة!

واقترب بخطواته منهم بعد أن حدس قصة رائعة للحب.. تحكي حياة قطع الصورة الممزقة المكرسة على أرض منحها الله كل الجمال.

*** 

وأفاق بعد ساعات.. سرق فيها المتعة والألم ـ معاً ـ من شفتي الرجل والمرأة، وقام يجر خطواته التي أحس أنها تود النوم بجانب هؤلاء السعداء بالألم.

ولم يعد يشعر بكل ما حوله، ومن معه من السائرين!.. لقد تاهت خواطره، وشردت به بعيداً.. بعيداً تعدو خلف ماضٍ استمع إلى تفاصيله قبل ساعات، وعاش معانيه.. وتلهث عند حاضر رآه بعينه المجردة من كل تخيل.. رآه يصور أروع قصة حب في دنيا الناس الذين تناسوا عواطفهم، وخنقوا نبضات وجدانهم، وقضمتهم تروس الأنانية، والجشع المادي والأفكار الجافة المزروعة في نفوس قحلت الإنسانية عنها!

ما أجمل الوفاء!..

قال هذا الإعجاب في نفسه، ثم أردف:

إن الوفاء لا يتأكد إلا إذا وجد التوافق، والتقارب الفكري، والالتقاء الروحي قبل التحام الأجساد.. الأجساد «مادة» ستفنى.. سيأكلها الدود.. سيموت فيها النبض الذي يمنح الحياة.. إنما الروح ستعيش حتى بعد لحد الأجساد في الرموس.. ستأكل نوازع الذات، وتقضي على نهم الإنسان..

ستحيا بدون نبض لأنها هي النبض الذي يعلم الناس كيف يحافظون على ذكراهم!

وطفرت من عينيه الدموع، وهو يسير على أرض «اليونان» التي عرفت الدموع من المطر.. قبل الدموع من عيون الناس!

ما أحوجه الآن إلى دموع المطر لتغسل من نفسه الألم. فإنها أحياناً تكون أبلغ من دموع العين، فهو يبكي الآن بدموعه وما زال الألم يعتصر أمتع مباهجه.. إنه يحس «بإنسانيته» ويتمنى لو كانت شيئاً محسوساً.. ليحضنه حتى لا يفتقدها بعد الآن..

وما زال صوتهما يملأ سمعه، وهما يقصان عليه حياتهما.. قصة حبهما، والتقاء روحيهما في روح واحدة..

صوتها: حنون هادىء.. عذب النبرات.. كأنه يصغي من خلاله إلى سمفونية ـ الدانوب الأزرق ـ للموسيقار العالمي «جوهان شتراوس» التي وضعها على نهر الدانوب!

صوته.. رصين.. عميق.. دافئ.. كأنه نبرة ضاعت من صوت التاريخ!

وأصغى إليهما بكل جوارحه.. قالا له:

ـ نحن الاثنين من ألمانيا، وقد شهدت بلدنا كلها قصتنا.. ليس لأنها فريدة نادرة الحدوث كلا.. فالحب موجود على الأرض منذ بدء الخليقة.. بل لأننا نشعر فقط أن الناس لم يحبوا بالعنف الذي أحببنا به. هكذا تصورنا أحاسيسنا نحن الاثنين السعيدين بقلبينا..

وواصل الرجل القصة قائلاً:

كنت شاباً أعمل في أحد المصانع، وأحمل نفساً طموحة تتوق دائماً إلى النجاح الذكي الشريف، ويراني الناس بوجه لم تخرمه،... وجه فيه طيوف وسامة بسيطة، لكن مشاعري الرقيقة كانت منفعلة دائماً بوسامة أخرى.. هي الطيبة، والحنان، والحب للبشر كلهم، ولست امتدح نفسي إذ بإمكانك أن تسألها الآن.. فقد عرفتني بأسباب هذه الميزات التي أحملها!

حزت على مؤهل علمي.. بجانب عملي الذي ذكرته لك، وفكر أهلي أن يزوجوني بفتاة جميلة.. لكنها كانت قبيحة الأحاسيس، معتمة الأفكار، كئيبة النفس والتصرفات.. عرفت ذلك فيها بعد أن ابتعدت عن حياتي، وقد لا تتصور مبلغ شقائي لو شاء القدر ووضعها رفيقة رحلتي في الحياة!.. يا الله.. كم أكره تلك الفترة التي قرر فيها أهلي ربطي بها، ولا أقول ربطها بي!..

بشعة.. بشعة!.. لا أتصور كيف كنت سأربط حياتي بجسد تخلت عنه الروح، أو اختلفت روحه ـ إن وجدت ـ عن روحي، وبعدت، وشطت في الاختلاف؟!

ومانعت..قلت لأهلي: لم أجد روحي بعد.

ولم يفهموا إلا أنني لا أبتهج لفكرة الزواج آنذاك، وطووا فكرتهم..

فنحن لسنا مثل بعض بشر الشرق عندكم.. نقهر العواطف، نجلد الوجدان، إن مشاعر ذلك البعض متأخرة ـ يا صديقي الغريب ـ إن الحب عندكم صناعة.. يجب أن يُصنع الحب ـ كأية قطعة، أو كأي دواء مركَّب، والحب عندنا يُخلق.. يُزرع كالبذرة تنمو في الأرض، وتسقى، وتشذب، ونبصرها بعد ذلك قد أضحت حديقة غناء.. فيها الشجيرات

الصغيرة بجانب الشجرتين الأم، وعلى أفنانها عصافير تغني دائماً!

وقاطعه «الغريب» يقول ضاحكاً:

إنك يا سيدي تتحدث عن أحاسيسكم بلسان الماضي.. إن ذكرياتك هي التي تتكلم معي.. فالحب عندكم تحول اليوم إلى مصنع.. كله آلات، ومادة، ومظهر، وشذوذ.. في الشرق ما زالت عند فواصل الزمن تقف شجرة ذات ظل.. أما هنا عندكم في كل الغرب أشجاركم بلا أرض!.. إن الحب في كل مكان لا ينعدم.. اقترب منك بهذه الحقيقة، لكن قصتك ليست مثالاً للحاضر.. دعنا نكمل القصة أولاً!

وتطلع الرجل إلى «الغريب» باسماً.. وخلد لصمت سريع، ثم قال:

وبقيت شارداً كأنني أعيش الذهول.. روحي قلقة لم تعثر بعد على توأمها، حتى التقيت بها.

بهذه اللوحة الخالدة في حياتي التي تراها الآن أمامك، وربما خيل إليك ـ في وضعها الآن ـ إنها لوحة مهشمة اختل توازنها فسقطت.. لكن قيمتها في نفسي، ووجداني ما زالت نفس القيمة التي قدرتها بها يوم رأيتها..

كان يوماً فاصلاً في حياتي.. بدد القلى، وطمس الحيرة في نفسي، وأذاب كل ألم كنت أستشعره وأنا أبحث عنها.

رأيتها فيه.. ليست أجمل مما تراها الآن، وأحسست أن الروح قد هدأت، غفت.. وهنأت عندما التقت بنصفها الآخر الضائع..

ولم أتزوجها.. برغم خفقات قلبي، واعتمال وجداني بحبها.. كنت أريد أن أمنح الصدق لاختلاجاتي تلك.. أن أعمق مفهوم الحب

والالتقاء.. أن أعرفها بنفسي، وتعرفني بنفسها، فلا أخدعها، ولا أتألم بفكرة خداعها لي.. وأردت أن أعرفها أكثر.. وأفهمها، وتفهمني.

ثم تزوجنا.. التقينا بعد أن امتزجت روحانا فأصبحنا روحاً واحدة.

لقد أتعبتك ـ يا صديقي الغريب ـ بتكرار لفظة ـ الروح لكنها عندي، وعندها اسمي ما ربط بيننا (!)

* * *

وتحولت نظرات التائه في قصة الحب هذه.. نظرات الغريب إلى وجه الفتاة المرأة، وأبصرها تضع ابتسامة عريضة مطمئنة على شفتيها، وهي ملتذة بسماع صوت زوجها يروي حياتهما.. كأنها ترتشف ذوب وجدانه بشفتيها..

وأكمل الرجل قصته قائلاً:

ورسخنا التقاءنا بهذا الحب الجديد الذي تراه يجلس معنا.. أنجبنا ابننا ونحن فرحون به.. في قمة سعادتنا.

لا تواخذني ـ يا صديقي الغريب ـ إذا قلت لك إن الأبناء عندكم في الشرق يكونون أحياناً مصدر شقاء للزوجين.. إنكم تتزوجون أحياناً بلا روح، ثم يأسركم الإنجاب، وتدورون في طاحونة شقاء وألم.. ويكون الأبناء عاملاً مرغماً يحتم عليكم حياة لا تحبونها.. غير أني ـ أنا على الأقل ـ استطعت أن أجعل من فكرة الإنجاب مرحلة جديدة في رحلة العمر الطويلة!

أرجو أن تفهمني بدون غضب.. لقد سعدنا بابننا...

وطفرت من مقلتي الرجل دمعتان حراوان لم يستطع أن يكمل عبارته . .

وصمت ثانية ليجفف دمعه . . ثم استطرد قائلاً :

وقع لها حادث أليم بعد ذلك . . عجل بزحف الشيب إلى رأسي . . وإن كانت نفسيتي ما زالت زاخرة بالشباب . . كل الشباب نحو هذه الحبيبة الغالية . .

لقد أصابها الشلل في ظرف جلله الأسى، ولم تتوقف حياتنا . . لم تفتقد حبي لها، ولم أفتقد حبها في قلبي . . زاد حبي، اشتد خوفي وتعلُّقي بها، واستمرت أيامنا الهانئة . . ويلذ لي أن أدفع عربتها الآن بيدي وحدي لأدخل البهجة إلى نفسها . . إنها تشعر بقربي من روحها قبل جسدها . . من قلبها قبل نظراتها، ولدينا عربة صغيرة نسوح فيها كل عام . . أجدد بها حياتنا . . أجعلها تحس بشبابها برغم علتها . . أحاول أن أنتشلها من قسوة الحادث والأيام، ثم نعود إلى مدينتنا وفيها نمتلك «فيلا» يشيع السرور في أرجائها أبداً .

* * *

وتنبه الغريب الذي يبكي بدموع المطر .

وأسرع في خطاه نحو مكتب المطار . . فقد حان موعد سفره إلى بلده . . إلى الشرق، وفي أضلعه حنين إلى أرضه . . يود أن يطوي الطريق ليحكي للناس في بلده قصة الحب والروح .

# عَصَا المجنون

تعود الناس أن يروه في كل يوم.. يتسكع بين متاجر «سويقه».. يقف عند أصحابها دقائق.. يمازحهم، ويضحك بأسلوب لافت للنظر والسمع، ويبدي ألواناً من الموشحات.. المغرقة في الضحك وتحت إبطه يحمل عصاً غليظة يرفعها على كل من يتعرض لأذاه، وعلى رأسه يضع «طاقية» تتخذ شكل القبة.. فيبدو.. وكأنه.. «بليباردو».. ويحلو للناس أن يداعبوه وينتزعوا منه غطاء رأسه.. أو عصاه العزيزة عليه.. فيعدو خلفهم، ويثير جلبة من الضحك بين الباعة والمشترين.

لكنه لم يقدم يوماً على ضرب إنسان بتلك العصا الثقيلة.. بل يتشجع دائماً.. بإخراج أنواع عديدة من السباب.. يلونها بفن.. ويقذف بها المتعرضين له..

ويحاول هو ـ أيضاً ـ أن يجعل من متاجر من يداعبونه.. متّكأً، ومستراحاً فيحل عليهم في منتصف النهار أو قبله يطالبهم بالشاي.. يطالبهم بسيجارة.. ومن يقابله بالعناد والنكال.. يعرض متجره لضربات متتالية من عصاه.. ضربات من الخشب «فقط» ثم يولي هارباً كأنه أسال دماء كثيرة..

وشوهد ذات صباح وهو يجري مسرعاً.. بقدميه الحافيتين دائماً،

وطاقيته في ارتفاع «الخيمة» وعصاه الغليظة.. لا يجيب نداءات إنسان، ولا يلتفت لمعترض طريقه.. حتى وصل منتهى «سويقه» ووقف عند متجر كبير.. ثم نظر في صاحبه.. نظرات طويلة. وارتفع صوته بالبكاء طويلاً.. ثم تحول البكاء إلى ضحك صاخب متواصل لحظات من الوقت.. وتلصص حتى قارب واجهة المتجر، وألقى بنفسه في داخله.. واتكأ على عصاه.. وقال لصاحب المتجر:

ـ شاهي.. بسرعة أعطني شاهي.

وجلس وعصاه في أحضانه ينتظر الشاي المطلوب.. واقترب منه صاحب المتجر وقال له:

ـ لماذا بكيت؟

ـ عندما رأيت وجهك.

ـ وهل وجهي يبكيك؟

ـ نعم.. ويضحكني أيضاً.

ـ كيف؟

ـ عندما نظرت إلى وجهك في البداية.. شاهدت فيه الطيبة والحنان.. وتذكرت أمي التي ماتت منذ سنتين، وبكيت.. ثم رأيتك تضحك عليَّ وشاهدت في ضحكتك صورة امرأة أبي.. فقد لاقيت منها العذاب الكثير.. كانت تبكيني «بباكورة».. ثم تطلب مني الضحك وأنا أبكي.. وضحكت.. كأنني ضحكت عليها..

ولماذا تحمل هذه العصا؟

ـ احتفظ بها لليوم الذي أنثرها فيه على جسدها.

ـ من هي؟

ـ المرأة التي أبكتني..

وتناول من الرجل الشاي.. ثم أطلق ضحكة عالية، وقذف بالفنجان أمام المتجر، وأطبق على عصاه بيده، وانطلق يعدو في وسط سويقة وارتطم جسده بامرأة طويلة.. فرفع العصا، وضرب بها المرأة بشدة واختفى عن الأنظار بعد أن ألقى بالمرأة على الأرض..

وأسرع وراءه أحد المشاهدين للحادثة.. فوجده يقف في زاوية من «زقاق».. يضع عصاه في فمه، ونظراته تدق التراب.. وأمسك به واقتاده إلى منطقة الشرطة.

ـ وسأله الضابط: لماذا ضربت المرأة؟

ـ قال: لأنها ضربتني كثيراً..

ـ قال الضابط: وهل تعرفها؟

ـ قال: إنها زوجة أبي.

ـ قال الضابط: وماذا عملت لك زوجة أبيك؟

ـ قال: ليس لك داع في هذا الموضوع.. إنها أمور خاصة..

ـ ولكن إذا لم تقل سأودعك السجن.

ـ وسأرسلك إلى القبر.

وأومأ الضابط برأسه إلى الجنود، واقتادوه إلى غرفة أجلسوه فيها بمفرده..

وانتقل التحقيق إلى المرأة..

سألها الضابط: هل تعرفين هذا الشاب الذي ضربك؟

ـ قالت: لا أعرفه.. ولم أصادفه قبل هذا اليوم.

ـ ولكنه يقول.. إنك زوجة أبيه؟

ـ يمكنكم أن تعرفوا عائلة الشاب وتتأكدوا، أما أنا فأنكر معرفتي وصلتي به..

وعاد الضابط إلى منطقته، والتقى هناك رجلاً يبدو عليه الإعياء، والتعب، في عينيه دمع مر، وتكلم الرجل.. قال للضابط أين الشاب «المجنون» الذي قبضتم عليه يوم أمس.

ـ قال الضابط: بعثناه إلى مستشفى المجاذيب بالطائف حتى لا يتسبب في إيذاء مزيد من الناس. أمس ضرب امرأة، وغداً يقتل طفلاً بعصاه.

ـ ولكنه مسالم، لم يتعرض بأذى لأي إنسان.. منذ عام، منذ فقد عقله.

لكنه تعرض أمس يا سيدي ـ لامرأة كانت تسير في الشارع، وضربها بعصاه الغليظة وأدعى أنها زوجة أبيه.. وبعد الآن لا يؤمن شره.

ـ وأنه ولدي يا أفندي.. أريد أن أراه.

ـ يمكنك أن تراه إذا سافرت إليه في الطائف، ولو كنت حريصاً عليه ـ لما تساهلت في تسكعه بين الأزقة والمتاجر.

ـ صدقت.. أنا لم أحافظ عليه منذ توفيت أمه..

* * *

وركب الأب أول سيارة متجهة إلى الطائف وهو ساهم لم يعد يملك

الإرادة القوية، أو التفكير السليم، ورجع بنفسه إلى سنوات طويلة مضت.. عندما أنجب أول آدمي له يراه في دنياه إذ كان يضعه في نفسه موضع الحفاوة والاعتزاز.. ورعاه بحبه.. حتى تخطى الرابعة عشرة.. حتى قضت الأم نحبها وهي على سرير الولادة..

وتزوج بعد عام. هذه المرأة.. تزوجها وهي «ثيب» عرفت قبله رجلاً، وطلقت منه..

وجاءت نقمة على الشاب المتفتح للحياة.. أصلته جحيم الحياة.. استعملت معه أساليب الجور، والتخويف حتى فقد عقله.. خرج إلى الشارع حافياً.. بعد أن سحب من يدها العصا التي كانت تضربه بها، وهام على وجهه..

وتنبه الأب.. وهو يحس بحرارة الدمعتين على وجهه. أبصر أمامه الحقول الزاهية، والأشجار الخضراء.. ومن خلالها.. كان يتخيل بداية العمر.. فورة الشباب، وحلاوته.. وتذوق طعم الدمعتين المنحدرتين بمرارة.. وأسرع نحو «مستشفى المجاذيب».. نحو النهاية.

# الظمـــــأ!

ـ الحياة تافهة في الضعف

الحياة قاسية في القوة. .

الحياة نبيلة. . بالحب!

ـ تجف الأرض. . تجف!

تتشقق عطشاً، ونداء. .

تتفلح الأرض، والخطوات فوقها تدك العطش. .

تدك النداء، وينبجس الظمأ كالنبع الذي ينوح!

# الإهــــداء

إلى الإنسَانة العظيمة بمواقفهَا معي في لحظات العَتمة، وفي وَقَفات الإرَادة، وفي ثَواني الابتسامة..

إلى التي بَنَتْ مَعي الأهَم من عُمري، وحَافظت عَلى حِراسَة الابتسَام فوق شفتي.. مَا أمكنهَا.

إلى شريكة حيَاتي:

أهدي هَذه الضّبابة من رُوحي ومعَايشَتي!!

**عبد اللَّه**

# لا شيء.. كل شيء

**ـ أصحاب القلوب الكبيرة.. يموتون بحزن بسيط!!**

الواحدة بعد منتصف الليل..

تتعتق مدينة «جدة» داخل هذا السكون الدافئ..

ينتصب الليل هذه اللحظة شمعة تسهر وحدها.. تقطر الظلال وتقطر الأنفاس، وتقطر خطوات تلتهم الدرب وتضيع في كثافة الظلال!

لا شيء.. هو كل شيء!!

سقطت هذه العبارة من بين شفتيه. لا.. بل من بين فكيه. كان يجذ أسنانه ثم يبصق أمامه بقرف.. يبصق كل الساعات التي طمرت أنقاضاً تحت هذه الساعة.. هذه اللحظة: الواحدة بعد منتصف الليل!

من حوله كانت العربات الفارهة، وسيارات الأجرة تعدو، وتفر بالليل، وبالهدوء، وبخطواته الرتيبة فوق طبقة الإسفلت التي انعكست عليها أضواء الليل فبدت كالآل!

ابتلع ابتسامة ساخرة.. وهمس:

ـ أنت أيتها الراحة... مثل طبقة الإسفلت فوق شوارع «جدة» تفترشين نفوسنا، وتمر فوقك أشياؤنا راكضة.. ثم لا تلبث تلك الأشياء

أن تهتز فوق نتوءاتك وتسقط أو تتخلخل!

تشبيه سخيف، وقاصر!

ـ أعرف ذلك.. لكن أقرع كل ليلة جدار الزمن، فلا يأتيني صدى!

وصرخت في سمعه صفارة الحارس الليلي وارتجف.

ـ ها هي حالتي النفسية.. تماماً كما طقس مدينة «جدة».. يأتي شتاؤها كومضة الفلاش. بمجرد أن تهدأ نفسيتي وأبحث لها عن الدفء.. يخترقها الصيف.. تتحول إلى حرائق. ولفح مستمر من هجير قائظ!!

كل الأمثلة رديئة. ما أتعس الذين يبحثون لأفكارهم عن أمثلة!!

الشوارع خالية.. حتى الإضاءة فيها ناعسة.

وتطلَّع أمامه يحادث هذا الشارع الطويل الجميل.. شارع «المطار». قبل أسبوع كان يفكر أن يذهب إلى مكتب الخطوط ليشتري تذكرة.. يسافر بها إلى القاهرة. بعد أسبوعين سيقفل أدراج مكتبه، ويودع زملاءه ليستمتع بشهر كامل!!

ـ هأ.. هأ.. هأ. قال إجازة.. قال!!

يا لقرارة البئر!!

سيذهب «المرتب» كله في الرحلة، والشهر القادم لن يدفع إيجار الشقة، وتقسيط السيارة. لعنة الله على كل ماركات السيارات.. لم تكمل العام عنده إلا وبدأت تخرم جيبه. وهو إما ذاهب إلى شركة السيارة، أو عائد منها. وهذه الليلة بدون سيارة، فهي في الورشة، لكن المشي في هذا الوقت ممتع.. إنه يسمع صوت نفسه. وقع أقدامه هذه هي متاعبه، وأحلامه، وتحدياته، وانفعالاته، وراحته!

يوم السبت قالت له أمه: لقد تعبت من هذا البيت. أنت تعمل إلى منتصف الليل وتعود تطلب عشاء، وأخوك يصحو من أذان الفجر ويطلب إفطاراً ليذهب إلى المدرسة، وأبوك مات من سنوات مرتاحاً بالموت.. مخلفاً لي كل العذاب، وعليك أن تتزوج.. لتأتي لي بمن يساعدني في البيت، أو على الأقل ليؤنسني!!

ـ تؤنسها!.. ها.. ستحيلان البيت إلى فريقين من فرق كرة القدم.. فأما أن أكون مع أمي، أو أكون مع زوجتي. وإذا اتحد الفريقان فسيقومان بمباراة المنتخب!!

ـ بلاش وجع دماغ. البنت هنا تطلب تأميم زوجها، وأهلها يطلبون شهر إفلاسه بعد الزواج!

ياه.. الواحد يسرح بشكل سريع.. من الإجازة.. إلى الزواج.. إلى.. إلى السيد المحترم رئيس الإدارة.. يطلب منك أن تعمل حتى في البيت، وفي نهاية الشهر يقدم فيك شكوى إلى رئيسه الأعلى!!

يا الله.. كل شيء.. هو لا شيء!!

حتى «رشا».. نعم حتى الأنثى التي أحبها تريد أن تختصر الزمان بالغضب!

إن الناس اليوم يختصرون الزمان بالغضب، ولذلك ارتفعت نسبة الموت بالجلطة وبانسداد الشرايين. العلماء يقولون إنه الغضب، وأنا أقول لـ «رشا» لا تحبيني وأنت غاضبة.. لكنها تريد أن تختصر الزمان!

حتى «رشا» قالت لي أمس: أنت رجل لا مبالٍ. أنت تحبني عندما

تراني، وتنساني عندما أغيب عن رؤيتك. لقد أقفلت السماعة في وجهي بعد أن قالت:

ـ أثبت لي أنك لا تحب غيري لأعطيك كل حبي!

أثبت لها.. ها!!

قلت لها: لا أستطيع أن أثبت لك مادياً، وبشكل ملموس كيف أنني أحبك بجنون.. كذلك لا تستطيعين أنت أن تثبتي لي أنني أخونك لتبرير غيابك!

في الحب.. لا إثبات وإنما إحساس.

مرت ساعات النهار والليل، و«رشا» تنتظر الإثبات، وأنا أنتظر النفي!

كيف ننفي أحاسيسنا عنا.. كيف نشردها في اللامبالاة، وفي الإسقاط؟!

«رشا» كل شيء.. وهي تبحث عن اللاشيء!

والعمر كل شيء.. ونهدره في اللاشيء!

فكرت أن أتزوجها. هذا شيء صعب، فكيف أحولها من حركة إلى «لزقة»؟!

النساء يفكرن بجاذبيتهن.. أما الرجال فإن أفكارهم تتعطل عندما يفكر النساء!!

* * *

الليل جذاب.. ما أروع أن تكون فيه وحدك لا مبالياً!

لماذا نلغي بعض أفكارنا؟!

ليس لأننا استغنينا عنها، أو لأننا فشلنا في تجسيدها. نلغيها لأنها تضيع في زحمة أفكار جديدة!

هذه نكتة تعيسة. لكن أفكارنا أحياناً تبدو أكثر تعاسة. مثلاً.. ماذا لو جاءت سيارة مسرعة تنهب الأرض هذه اللحظة، وطوتني بين عجلاتها؟!

حادثة.. وما أكثر الذين تدهسهم أفكارهم فيكون ألمهم أو مصابهم أفدح من دهس السيارة ومن الموت!

إنني أسير الآن.. وأفكاري تدهمني،..

وأخرج لساني للصمت، وللقمر، وللأسفلت المكسر، وللسيارات الفارهة المنطلقة بجنون.

لا فرق بين أن أخرج لها لساني وأنا أمشي، أو أخرج لها لساني وأنا فوق «نقالة» الإسعاف.. والوجوه تتطلع إلي قائلة: مات تحت عجلات سيارة!

لكن عندي قضية هامة..

إنني لا أفكر كيف أحيا.. بل كيف سأموت؟!

هل أنا مختل الشعور؟!.. إنني فقط مختل الجفنين.. إن أهدابي لا تني عن الرقص، وهكذا الناس عندما يتطلعون في انتظار المفاجأة..

قضيتي هي المفاجأة!!

عمري: ثلاثون عاماً.. وهي أعوام حافلة بالمفاجآت. مات أبي مفاجأة، وتركت دراستي مفاجأة، واشتغلت مفاجأة، وأحببت «رشا» مفاجأة، وعندما تنتهي ساعة من يومي.. أحس بعد انتهائها بمفاجأة.. بأن الساعة ذهبت وعملت فيها شيئاً لا أدريه، أو لا أريده أو لا أنتظره!

هذه خيابة النجابة!!

أردت أن أكون نجيباً.. فطارت النقطة من الحرف الثاني.. فاستمرت حياتي نحيباً. أحياناً أبكي لأنني ما بكيت خلال ساعات النهار وإذا بكيت ضحكت لأنني كنت أفكر في شيء.. هو لا شيء، فبعد الدموع يهون المصاب!

وكل شيء.. هو لا شيء!!

هل أنا أحكي حياتي؟!

أبداً.. إنني أحاول أن أخرج من بين زحام الناس، وأناديكم قائلاً:

ـ تعالوا.. لتشاهدوا معي ما أراه!

أكيد أننا نرى نفس الشيء بملايين العدسات وبألوان من الفهم!

رئيسي في العمل أعطيه الجريدة اليومية، وأشير له إلى خبر مكتوب فيها، ويلتفت إلي قائلاً:

ـ وماذا يعني؟! الاعتداءات الإسرائيلية، الرسائل الملغومة، الطائرات المختطفة. القنابل فوق لبنان. العرب يعقدون الاجتماعات. اليهود يقيمون مستعمرات. جديد نيكسون يراقص «باتي» ابتهاجاً بإعادة انتخابه. ما الجديد في الصحف؟!

وأتقلص، وأنزوي في ركن الغرفة أشعر بالسعادة.. لأنني اكتشفت إنساناً آخر مثلي لا مبالياً!

أمي في البيت توسع حدقتي عينيها وتقول لي: بلاش تبذير ومسخرة. فلوسك طائرة في الصياعة، والهدايا التي تقدمها لعروس المستقبل، روح السوق وشوف كم صار سعر السكر واشتر لنا أرزاً قبل أن يرتفع سعره،

وهات معاك درزن صابون للغسيل، وروح سدد إيجار الشقة. أنت ولد مفلوت على حل شعرك!

و «أخضرها» أقبلها فوق جبينها وربت على كتفيها، وأذهب إلى السوق لابتاع زجاجة رائحة أقدمها لـ «رشا»!

«رشا» لا تريد هدايا.. إنها في كل مرة تقبلني فيها، وتهمس في أذني بعد ـ ديالوج ـ كنت مع مين، وعرفت مين، وتقول:

ـ أنا أريدك أنت وحدك. أريد الإنسان الذي يفكر في كل وقته، ويحلم معي بالمستقبل، أنت حتى الآن لم تشتر قطعة أرض من أجل أن تبني عليها «فيلا» تملكها!

مسخرة حياة.. لا أروع منها، ولا شيء يقرف مثلها!!

غداً سأشتري «درزن» صابون لأمي!

غداً ـ أيضاً ـ سأرى «رشا» رغم أنها أقفلت الخط في وجهي. لماذا نصدع رؤوسنا بالمناظرات، والمقايسات!!

غداً يوم جديد اسمه: طز!.. إنه كباقي الأيام تتأخر بنا وهي تتقدم!!

* * *

هذا باب «الشقة» سأدخل فيه المفتاح بهدوء، وأتسلل لئلا تصحو أمي، وتسمعني الموشح المعتاد. فلا بد أنها نامت متعبة بعد أن قرأت «آية الكرسي» مائة مرة كعادتها كل ليلة!

غرفة أمي مضيئة.. ماذا حدث؟!

هرولت فزعاً.. أنتظر المفاجأة الأخيرة في نهاية هذا اليوم!

ــ أمي.. أمي.

ووجدتها تغط في نومها، وبين أصابعها مسبحتها «الألفية». لقد نامت قبل أن تطفئ النور!

وصعدت زفرة ارتياح. لا أريد أن تموت أمي.. حتى أستطيع أن أعود إلى البيت كل ليلة. إنها كل شيء.. في اللاشيء!

إنها محاصرة بمختلف الأمراض.. لكنني أريدها حتى وهي تتألم. المهم ألا يختفي صوتها،

هل هذا هو كل شيء!!

إنها تقول لي: أريدك أن تهتم بشيء واحد ولو مرة واحدة، لأشعر أن لك هدفاً. أن حياتك ذات معنى!

ما أطيبك يا أمي. هل ترضين أن تكوني معنى حياتي؟!

ستعيد صوتها وهي تجادلني بابتسامة وقور:

ـ يا ولد.. طيب و «رشا»؟!

رشا حياتي، وأنت «معنى» حياتي!

وتقول لي: شوفوا الولد كيف يتكلم بخبث!

أطفأت نور الغرفة، وتسللت إلى الليل. لا أدري.. ما الذي جر خطواتي من جديد إلى الشوارع المضيئة.. الساكنة؟!

«رشا» تملأ صدري.. كأنها ضفاف تمدني بالنبض..

أمي.. تحتل حدقتي.. كأنها بصر يهدي خطواتي..

ما أروع أن نحب!

عندما نحب لا نبالي. كنت أقول هذا لـ «رشا»، وكانت تفهم العبارة على أنني لا أبالي بحبها!

وعندما نحب من لا يفهم؟!

كانت تقول لي لا تشتمني!!

يكاد الصباح أن يبزغ، هذه ليلة بلا خاتمة إنها غنية بكل أفكاري هذه التي جرحتني.. إنها بكل شيء مليئة في هذا العالم المتناهي في سباته.. في اللاشيء!

سيكون النوم ـ الآن ـ مطلباً غالياً.. بعد أربع ساعات سأذهب إلى العمل وإلا اقتطعوا من مرتبي في مقابل اللامبالاة!

سأغفو الآن قليلاً. إن أمي لن تتركني، إنها توقظني قبل موعد العمل بنصف ساعة. تحت جفني عالم رحب من الأحلام، وسوف أغازل أحلامي حتى يأخذني النوم!

* * *

باب غرفته يكاد يخلع.. ما هذا الطرق العنيف؟!

إنه صوت الولد العفريب الذاهب إلى المدرسة.. إنه يناديه بفزع:

ـ أخي.. أخي افتح.. استيقظ!

وهب مذعوراً يفتح الباب..

ـ ما الذي حدث؟!

ـ تعال بسرعة.. انظر. لقد جئت أوقظ أمي لتعد لي إفطاري فوجدتها لا تجيب.. أمنا ماتت.. ماتت!!

ماتت؟؟!

بعد ساعة.. الطبيب يقول: ماتت بالسكتة القلبية. كان قلبها كبيراً، ولذلك ماتت.

أصحاب القلوب الكبيرة يموتون بحزن بسيط!!

هل تنتهي الأحلام هكذا؟!

هل هذه بداية الحياة.. أم نهايتها؟!

ماتت.. وكل شيء.. هو لا شيء؟!

ستكون الحياة حزناً بسيطاً.. بسيطاً!!

# الإنسان . . الدلو

**ـ إن البدايات لا تبدأ من أسفل الإنسان، وإنما من أعلاه!!**

ـ نام الساعات الأخيرة من النهار . . .

وصحا مع حلول المساء . .

كانت ليلة صيف . . وكل ما في نفسه

وما في إحساسه، وما في ذهنه قد

أصابه «الصيف» . . كل ما فيه يرشح ويخنقه!! . .

كانت ليلة صيف . . بلا بداية، فالبدايات مفقودة في عمره . . متغربة في اكتشافاته. لقد ولدته أمه «سباعياً» فلم تكن ولادته بداية . . لأن كل العائلة كانت تنتظر قدوم الجنين في الشهر التاسع . . كانوا يريدون بنتاً وجاء ولداً. ويتوالى ضياع البدايات في حياته . . وفي رأسه، واقتحموه من حوله، وكل الناس تجمعوا في رأسه، واقتحموا قلبه وهدموه!!

ولا أحد أمامه . . ولا المستقبل، فهو لم يتحصل على شهادة تعطيه جواز المرور للمناصب الرفيعة، والمجتمعات الكبيرة، والفتاة التي تبني له بيتاً . .

أمامه الآن فقط: منفضة السجاير . . وخيل إليه أن وجدانه قد سقط في

المنفضة.. تحول عقباً، ورماداً!!

لا أحد يسأله.. ولا يجد أحداً يجيبه، أو يردّ عليه..

وأغفى قليلاً.. ولكن هاجساً من داخله انتصب يسأله:

ـ من أنت؟!

حاول أن يجيب. تلفت حواليه، وزم شفتيه:

ـ لا لزوم لتعرف من أنا.. إذا كنت أنا لا أعرف!

ـ ولكنك تعرف وتهرب!!

ـ هل تصر أن أشق لك عقلي من منتصفه، وأطعن صدري؟!

ـ إذا فعلت ذلك فسوف ترتاح قليلاً. إنني جئت لأريحك!!

ـ يريحيني.. أيها المعتوه. إن أكثر ما يعذبنا هو ما في نفوسنا!!

ـ إذن تحدث ليبلغ بك التعب منتهاه.. أليس الألم العميق هو راحة العذاب؟!

ـ أنا نيرون.. لقد أحرقت روما، أحرقها في جنوني، والسبب تريستا.

ـ من تريستا هذه؟!

ـ أية امرأة تعشق مجنوناً، أو يحبها رجل مرهف وحساس جداً.

... ليس العذاب كله امرأة!

ـ ولكن دائماً تكون المرأة هي كل العذاب. هل تعرف تشارلز مايسون؟..

إنه قتل كل امرأة في شخص «شارون تيت».. أعرف أنه مريض

بالقسوة.. ويعاني من عاهة الفقر في عواطفه. إنه ابن الحالة الجنسية، وله شعار مضحك أبله يقوله: يا نساء العالم.. امتنعن عن إضعاف الرجال!

ـ ولكن الحياة.. ليست كلها جنس!

الحياة تتحرك، وتمشي وتبدأ، وتنتهي... والجنس يربط كل ذلك.

ـ هذا خطأ. الجنس يكون الاستلقاء المؤقت كفواصل للراحة بعد التعب. هناك حياتك.. آمالك.. مستقبلك.. حقائقك!

ـ هذه فلسفة الرجل العنين، والمرأة الباردة.. ألا تشاهد ما يجري في العالم؟!.. تصور ما الذي يمكن أن تكون فيه صورة الحياة لو كان الرجل وحده أو المرأة وحدها؟!

ـ إن البدايات لا تبدأ من أسفل الإنسان، وإنما من أعلاه.. من رأسه الذي يفكر، ومن قلبه الذي يحب، ولكنك رجل غريب!

ـ صدقت.. إنني أتأمل هذا العالم وأشعر أنني فيه رجل غريب.. إنني فأر صغير في خزينة من الكريستال.

ـ أنت تشتم نفسك.

ـ لا.. إنني أشتم الكريستال الزائف.. فكل مغريات الحياة مثيرة ومغرية من الخارج، ولكنها ليست أصيلة.. إنها هشة.. زينة. إن خيال الإنسان قد تسوس.. ولكنه يمزح، ويطلق النكتة، ويطوح بساقيه مقهقهاً كما معتوه!

ـ هل تعرف الذي قتل طفلة لم تتخط العامين؟!

ـ إنه شخص لم ينجب أطفالاً.. إنه ما زال الطفل الذي لم يخرج من سذاجة الرغبة واحتقارها أيضاً!!

ـ هل أصغيت إلى فنان يقف وهو يعزف على آلته الموسيقية وبكيت؟!

ـ كان يقف في شارع طويل، وحوله تجمع النسوة. . ولكنه عندما توقف عن العزف قذفته بالأحذية، وقال الرجال: هذا ناشيء!!

ـ هل كان يشحذ نقوداً؟!

ـ أبداً. . كان يشحذ عاطفة، ولقد حزن عندما علم أنها لا تباع، وإنما تعطى، وأن الناس يأخذون المتعة منك ويقذفونك بالطماطم وينسونك للأبد!

ـ ومن طعنك. . لتقول ذلك؟!

ـ إنه خيالي. لقد جاملته، فالتف من ورائي وطعنني، ولكني لم أمت بعد. ألم أقل لك إن الحياة في المنتصف فقط!!

ـ وما الحياة بعد طعنتك هذه؟!

ـ مائدة مليئة بالطعام الطازج والبارد. . وقد منعني الطبيب أن أتناول الطازج منها!

ـ وما هو تخصص طبيبك؟!

ـ زوجة !! قالت لي ذات مساء: خذ «المكوى» وأصلحها. كانت هوايتها أن تكوي ملابسي النظيفة، وسلوكي النظيف أيضاً. . وتدعني وحدي أكوي ملابسي المتسخة، وتراكماتي أيضاً!!

ـ هل تشاهد أفلام السينما؟!

ـ نادراً. . فنحن أحياناً نرغب أن نجسد الحياة في شيء. إن جزءاً واحداً هو كل الأجزاء؟!

ـ وبماذا اقتنعت؟!

ـ أن لا أقتنع بشيء؟!

ـ وكيف تملأ حياتك؟!

ـ حياتي؟!.. إنها كالدلو.. أمتلئ وأفرغ محتواي في أرض غريبة وبعيدة، وأعود إلى بئري أتدلى.

ـ إلى اللقاء

ـ إن أمكن!!

# الإجـــــازة

**ـ نحن ننشغل بالتفكير في الراحة.. ننشغل بالبسمة، وبالخدعة المقبولة.. ونعجز أن نقلد العجائز في النوم المبكر!!**

ـ ١ ـ

ـ جوال.. تأخذه الطرقات.. يبعده الزحام عن «التفنيط».

تساقطي ـ إذن ـ أيتها الأقفال المصنوعة من التعب. وخرس الصمت. والوحدة!

جوال.. الليل مليء بالناس.. مزدحم بالأضواء. ولكن هذا الامتلاء.. هذا الزحام في الصدور والطنين الداخلي للنفس. ترتمي نهاية الليل عند ابتدائه.

يزم الشفتين.. يصفر يضغط على البنزين، فكل هذا الازدحام في الشوارع هو سيارات.. صخب.. قلق، ولكن النفوس فارغة.

تمتد أصابع يده إلى راديو السيارة.. يعجبه صوت المغنية الفرنسية التي لا يعرف اسمها.. يردد مع صوتها أغنية قصيرة تقول:

ـ «لا ندري متى نغني..

لأننا عندما نشعر بالسعادة لا نسأل»!!

اليوم.. هو أول أيام الإجازة.

هكذا يفعل الناس حينما يؤجلون أعمالهم، ويبتعدون عن كدهم، ويهربون إلى الراحة من تعب يومي متواصل!

لماذا يحتاج المرء دائماً إلى فترة من الكسل... من الهروب والاختباء؟! الصدى لا يجيب، ولكنه يحدث نفسه، ويبتسم بشفاه البلهاء.. سأم...

ـ ايه... إلى أين؟!

ما زال يحادث نفسه كالمعتوه:

ـ وهل كل هؤلاء الذين يمشون من حولي وأمامي وخلفي عقلاء.. سعداء؟!

ما زال يتلفت، وقدمه تضغط على البنزين..

ـ لا بأس.. كل الناس مثلي!!

انعطف بسيارته إلى عدة أزقة في «العمارية».. بعد أن توقف أمام «فترينات» الشاورما.

واشترى سندوشتين!

ـ إنني جائع. المعدة بسيط جوعها أو هووه. والعقل الجائع، والقلب الجائع؟! يا ولد كل شيء الآن في إجازة!

أمام بيت قديم من دور واحد توقف. هذه «دار»! سينما في الهواء الطلق. إنه يشاهد فيلمين الآن بعشرين ريالاً. قبل عام كان يدفع عشرة

ريالات فقط. معليش.. كل شيء ارتفع سعره، فلا أقل من أن يرتفع سعر المتعة.

دخل إلى «حوش» كبير رصت فيه حتى آخره الكراسي الحديد الصدئة..

ألوان من الناس: ينطلون على ثوب.. على فوطة.. على حذاء زنوبة صوت «طرقعة» الفصفص.. فلا بد أن يعمل الفم.. كل هؤلاء جاؤوا لرؤية امرأة.. لا تهمهم القصة.. لا يهمهم الحوار في الفيلم. المتعة أصبحت رخيصة يا خلق الله!

ـ السيجارة؟!

ـ ها؟!.. لا متشكر.. إنني لا أدخن.

تنبه إلى هذا الصوت بجانبه. صاحبه رجل تخطى الخمسين، ولكنه يبحث عن المتعة المتحركة فوق الجدار!

ـ الأطباء يقولون: حافظوا على صحتكم لتطول أعماركم. الطب يقول: إن التدخين يسبب السرطان يا سيدي.. الأعمار بيد الله، وإلا أيه يا أخ؟!

ـ ها!!. صحيح صحيح.

يمد يده إلى جاره وهو يبتسم بشفاه البلهاء:

ـ طيب. حيث كده هات سيجارة!

ـ ولكنك لا تدخن كما تقول؟!

ـ واحدة لا تقتل. في كل شيء يا أخي تأكد أن واحدة لا تقتل.

سيجارة واحدة لا تقتل. امرأة واحدة لا تقتل. تجربة واحدة لا تقتل. كحة واحدة لا تقتل!

ـ يبدو أنك سعيد؟!

ـ السعادة نسبية يا أخ.

ـ نسبية يعني إيه؟!

ـ آه.. نسبية بنت أم نسبية!

ـ لازم دا اسم بطلة الفيلم؟!

ـ لا. هات سيجارة.

ـ هادي السيجارة من النوع الإنجليزي الفاخر.

ـ يمكن علشان كده باردة. سيجارة لها طعم التبغ ورائحته ولونه، ولكنها مصنوعة من ورق يسمى «السيلولوز» ويمكن للمدمن عليها أن يستهلك منها الكثير دون أن تضر بصحته.

ـ لكن السجائر الإنجليزي حارة.. اللي تقول عليها دي «الكنت»!

ـ شفت إنك مدمن. علم ما شاء الله.. علم!

«يهمس لنفسه: ليت هذا العلم في شيء مهم؟!!

ـ ماذا قلت؟!

ـ ها.. لا أبداً.. باقول الدنيا حر، وأتأخروا في عرض الفيلم الأول.

صمت جديد يلفهما رغم الضجيج الذي يملأ «الحوش»..

أطفئت الأنوار، وبدأ عرض مقدمة الفيلم..

ضاعت حلقات الدخان في مساحة عريضة غير مرئية. فضاعت نظراته في مشاهد الفيلم.

ـ ٢ ـ

كأنه استيقظ.. كان في جولة سياحية لمدينة هونولولو. المرأة هي المرأة. والذي يتغير هو الفستان الموضة.. حتى ولو كانت المرأة تتحرك فوق الجدار!!

الساعة بلغت الثانية بعد منتصف الليل. يقترب بسيارته من الشاطئ. لو كانت عنده زوجة وأولاد لما استمر في هذه «الصرمحة»، ولكن.. لو كان «بعلاً» لما استمتع بهذه الحرية!

قدماه تمضيان به فوق رصيف الشاطئ..

الصمت يلف الليل والمكان والسماء.. لا أحد معه، ولا أحد له.. وكل الحياة في صدره.

نحن ننشغل بالتفكير في الراحة. ننشغل بالبسمة، والخدعة المقبولة، ونعجز أن نقلد العجائز في النوم المبكر!

سيارة صغيرة تطير فوق الأسفلت.. كفراتها «تفحط» الطريق..

ـ يا ساتر.. إلى أين يذهب هذا المخلوق بكل هذه السرعة؟!

حتى عندما يبحث الناس عن الراحة.. يرتضون ويضيعون. ضاع في الظلام والصمت.

الدنيا بدأت تبرد. رغم الرطوبة الشديدة هو يشعر بالارتياح..

دخل سيارته وأقفل الزجاج..

إنه يجرب أن ينام وهو جالس.. تماماً كما جرب أن ينظر إلى المرأة، وهي صورة متحركة على الجدار!!

ـ ٣ ـ

خرج من المطعم. الشمس حارة والناس يهربون إلى بيوتهم للاستمتاع بالقيلولة.

فراغ يا أحمد يا ولد عبد الصمد.. فراغ!!

أطبقت أصابع يده على الجريدة. حرب بيروت لم تهدأ. الفتنة كالنار في الهشيم. العالم العربي هو الهشيم.. من يشعل النار؟!

ـ يا شيخ.. خلاص سئمنا وأنا مالي؟!

يقرأ: الموت حصد كل شيء. الألوان أتحدت في اللون الأحمر القاني.. قاني!

فتاة لبنانية.. الموت حصد أسرتها كلها في «الشياح».. ذهبت تجري تبحث عن حبيبها.. خطيبها الذي كانت ستزف إليه قبل عام ونصف.. يوم اشتعلت الحرب الأهلية.. إنه الآن يضع حول إصبعه بقايا رصاصة بدلاً من الدبلة. الآن لم تجده.. لقد قتل!

واصلت ركضها.. انضمت إلى المقاتلين.. تحولت إلى فدائية. لم يبق شيء قطُّ.. قطُّ.

ـ يا شيخ.. أنا في إجازة سآخذ فنجاناً من القهوة!

بقي وحده. جلس يحدق في حفافي الفنجان. تذكر. قام إلى جهاز التسجيل وأداره:

ـ و «طريقك يا ولدي مسدود مسدود»!!. . هذا «عبحليم» بيغني!

ـ طيب ما أنا عارف. عمي يرفض أن يزوجني «هالة» ابنته لأنه ليس عندي فيلا امتلكها، ليس عندي سوى عشرة آلاف، وهو يريد أن تنام ابنته في غرفة نوم قيمتها ثلاثون ألفاً!! يغور الزواج، وعمي، وهالة، وكمان تغور غرفة النوم!

«بصرت ونجمت كثيراً. .

وأميرة قلبك يا ولدي في قصر مرصود. . مرصود»!!

قليلاً من «اللمة» في عينيه في صدره، أو حتى في يديه. اندلقت قطرات من القهوة على بيجامته.

ـ «أنت يا ولد فاشل. . ما أنت قادر تلم لك قرش. . كيف أزوجك بنتي»؟!

ـ يغور الزواج يا عمي. . ما بدي بنتك. . قرص عليها العيش. تغور قارئة الفنجان. ودي نومة. . القيلولة حلوة!!

يحدق في الجدار:

ـ المرأة هي المرأة. . سواء كانت تمشي، أو فوق سرير. . أو على الجدار!!

ـ ٤ ـ

الإجازة تسكع. . فرجة على الناس، وفرجة الناس عليك. .

يفكر. . ما الذي يفعله في الإجازة. يفكر أن يذهب إلى «اللونابار»!

ـ عيب يا ولد تطلع «الدويخة» وتنزل ويضحكوا الناس عليك. طيب فين أروح.. فين؟!

هذا «استريو». ألوان. شيء أحمر، وأصفر، وموف، وصراخ توم جونز مع شكوكو.. مع وردة. مع محمد عبده وطلال..

ـ ندخل يا ولد.. وراح نخسر إيه؟.. يمكن كم ريال قيمة شريط.. هو شيء جديد!

ـ تؤمر.. تحب الأغاني الجديدة لطلال.. عندنا شريط لأغاني المطربة سعاد توفيق!

قال له البائع في الاستريو هذه الدعاية!

ـ هس!

ـ حاضر.. بس والله صوتها غريب وحلو!

ـ تطلع مين دي سعاد توفيق مطربة...!!

ـ كله يا أستاذ.. بس أنت تطلب.

ـ أبغي شريط مسجل عليه.. مسجل عليه ولا شيء!

ـ آه.. أنت دمك خفيف تقصد شريط خام؟!

ـ هوا بقى شيء خام يا أخ؟!

ـ طيب طلبك إيه.. وإلا أنت طفشان بس؟!

ـ لا.. عندي إجازة. أبغي شريط لموسيقى قديمة اسمها: شهرزاد.. لكارساكوف!

ـ كارسا إيه.. مين دا؟!

ـ دا كان فاتح استريو.. أنت ما تعرف كار ساكوف؟.. دا يا سيدي منلوجست!

ـ ها.. لا متأسفين. عندنا شريط مسجل عليه مدرسة المشاغبين!

ـ يعني هو فضل أحد ما هو مشاغب؟.. سلامو عليكم!

ـ ٥ ـ

الساعة الآن الحادية عشرة والنصف. موجز أنباء التليفزيون.

ـ خلاص.. انتهت السهرة. ثم تنام!

قام يتجول في الشقة الصغيرة. علبة سردين ملقاة في ركن الغرفة. جريدة فيها بقايا خبز. ثوب متسخ ومهمل فوق السرير.

قذف بالثوب إلى الأرض.. أمسك بديوان شعر قديم اشتراه ذات يوم من بيروت قبل عامين.. إنه لم يفكر في شرائه.. لكن «سعاد» الفتاة التي تعرف عليها هناك نصحته أن يشتري هذا الديوان.

تحولت «سعاد» إلى فتاة جدار... مجرد صورة مرسومة في ذهنه.. ذهنه هو الجدار!

ـ من سنتين يا ولد يا أحمد ولم تقرأ هذا الكتاب.. خيانة إيه دي؟!

أمسك الديوان يقلبه. اسمه: معزوفة لدرويش متجول.. يضحك:

ـ والله ما درويش إلا أنا نشوف الدرويش المتجول.. صحيح متجول زي حضرتي؟!

يستعرض الصفحات. يتوقف قليلاً وهو يقرأ بصوت مرتفع:

ـ «فأنا جسد.. حجر شيء عبر الشارع.

جزر غرقى في قاع البحر.

حريق في الزمن الضائع»!!

أخرج لسانه. اغمض عينيه والكتاب على وجهه.. يريد أن يفعل كما العجائز. يريد أن يحلم بصور مرت بالأمس.

الأمس، واليوم، وغداً.. الشبه واحد.. لا شيء يتغير!

# الصّـــــدأ

**إلى أنثى ما زالت تذاكر عواطفها!**

**ـ ١ ـ**

أحياناً تود أن تغمض صوتها.. تحسب أن رؤيتها في صوتها!

إنها تبدأ الكلام...

بداياتها مغرية.. ليندفع المصغى إليها فيتكلم..

صوتها.. نافورة أنوثة..

هذه اللحظة تصمت فجأة، وتترك المستمع إليها يتكلم!

تدور مع نبرة الصوت.. تطوف حول كل الصور في خيالها..

حول كل الأماني التي تحلم بها وتفكر.. والمصغي إليها ما زال يتكلم!

ما أحلى الصمت فجأة في أذن من تكلمه.. لحظتها إما أن يظن بك مللاً ورفضاً لحديثه. إما أن يجذب شفته السفلى إلى منحدر، ويثق أن حديثه لامس هوى ووقعاً. تلك طريقتها في الكلام، وفي الإصغاء.. كأنها تحاصر كل صورها وأمانيها وتخفيها عن الناس لئلا يكتشفوا ما في داخلها!!

ولكن.. ما الذي يكون في داخلها؟!!

طرقات خفيفة على باب غرفتها. ونهضت من فوق سريرها تفتح الباب.

هذا أبوها يسد فتحة الباب.. طويلاً عريضاً.. هادىء القسمات.. لا يفقد ابتسامته أمامها أبداً مهما كان رأيه فيها:

ـ ما زلت تذاكرين؟!

ـ أبداً.. خلصت مذاكرة من ساعة!

ـ الوقت بعد منتصف الليل.. ألا ترغبين في النوم؟! وراءك يوم مبكر للصحو، والدراسة!

ـ ما الفرق؟! المهم أن لا نفقد حيوية أجسامنا لتكون قادرة على الحركة، ونكون نحن قادرين على الانتباه!

ـ عدنا لآرائك المتوترة؟. أحياناً أراك كعجوز شاخت كل أشيائها، وأحياناً أراك كطفلة تلهو لتحطم كل شيء!

ـ الهواء بارد!!

ـ ويش هو؟!

ـ أصابعنا تجرح وجوهنا أحياناً!

ـ لم أفهم؟!

ـ الليلة وضعت كفي داخل حذائي وتقوست، ومشيت أذرع هذه الغرفة. يداي داخل الحذاء، ورجلاي عاريتان. منظر أضحكني. لقد أردت أن أفعل شيئاً جديداً خلف هذه الجدران!!

وضع يده على جبينها يتحسسه. قال بعد صمت قصير:

ـ عسى ما خلاف؟!

ضحكت بصوت مرتفع، ثم بترت ضحكتها عندما تذكرت أن الذي يقف أمامها هو والدها. قالت ورأسها منخفض:

ـ صحتي جيدة. فقط.. أنت عودتني أن لا أتكلف معك يا أبي.. إنني أمزح. ها؟!

تطلع إلى وجهها.. حدق فيها وهي نظرات واقفة على وجه أبيها. وفجأة انفجرا بالضحك، وضمها إلى صدره، وقبلها على جبينها، وبصوته الأجش قال:

ـ نامي.. بكره إمتحان. اتركي السهر، وها الأفكار اللي ما أدري وش لونها!!

وأقفلت الباب من الداخل. المرآة أمامها.. وقفت ترى وجهها.. قامتها الطويلة. ستبتسم هكذا. ضحكتها جنان. ملامح وجهها يعني.. هيه.. مقبولة. ليست وحشة.. هأ. هأ. تتذكر زميلتها في الفصل.. قالت إن وزنها تسعون، والحقيقة أنها أخفت عشرة أخرى، مسكينة، لكن دمها خفيف.. العام الماضي جاءها عريس ولكنها رفضت. قالت إنها ستكمل دراستها. لا بد أنها خائفة من النتيجة عندما يراها!!

ـ ما هذا السخف؟! أنا مالي والناس. يمكن البنت حظها حلو. الحظ ليس في الفتنة والجمال المنظور وإنما في.. في إيه؟! الحظ في الحظ..!

ـ ٢ ـ

تبتسم بذهول.. الليل يسقط في الصمت. ما أحلى الصمت.. إنه حديث طويل لا ينتهي. لا يخرمه الملل. ساعة كاملة وهي تسافر في رحلة صمت. تحب أن تخلو إلى نفسها دائماً.. كل البشر ـ لحظتها ـ يمرون من أمامها.. كل الوجوه التي اصطدمت بها، والتي لمحتها، والتي حدقت فيها، والتي تتخيلها والتي صامت عليها.. زحام مرهق. الإنسان يبحث عن وجهه منعكساً على وجه آخر.. وجه واحد من كل هذه الوجوه. هذه المرآة في غرفتها سخيفة.. إنها تعكس لها وجهاً لا تعرفه.. لا تعطيها وجهها. وجهها تراه على وجه آخر!!

البحث مضنٍ، وغير مضمون!!

الهواء بارد رغم أن النافذة مغلقة وبوادر الصيف تلوح. بارد... بارد!

ـ من هو؟!

ـ ذلك السخيف. كل كلماته فقط هي: أنت حلوة.. جميلة.. فتنة يقظة!

يقول الشاعر بلهجة سمجة. المرأة يغرها الثناء. تاريخ قديم، وكلمة مهشمة لم يعد لها وقع. المرأة اليوم تنظر إلى المستقبل.. كيف تتعلم.. كيف تكبر مفاهيمها.. الخروج من التفاهة إلى الهدف.

مرة قال لها:

ـ والرجل.. ألا يبقى في النهاية هو مطمع المرأة. ومحطتها الأخيرة؟!

ـ صحيح، ولكن بعد الاختيار المركز!!

الهواء بارد، والليل يزحف فيسرق الزمن. لا.. نحن الذين نسرق الزمن. اللحظة التي نشعر فيها هي الزمن. وهذه اللحظة مسروقة.. لأنها صور وليست شيئاً!!

ـ قالت لأبيها: بعد الشهادة سأتخصص في الأدب!

ـ قال لها: آداب؟! هذا يا بنتي ما يأكل عيش. الطب. الصيدلة. التدريس.

ـ قالت: الآداب. أحب الإنجليزي وسأدرسه!

ـ قال: الإنجليزي تأخذينه في الطب. ترى فلوسك كثيرة إذا تخرجت وفتحت عيادة. البلد تحتاج لطبيبات.

ـ ٣ ـ

ضربت رأسها بالوسادة. إنها تعلم أن (مجموعها) كان لا يؤهلها لذلك... لو أنه يريدها طبيبة.. ما كان وافق في العام الماضي على زواجها. ما أتعس تلك الأيام. جاءها بشاب يحمل شهادة جامعية.. تخرج في نفس العام، والتحق بوظيفة. ذلك الأبله.. ابتسامته بلهاء. كلامه كالصمغ. كلما قالت له كلمة.. التفت إليها وقال:

ـ الضَّاهْ.. كلامك حلو!!

أخنف!!

حتى أفكاره مصابة بـ (الخنفة).. عندما يتكلم يهتز كله.. كالسيارة الباردة التي تنتفض وهي تدار!

يا الله.. ما أتعس امرأة تحلم بمثل هذا الطراز من الرجال. من كلامه

تتذكر وتقهقه في غرفتها بجنون: أنا حطوني في المرتبة الدابعة ـ يقصد الرابعة! ـ رئيس قسم. وعندي (سيانه) اشتديت لها مكيف بمائتين نيال ـ أصل جده حن ـ يقصد حر! ـ يا سلام عنا لندن.. البراد هناك لذيذ!!

ـ جاله القرف. مشروع بني آدم توقف نموه الحسي!!

الليل بطيء. نسيت هذه الحكاية. طوال عام كامل، منذ أن رفضت الاقتران بهذا الأبله! إنها تتذكرها عندما ترغب في الضحك. حتى الضحك قيصري. لا بد أن تفتح صدرها وتزغزغه لتضحك!!

ما الذي في داخلها؟!

صمت.. أسطوانة تدور بلا صوت.. ولا تتوقف.

ينتظرن.. كل البنات ينتظرن العريس!!

ـ قالت لها أمها قبل أسبوع!!

كيف تتزوج.. لا تريد الآن.. الآن هذه الكلمات تقرع رأسها: (إنك لا تستطيع أبداً أن ترى الشيء ذاته بل صورته فقط. والصورة ليس هي الشيء)!!

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. غداً.. تقف (الأبلا) وسط الفصل.. تشير إليها قائلة:.. أنت.. كيف تجرين تجربة لإثبات أن ثاني أكسيد الكربون بقية السؤال لم تصل إلى سمعها. أذناها ليست مثبتة في رأسها. إنها تحتاج إلى ثاني أكسيد الكربون في عقلها. أفكارها تختنق. صورها تترنح!. ستسمع تهزيئاً من (الأبلا) و.. ستبتلعه!!

ـ ٤ ـ

ـ ماذا قلت يوم أمس؟. أعد تلك الكلمات الغاضبة!!

ـ عندما أتكلم تصمتين فجأة.. اضطرب. أشعر أن كلماتي لزجة وأنك تصدينها لئلا أواصل الكلام. اكتشف بعد ذلك أنها غزيرة في داخلك!!

ـ كنت أسخر منك. أتعمد أن أغضبك.. تبدو مضحكاً هكذا!!

ـ لأنني أقول شيئاً لا يعجبك، أو لأنني أسمعك كلاماً يخيفك فتهربين منه؟!

ـ طابور من (الأحصنة) أنت.. تنطلق أسئلتك فلا أرى إلا غباراً كثيفاً!

ـ أنا لست عاصفة!

ـ لم أقل هذا. أنت صعب.. تجعل لكل كلمة تفسيراً.

ـ لأني أريد وضوحك. أن تكوني معي الطريق، والمعنى، والاستراحة والأنثى!

ـ رجعنا للشعر؟! الله ها الله.. شوي وتجمح!

ـ العثور على أنثى نافذة.. مضنٍ جداً!

ـ وتشتمني أيضاً!!

ـ قصدت ذلك.. لتتخلصي من الدوائر الحلزونية!

ـ أسكت.. التيار في داخلي مجنون!

ـ تخافين أن يتحطم فيك كبرياؤك؟!

ـ العاطفة لا تعترف بالكبرياء، ولكني انسحب منك لئلا تضيعني!

ـ أنت ضائعة عندما تكونين بعاطفة معقدة.. أنت تهربين من نفسك!!

ـ أسكت قلت لك. هناك فرق بين الانسحاب والهروب!

ـ الهروب معناه أنني استوليت على كل أشيائك!

ـ تصبح على خير. هذا انسحاب لا عودة بعده!

ـ ٥ ـ

رفعت رأسها نحو النافذة. غابت رؤيتها في سواد الليل. كل ما في رأسها، وصدرها يتشابك، ثم.. (يسقط في الظل). إنها تكره أن تعطي لأشيائها ظلالاً كثيفة. ما الذي جعلها تستعيد ذلك الحوار؟! قالت رأيها في تلك الليلة: إنه رجل دسم.. رؤيته جيدة، وفهمه رائع، لكنه مراوغ ومغرور. لا.. بل إنه أحياناً سخيف لا يعرف ما يقول. يتلجلج، يضطرب، كأنه لا يقيم وزناً لشيء، أو لا يعرف شيئاً!!

مضى يومان.. فيهما كانت تهبط حتى تشحب كل أفكارها، وتضعف عواطفها. إنها تنغمس في التبريرات الدبقة. لم يعد صوته إليها.. قالت: (ينقلع!) الإرادة أقوى!. إنها لا تحب المراوغة من الآخرين. المراوغة منها أمتع!

(من ثلاث أيام ماجاني خبر). تردد هذه الأغنية وتبتسم بتعاسة. صارت رائحة الليل رطوبة. صارت الكلمات حبل مشنقة. اليوم جاءت إليها زميلتها. ما زال وزنها تسعين!! زميلتها سعيدة.. تضحك بمرح. سألتها:

ـ وش صار.. ليه مزغوده؟!

ـ خلاص.. انتهى زمن الدراسة والمذاكرة، والغلب الأزلي. الحياة

جديدة. الناس كلهم جدد!

ـ كيف؟! سلامة عقلك!

ـ قولي مبروك!!

ـ ها.. ها.. ما هو معقول؟!

ـ وش تقصدي؟!

ـ ها.. لا أبداً. أقصد أنه بدري. وين إصرارك على الدراسة، وسخريتك من الزواج؟!

ـ نصيب.. عقبالك!!

ـ ومين السعيد؟!

ـ اللي خطبني!!

عيناها بعيدتان.. تبعثرت كل الصور. اللعنة على الفلسفة. وقع أقدام في رأسها. الطريق موحش. الهواء بارد رغم حرارة الشمس ودخول الصيف. طابور من الأحصنة كلماته. لأ.. كلماتها هي. الصدأ.. الصدأ. أصابعنا تجرح وجوهنا أحياناً. (أحياناً أراك كطفلة تلهو لتحطم كل شيء): كلمة أبيها. العاطفة لا تعترف بالكبرياء.. أنت مراوغة: كلماته حينما يجمح!!

الصدأ.. نعم الصدأ لا تفسير له.

أمسكت الكتاب وأخذت تذاكر: كيف تجرين تجربة لإثبات أن ثاني أكسيد الكربون..

# أرملة الحب

**[ ـ مطلوب منا أن نتصافح بظهورنا، ويغيب كل واحد في مفترق يوغل فيه مدى حياته.. ولا مناص]!!**

ـ كانت وقفة شديدة الوقع في عمره.. لا يدري هل كان هو الذي صنعها، أم أنه إنسان قد تحول الشعور فيه إلى صناعة تعطيه المتعة المؤقتة، وترسب فيه الجرح. وتأخذه إلى مسافات غريقة في المجهول؟!

كان يتخطى السابعة والثلاثين بأيام، وكان هذا العمر قد انمحى وكأنه قد ولد قبل أيام فقط ولكن بلا هوية وبلا عنوان.. فإذا هذه الأيام القصيرة هي عمره كله. أو أنها الوجود الذي طلع وردة من بين الرمال، أو أنه الجرح الذي يغذ إلى النسيان بأربعة أرجل.

ومن المستحيل أن يتقهقر الزمن.. ولكن من المؤكد أن يترسب في الأعماق ذكرى وحنيناً.. ذكرى ألم أو حنين فقد!

إنه الآن يحمل رأسه المجوف بين راحتيه وتطفر الدموع من عينيه بلا لمعان.. زوجته الجديدة ذات الشباب الطفولي تتنقل أمامه من غرفة إلى أخرى داخل هذه الشقة التي ضاقت بأشجانه وذكر ألمه..

التفتت نحوه وهي تنحني على الطاولة وتمسح طفاية السجائر

الكريستال.. رفعت حاجبها مندهشة تسأله:

ـ هل تشعر بتعب.. هل تعاني من صداع.. هل أعطيك مسكناً لرأسك؟!

إنه لا يطيق أن يجيبها..

هل هذا معقول؟.. إنها ما زالت عروساً لم تخرج بعد من شهر العسل!

ورفع رأسه ورآها بجانبه تتأمله باستفهام.. ثم سمعها تسأله ثانية:

ـ هل أنت متورط في مشكلة.. ماذا تحس.. ماذا بك.. تكلم؟ في عينيه دمعة بلا لمعان.. يتأمل وجهها الصغير.. يكاد يلمس عنفوان شبابها في قسمات وجهها، وبصوت هامس موجع.. قال لها:

ـ اصدقيني.. هل أبدو في نظرك عجوزاً.. مهدماً؟!

فغرت الفاه دهشة.

السؤال مفاجئ لكل ما رضيت به فيه ومعه.. قالت:

ـ كل ما هنالك أنك تبدو متعباً.. هل غلطت معك.. هل أنت نادم على هذا الزواج؟!

ـ قال: نعم.. إنني شديد الإرهاق، لكني عندما تزوجتك أردت أن أحيا عمراً جديداً.. أن أنسى عمري الماضي كله.. أن أنسى حياتي كلها، فكأنك زوجتي وابنتي وأمي وحبي!!

ـ قالت: ها.. لكنك رغم كل هذا لم تستطع أن تنسى حياتك السابقة. في عينيك بعض الصور التي عجزت أن تطردها!

ـ قال: لا عليك.. الأيام كفيلة بأن تلحد كل الحياة الماضية! ارتفعت نبرة صوتها بحدة.

.. قالت له:

ـ إذن.. تريدني أن أسليك.. أن أنسيك أهم مراحل عمرك.. تعني أنك لا تحبني وإنما ما زلت تحبها هي.. هي زوجتك الأولى، أو بختك الأول وهي «عشرة» عمرك وهي رفيقة كفاحك في الحياة على المر والحلو. وهي كل ألمك.. فإذن لماذا تزوجتني ما دمت لا تقدر على نسيانها؟!

ـ قال: من فضلك لا داعي لهذا الانفعال.. لقد انتهى كل شيء!

ـ قالت: ماذا تقصد بأن كل شيء انتهى.. هل أنت نادم على ترك زوجتك الأولى.. أم أنك غاضب لأنها تزوجت من بعدك رجلاً آخر؟!! ألم تجلس عاماً كاملاً بعد أن طلقتها وقبل أن تختارني.. ألم تفكر.. ألم يعاودك الحنين إليها.. لماذا تعذبني؟!

ـ قال: أرجوك.. لا تثيري أوجاعي، فقد تزوجتك بعد عام من التفكير، ولست نادماً أنني تزوجتك أنت بالذات..

قاطعته بصوت مشبع بالدمع:

ـ المهم أنك نادم لأنك تزوجت، وهذا يكفي سبباً لتعذر البقاء أنت وأنا تحت سقف واحد.. لا داعي أن تعذبني بذكرياتك وصداع ماضيك، ولا داعي أن أرهقك بمطالبتي بحقي كزوجة لا بد أن تستحوذ على كل مشاعرك!

ـ قال: لا بد من الفرصة.. وسوف أنسى إذا نجحت أنت في احتوائي!

ـ قالت: لا.. ليس عندي الاستعداد لأن أتحول إلى طبيب نفساني، فدعني أرجع إلى أهلي.. الآن!

فاجأه هذا المطلب.. اهتز جسده كله، حدق فيها.. وقال:

ـ هل جننت.. ما الداعي لكل هذا؟!

ـ كل الداعي في هذا.. أنني أتوقع ما سيكون.. أنني أرى الآن مستقبل الأيام معك فأرجوك أن تكف عن خداع نفسك!

ـ قال: لكني أرتاح معك.. أشعر أنك تملئين الفراغ وأشعر أنني أحبك!

ـ قالت: أنا لست شيئاً إضافياً.. كل عملي أن أملأ الفراغ. إنني أعرف أن العشرة تتفوق على الحب.. لأن العشرة هذه هي محتوى عمرك الذي ذهب كله.. هي ذكرياتك وحنينك.

* * *

وخلدا إلى الصمت. كان صوت «المكيف» هو الذي يملأ الغرفة، وتحركت من مقعدها بجانبه، وأخذت تطوف أرجاء الغرفة وفي عينيها دموع تلمع.. وفي أذنيها أصداء صوت أختها الكبرى عندما جاءت إليها يوم وقف والدها وأمها ينتظران إجابتها على طلب الزواج.. يومها قالت لها أختها الكبرى:

ـ تذكري إنه يكبرك كثيراً.. أنت في السابعة عشرة وهو في السابعة والثلاثين؟

ـ قالت لأختها: هذا السن هو عمر الشباب.. إنه ليس عجوزاً!

ـ قالت أختها: لقد طلق زوجته بعد عشرة عمر طويل لأنها لا تنجب، فمن يدري.. ربما أنه هو الذي لا ينجب!

ـ قالت لأختها: ولو.. لست حريصة على الإنجاب!

ـ قالت أختها: بعد سنوات سوف تتمنين طفلاً، فكل امرأة تريد أن تكون أماً.

ـ قالت لأختها: إذا أحببته فسأكتفي به وحده.. سيكون زوجي وطفلي معاً!!

ـ قالت أختها: لكنه هو لن ينسى زوجته الأولى، ليس فيها من العيوب إلا عيباً واحداً هو عدم الإنجاب، وربما منه كما قلت لك.

واقتربت من زوجها في شهر العسل.. وأمسكت بيده المرتجفة تقول:

ـ اسمع.. أنت لست لأحد.. أنت فقط لحياتك السابقة. أفهم هذا جيداً!!

وركضت إلى غرفتها تجمع ملابسها وفي عينيها دموع تلمع، ولبست عباءتها، وحملت حقيبة ملابسها.. ووقفت على باب الشقة وصوتها في صدره:

ـ هيا.. دعني أعود إلى أهلي فلقد قررت!!

* * *

لم ينطق بكلمة واحدة من بيته.. حتى أوصلها إلى بيت أهلها! لكنه إلى أين يذهب الآن؟!

البيت غرف مطفأة، وصدره غرفة حطمت العاصفة بابها، وفي عينيه ظلال كثيفة من الصور، والأصداء والدمع.. فكأنه الآن لا يرى شيئاً.. عاجزاً أن يفعل أي شيء!

الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يفعله الآن هو أن يضغط على بنزين السيارة بقوة وبدون اتجاه.. كأنه يبحث عن مزيد من الظلال.. عن كثير من الظلام ليختبئ فيه، ويضيع ويفقد الحياة الماضية والعمر الجديد!

ـ (هذا أنت الآن قطع متناثرة في كل اتجاه.. فهل تذكر عمرك الماضي؟! كنت مثل زجاجة فارغة إلا من ورقة صغيرة في داخلها وقد ألقيت الزجاجة في بحر الحياة العاصف، فلما تزوجت الأولى ـ الأصل ـ كانت هي الميناء الذي استقرت عنده الزجاجة، وكانت هي اليد الحانية التي التقطت الزجاجة، وأخرجت الورقة وعليها هذه العبارة: ما هو عنواني؟!.. وكتبت اسمها تحت العبارة.. فأصبحت هي عنوانك!!

ها أنت الآن تذكر.. أنت لا تستطيع أن تنساها بالفعل.. كانت هي اللؤلؤة التي سرقتها من قاع البحر. كانت من أوائل المتعلمات.. بدأت رحلتها داخل الحياة من ظلام «صدفتها». خرجت إلى النور فوجدت طموحها هو صوت عمرها وتسلقت وجدانها حتى علت فوقه.. جعلته أقل من عقلها.. لم تحاول يوماً ما أن تفرض التساوي بين عقلها وقلبها، لأنها كانت تطمح باستمرار إلى العلم. كانت كبيرة كالنجاح. رزينة كالنتائج المدروسة. حلوة كرؤى الفرح، ولكنها كثيراً ما أحجمت عن البسمة. فالشفاه لها ثمن باهظ؛ أن نضحك بثمن وأن نبتسم بحزن له ثمن أيضاً، وكان الثمن الذي تدفعه باستمرار هو إحكام وثاق عواطفها وأطلق أخوتها عليها اسم: آبيه!!

وعندما تقدم لخطبتها لم يكن قد رآها من قبل.. لكن أمه قالت له بعد عودتها من بيت العروس:

ـ ما شاء الله أحسن الخالقين.. جمال، ورساوة وعقل وست بيت!

ـ وقال لها أهلها: إنه نشيط، وتاجر ناجح جداً.

أما أختها الصغيرة، فقد جاءت إليها تتقافز وتهمس في أذنها قائلة:

ـ يا بختك يا ستي. شكله يجنن وعامل مستحي لكنه يبصبص من تحت لتحت!

وعندما نظرت إليه في اليوم الأول بعد الزفاف.. رأته لحظتها كأنه يحرق كل أكواخ التردد التي أقامتها في صحراء نفسها لتراه وحده هو كل المكان.. وهو مسافة الزمان.. هو كوخها الذي يحميها من العواصف، وسقفها الذي يظللها من الهجير، وركائزها التي تعينها على التقدم بخطوات جديدة نحو الأمل.

ها أنت تذكر الآن ما كانت تهمس به في أذنك:

ـ أرى في عينيك عمري.

ويهمس في راحة يدها وهو يحتضن يدها ويقبلها:

ـ أرى فوق رأسي وجهك.. أحمله وأدخل به مدن المرايا. أرى في عينيك ابتسامتي ومللي وضعفي وتكبري وأغمض عيني فأردد اسمك)!!

* * *

الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يفعله الآن هو أن يواصل ضغط قدمه على بنزين السيارة بقوة.. وفي داخله أصداء:

ـ إن زوجتي الجديدة ـ العروسة. لا تدري سبب دموعي هذه الليلة. إنها لا تدري شيئاً أبداً.. لقد رأت في دموعي أنني مرهق. لأ.. إنني مهدم. إنها لا تعرف الخبر الذي بلغني هذا الصباح من أختي:

ـ (هل عرفت يا أخي أن عشيرة عمرك العاقر طوال حياتها معك.. قد أنجبت يوم أمس ولداً من زوجها الثاني)؟!

ـ إذن.. أنا السبب. أنا الذي لا أنجب.. أنا المريض العاجز المعطل.. أنا الظالم لها.. الظالم لنفسي. عندما عرضتها على الأطباء لم أصدقهم بأنها ليست عاقراً. رفضت أن أعرض نفسي أنا لئلا أصدم بالحقيقة، ورميت كل الخوف عليها هي. وأضعت كل عمرها. لقد تزوجت برجل يكبرها كثيراً وتزوجت أنا بفتاة أكبرها.. يا للمفارقة!!

وما زالت السيارة تطوي الفراغ والظلام على امتداد طريق المدينة.. وهو في داخله يفرد صفحات ويقرؤها وتسقط دموعه على حروفها فتضخمها!!

ـ (قبل عام بالتقريب.. أراد أن يصعِّد الخلافات بينها وبينه. كان يختلق المشاكل.. كان يصرخ في وجهها ولم تتعود منه في كل ذلك العمر، وكان في شعورها: الدمار لو جاء إليها ملوحاً بالانفصال!

لكن كرامتها وحبها الشديد له وفجيعتها فيه.. قد نزحوا أشياء كثيرة من ضلوعها.. كل الانفاق أضحت حدوداً بينهما. كل الزمن تحول إلى دوائر مجوفة تحمل رجع الصدى لا أكثر!!

ـ قال لها مرة: أنت عاصمة نفسي وروحي.. أنت وطن أفكاري. منك استمد عاطفتي نحو الحياة كلها. وفيك أنت اكتشفت نفسي..

ـ قالت له: أيضاً أنت حضارتي وحزني.. لكن الوقت كما أحس لن يكون ملكنا، والحدث نعجز أن نصنعه معاً حياة متحدة لعمر واحد في شخصين، ومطلوب منا أن نتصافح بظهورنا ويغيب كل واحد في مفترق يوغل فيه مدى حياته ولا مناص!

ـ قالت له بعد صمت وهي تتأمله: كأنني كنت أتوقع هذه الوقفة بكل ما فيها من شدة الارتطام.. كنت أحس في عامنا الأخير هذا أنك ترغب في البقاء وحدك وأكون أنا سبب مجاعة كل ما تنازلت عنه.. وإنني أرى البحر يغرق السفن الصغيرة وأنت وأنا في الشيء المتحد كنا مثل بحر يغمر الأشياء كلها ولكنه سيغمرنا معاً فيما بعد. فإذا أنت تتحول من بحر إلى سفينة صغيرة وأنا أيضاً.

ـ قالت له أيضاً: كنت أتنازل عن عمري كله وأبقى لك وحدك حتى في العدم.. كنت وطن روحي فإذا أنت تقسرني على الهجرة من هذا الوطن، ولكنني ـ تأكد ـ لن أندم كثيراً بمقدار ما سيكون حزني هو العظيم والغامر، فلا ينبغي أن نندم على من يبيعنا، ولكن من الصعب أن ننسى أن العمر بأجمله كان هو الذي بيع)!!

وظن بعد عام على الانفصال أن الذي باعه هو شقاؤه وأنه سيجد في الزوجة الجديدة سعادة لا تتكرر.. فاكتشف أن ما باعه هي سعادته، وأنه يحيا الشقاء الذي لا يتكرر.

ـ لقد قال لزوجته الجديدة بعد ليلة الزفاف الأولى:

ـ أنت شهادة ميلادي الجديد.

وكان صوت زوجته الأصل الأولى تتردد أصداؤه في أذنيه:

ـ (لا تنسَ أن الميلاد بداية الموت.. فكيف يكون الميلاد بدون شهادة موت)؟!

أصابه التعب حتى يكاد رأسه يسقط فوق مقود السيارة. ترجل من عربته ورمى جسده فوق الرمال ونظراته تشخص إلى السماء بحثاً عن درب في الفجر ينام.. فكل الجسور كانت معتمة ولن يصل إلى الحنين من جديد!!

ـ هل هذا معقول؟.. زوجتي العاقر التي لم تلد طيلة هذه السنوات الطويلة.. تحمل، وتلد قبل أن تكمل عامها الأول مع زوجها الثاني.. معقول؟!

ـ نعم معقول.. الإنسان يتجاهل الحقيقة عندما يفتقد فيها ما يريده.

ـ ولكن.. هل صحيح أن الدنيا ممنوعة على الذين يعلنون ميلادهم؟!

ـ أبداً.. أنت أخرق وغبي أو أنت مكابر.. فلقد أعلنت الدنيا عن ميلاد زوجتك الأولى من جديد. ولا بد أنها سعيدة بزوجها رغم أنه يكبرها كثيراً.

ـ يعني إيه.. هي أيضاً كبيرة.. لم تعد تلك الفتاة النحيلة النضرة!

ـ من السبب في ملء وجهها بالتجاعيد؟!

ـ أنا؟!

ـ نعم أنت الآخر.. أنت ذلك الأناني الذي كان، ولست أنت المحطم النادم الذي أصبحت!

ـ أسكت.. من أنت؟

ـ أنا موتك.. أنا الذي تبقَّى لك!

ـ لأ. أنت.. أنت صداها.. أنت الذكريات.. ها؟!

ـ أنت مجنون!

لأ.. لأ.. مجنون.. ها؟!

ـ أنت مجنون!

ـ لأ.. صح مجنون ليلى ولبنى وجوليت.. ها.. ها.. ها..

مزق ثوبه الأبيض الناصع، وألقى قطعه على الرمال، وأخذ يعدو تحت ضوء الفجر مبتعداً.. غائباً في جوف الصحراء.. وقد تبقت خلفه الرمال!!

# الخفقَـــة

**وجهها... زحام من التحدي والقدرة والاستجابة.. فهل ينكسر الزمن بالفتنة المترفة؟!**

ـ ابتسامتها.. شلال ينهمر بالصفاء، ولكنه شلال يعبر عن العنف أحياناً..

لو لم ترتسم هذه الابتسامة المزهرة.. على هذا الوجه المائج بالفتنة.. الصاخب بالنداء، لتحولت الابتسامة إلى ألوان متضاربة بلا تعبير!

وجهها.. تعبير الابتسامة التي تعتقل كل نظرة تقترب من ملامح هذا الوجه!

إنها تخاف على وجهها، وتخاف منه!

إن هذا الوجه: هو ثروة الأنوثة فيها..

إنه عذابها عندما تضطرم العاطفة في جوانحها، وهي تبحث عن إنسان الاستقرار في عيني إنسان تحلم به ليهبها الحب بلا ضنى!

إن العشرين من عمرها.. كانت مرحلة الدخول إلى عذابات الحيرة، والتلفت.. وهي تقف وحيدة في دروب الحياة بعد أن فقدت أمها التي اختطفها موت سريع في ريعان شبابها، وفقدت والدها لاحقاً بأمها حسرة

وكمداً وشعوراً بفراغ الحياة بعد رحيل حبه الكبير: أمها!

كان الرباط المقدس بين أمها وأبيها شمعة تضيء الظلال الداكنة في حياتها بعد رحيلهما.. تتذكر في وهجها أن الحياة حب، وعندما نفقد الحب لا بد أن نفقد الحياة!

الموت بعثر الحزمة المتلازمة..

الموت كشف عن حقيقة الزيف في الوجوه حتى بين الأخوة! أخوها الأكبر استأثر بالتركة كلها.. وضع يده على تجارة الأب الرائجة الرابحة، وقذف بها وبثلاثة صبيان وبنت أخرى إلى الرصيف!

كان الصراع في نفوسهم الصغيرة محتدماً: هل يتظلمون من أخيهم.. هل يقفون بجانبه خصمان أمام القاضي يشكونه وهو شقيق لهم؟!

أكبر الصبيان الثلاثة ضم البنتين والصبيين الآخرين وقال لهم:

ـ لا تحملوا هماً.. سأعمل!

ـ قالوا له: ولكنك بلا مؤهلات علمية؟!

ـ قال: المهم أن أعمل، وليس في العمل عيباً.

خاضوا أمواجاً عاتية.. كادت أختها التي تكبرها أن تسقط بحثاً عن المال.. عن أسباب يحفظون بها قوام البيت المضعضع!

هي أيضاً جربت أن تمرغ اسم أخيها الأكبر الناكر.. السارق لحقوقهم، وتقذف بذلك الاسم في الوحل!

ـ الحياة تافهة في الضعف.. الحياة قاسية في القوة.. الحياة نبيلة بالحب..

فالحنان مفقود..

الذئاب تعوي من حولها، وفتنة وجهها اللافتة تستطيع بها أن تنتقم من كل رجل.. تنتقم من أخيها!

عذاب رهيب حيرة قائظة، ولكنها لا تستطيع الاستمرار، فالحياة ليست هي استمرار لقمة العيش، وإنما هي استمرار قدرة الأماني، وكل أمانيها قد تحولت كما سطح غربال واسع الفتحات!

شعورها يعذبها، وحياتها تحيل ذلك الشعور إلى كهف شديد العتمة محكم الاختناق!

وكل هذه الأنوثة فيها امتحان لقدرة الصبر.. لصبر الاحتمال.. تبحث هي عن إنسان يضمها إلى الأمان في صدره لتزهر حياتها فيه، ووجهها الفاتن المثير يكاد يسقط من التلفت الذي لا ينتهي في عمرها، وقد بلغت الآن السادسة والعشرين!

سن التحدي، والإغراء، والفرصة!

تعرف أنها ستبكي طويلاً.. والعمر يزحف بها بطيئاً.. يعجز أن يلاحق قطار السنين!

* * *

واستعاد ملامحها تلك...

غمرته الابتسامة المزهرة على وجه صاخب بالفتنة..

يستريح على تقاطيع بريئة.. كأنه وجه طفلة، أو كأن على الوجه التفاتة ملاك يغني للحب وللحياة!

وجهها يعتقل قلبه بحكم مؤبد..

رأسه الآن يتطوح في كل اتجاه. غرس أصابع يديه في جفنيه ليحدد الرؤية!

إن أكثر الأشياء تبدو غائمة ومهزوزة..

إنه لم يعد يرى إلا وجهها.. يعشق كل زواياه، وكل التفاتاته ويحذر منها أيضاً!

وجهها ـ بكل هذه الفتنة ـ يعذبه. إن براءة الجمال فيه قد اشتدت إضاءتها على ملامح الوجه، وهو يستعيد هذه الملامح، ويفتش في تضاعيفها عن الصدق!

ابتسامتها تسكب في عينيه ولهاً متقداً!

ترى.. ألا يتطور هذا الجمال، فيتحول إلى غرور يزيد ضعف الأنثى فيها؟!

كأن خواطره قد تحولت إلى مطارق تهوي داخل رأسه المتعب، وترن داخل صدره المكثف بالوجيب وبالشوق!

* * *

سحبت الشمس أشعتها.. لملمت وهجها..

كأن هذه القيلولة غائمة داكنة.. مثلها بعض الناس يواري صفاءه، وإشعاع نفسه خلف انقباضات المعاناة.. وراء أشباح الحزن وهي تجرح الفؤاد كما شفرة.. تقطع كل متعة بالتخيل!!

عيناه مليئتان بهذه الظلال.. لكنهما مغمضتان على رجع يغري

الأجفان أن لا تضيق على حقيقة تهز في داخله وجهها وتشوه ابتسامتها!

إنه يحاول أن يبدد قلقه..

يحاول أن يطرح السؤال الحاد والمحدد: يحبها.. أو لا يحبها؟!

يحاول أيضاً أن يقتل الشك الرمحي في صدره: تحبه.. أم تعبث به؟!

إن العبث بالحب.. لا أكثر من زمن ومكان وحادثة.. لكن ما يترسب في الأعماق.. يبقى هو الأصداء، أو هو الصدى!!

ـ (صدقني يا سيف.. يوم ودعتك بعد مسائنا الأول الذي شهد لقاءنا وامتزاجنا روحاً ووجداً.. لحظتها أحسست أن كل الحياة تنسحب من وعي وشعوري بعد رحيلك. كل شيء بعد أن ذهبت لا طعم له ولا لون. كل من اقتربت منهم بالصداقة.. هربت منهم بعدك بالملل والفراغ.. حتى أكون معك دائماً في خلوتي إلى نفسي، فأصغي إلى أصداء صوتك الجديد أبداً)!

تفكيره الآن.. كما مجلد كتاب ضخم ثمين.. تراكمت عليه طبقات الغبار، وفوق هذا الغبار بقيا مطر، فتقوس مجلد الكتاب فوق كل ما تحته!

شد جفنيه بإصرار لينام..

النوم غيبوبة مؤقتة.. يتخلص بها الإنسان من قشوره التي تقوست.. ما يلبث أن يفيق الإنسان بعد ذلك ليكتشف الكثير من القشور الجديدة!

ترى.. هل كان كلامها مجرد قشرة جديدة؟!

ما الذي تريده منه، وهي ترنو بطرف عينيها لآخر؟!

ـ قال لها: أريد أن أرى هذه الدبلة التي في أصبعك؟!

تبدل لون وجهها.. توترت أصابع يدها اليمنى.. قالت له:

ـ ماذا تريد منها؟.. لقد رويت لك الحكاية السمجة. أهلي يصرون على أن أتزوج منه وأنا أرفضه.. إنني لا أطيقه أبداً.. لا أريد رجلاً في حياتي سواك أنت!

ـ قال لها: ولكن.. دعيني أرها!

وامتنعت.. وبادر إليها فحبس أصبعها بين أصبعه وأخرج الدبلة وقرأ.

فجأة.. ارتسمت الدهشة على وجهه. امتقع لونه. ارتعشت الكلمات على شفتيه، وبصوت متوتر قال لها:

ـ ولكن الاسم المحفور داخل الدبلة ليس هو اسم خطيبك!

ازداد وجهها احمراراً. قادرة على تملك جأشها، وحاولت أن تهمس في أذنيه.. قالت له:

ـ دعني أحكِ لك كل ما لا بد أن تعرفه. أرجوك.. إنني أحبك فلا يمكن أن أكذب عليك!

ـ قال: لا أريد أن أعرف المزيد.. إخرسي!

ـ قالت: بل لا بد أن تعرف.. لا تجعل قلبي يضِع بخفقة عذاب من أجلك. إن هذا الاسم المحفور هو لرجل عرفته قبل خطيبي.. كان هو عذابي عندما تصورت أنني أحببته، وكنت أنا عذابه وما زلت لأنه أحبني، ومن أجلي استعد أن يطلق زوجته لأقترن به، وكدت أن أجعل الجنون حياة.. ظننت أنني أحبه، ومثلي لا بد أن يفعل ذلك. أبحث عن حنان أم.. عن عطف أب.. عن إنسان يعيد الثقة لي بالناس، خاصة وأنت تفجع في أخيك من لحمك ودمك. كنت قارباً يضربه الموج

الشديد، وتعصف به الرياح والأنواء في عمق محيط. لكنني بعد أن عرفتك أحسست أنني أعرف الحب معك لأول مرة.. قطعت صلتي به.. أفهمته أنني مخطوبة، ولكنني أيضاً لن أتزوج خطيبي.. لأنني أحب الإنسان الذي عثرت عليه متأخراً، ولكنه سخر مني وطاردني، وخطيبي لا يعرف، وبعد مطاردة منه لي في كل مكان.. استطاع أن يسرق الدبلة ويبدلها بأخرى.. كتب عليها اسمه، وتاريخ خطوبتي لخطيبي الحقيقي!

ـ قال لها وكأنه يصارع موجة عنيفة: ثم ماذا؟!

ـ قالت ودمعة تنزلق من عينيها: كل ذلك هو لا شيء أبداً، وكل الشيء هو أنت، فذلك الرجل الذي ظننت حباً له وجدني في لحظة دوار من شدة العاصفة والموج.. خلته طوق النجاة ولكنه بعد أن أفقت لم أجد فيه إلا شعور المن والاستغلال، وخطيبي فرضه أهلي ولا أطيق ذلك الفرض كعمر هو كل الحياة!

ـ قال: إنه جنون.. هل تحبين الجنون.. هل أحببت جنون الرجل الأول قبل أن نلتقي معاً؟!

ـ قالت: لقد اكتشفت أنني لم أحبه يوماً، ولكنني كنت أبحث عن إنسان يعطيني ما فقدته. ربما في لحظة فرحة بالنجاة أعجبني جنونه فظننت الإعجاب حباً، وعندما رأيتك.. اكتشفت أنني مجنونة بك.. جنون العقل والقلب معاً.. جنون القوة معك وليس جنون الضعف وحدي!

(نصف ساعة من الزمن، وهو يتقلب في حلقة دائرية.. تطوف به عبر صور قديمة، وتستقر به عند صورة جديدة لتلك اللحظة التي وقف فيها أمامها يردد:

ـ ها نحن نلتقي.. فهل نمتزج؟!

يومها.. أجابه وجهها الحافل بترف الفتنة.. بابتسامتها المشبعة بالصخب.. قالت له:

ـ وأنت بعيد.. ذاب قلبي فيك.. ألا يمكن أن تصدقني؟!

وتسللت دمعة من حدقتيه.. كأنه يقرأ في أذنيها الآن هذه العبارة: «اقرأ همسك المكتوب على لوحة الزمن المنكسر.. أقرؤه بحيرة. وأضيع في موجة من التهدج والعشق الأخرس»!

اغتسل وجهه بالدموع الدافئة.. فلا يمكن لمثل هذه الأنثى أن تكون مجرد ذكرى، أو عذاب حنين)!!

ـ قال لها ووجهها بين كفيه: كانت أشواقي تسافر إلى نداءاتك.. كيف بردت تلك النداءات؟!

ـ قالت له وأصبعها يمسح شفتيه: صدقني يا سيف.. عندما وجدتك طورت النداء.. جعلته امتزاجاً في نظرتك. أريدك أيها المجنون بالشك، فلماذا تعذبني بشكوكك وغيرتك؟!

تخيل أن نبرة صوتها مشروخة بالصرخة..

كأنها تكتب في لحظة إصغائه ملحمة صدق مذهلة.. لا يصدقها!

ـ قال لها: من قال إنني أهرب منك يا كل الأنثى.. لكنني أريدك لي وحدي.. وحدي فقط بكل أنانية!

كان صوته اختناق البوح في ليلة عاصفة بالرعود..

ـ قالت له: صدقني.. لقد تركت أثمن الفرص من أجلك وركضت إليك.. فماذا بعد؟!

(طفولة في حديثها، ونشوة في عينيها، وظلال في تصرفاتها.. الزمن ينكسر بالفتنة المترفة..

وجهها حشد من هذه الفتنة.. زحام من التحدي والقدرة، والاستجابة.. لواعجه تشعل مساحة من حرائق النفس، فكيف تنمو الأشجار وتتفتح الزهور؟!).

ـ قالت بعد صمت: أنت تبذر الشكوك في اندفاعي إليك.. فهل تحضّني على كراهيتك؟!

ـ قال: لا تستطيعين كراهيتي!

ـ قالت: ها أنت إذن تؤكد حبي لك.. فلماذا الشكوك.. قل لي؟!

(في عينيها حدة الانفعال بهذا السؤال الذي يبدده.. في صدره ضباب الشكوك، واندفاع الشعور، وبينهما صراع يمزق أضلعه ويكوي خفقه، ويشرخ أفكاره)!!

ـ قال لها: فرق بين الشك، وبين الخوف!

ـ قالت: أنت تخاف علي.. وأنا أقترب منك لتحميني؟!

ـ قال: أنا أخاف منك عليك، وأنا أقترب لأقيدك!

ـ قالت: أعرف.. إنك تخاف أن لا يستمر الصدق في حبي لك؟!

ـ قال: أخاف أن يتحول الحب إلى شيء يقيدك ويجعلني سجانك، وإذا قيدتك قد لا تحتملين!!

ـ قالت: ولكن الحب يكسر القيود!

ـ قال: المستحيل يا «أنثى» أن نقيس عواطفنا بالترمومتر.. إنها فجيعة!

ـ قالت وهي تبتسم : يا «سيف».. إنك تحدق في عيني كثيراً.. هل هما الترمومتر؟!

ـ قال: عيناك يا «أنثى» واحتي وراحتي.. فلا تزيدي الكلام.. وإنما دعيني أصغِ إلى صوتك في أعماقي!

(أنت تراني أهرب لأغفو في عيون الأطفال، وأظل أنتظر من جديد حتى لا تذهب الآهة، ولا ينشرخ الشوق في حدة الرياح، وتفتح الحقيقة فمها دهشة في السراب)!!

يسند رأسه بكفيه.. وهو يستعيد هذه العبارة التي قرأتها له «أنثى» ذات مساء من كتاب أهداه إليها يوم ميلادها.. إنه يستوحي أصداء زمن ينبعث من بين ضلوعه!

وامتدت يده إلى المذياع بجانب رأسه..

لا بد أن تسقط الآن دمعة جديدة تختلف عن كل الدموع!

جاءه عبر المذياع صوت أم كلثوم يشدو قصيدة أحباها معاً:

تبكي، وتهتف أحياناً بشكواها!

وعادها الشوق للأحباب فانبعثت

إنه لا يدري.. لا يريد أن يدري شيئاً!

إن «أنثى» هي قصيدة عمره المتكاملة وعذابه..

إنها التي بعثت الشجو من أعماقه لتقتله بالشوق!

لم يعد الحب قضية إنسانية.. لكنه في زماننا اليوم هو لا أكثر من ممارسة.. تجربة.. وقفة.. متعة، ويبقى الرماد!

يخاف أن يغمره الرماد.. فكلما احتد العشق في جوانحنا.. اقترب من النهاية!

* * *

ـ قالت له: سيف.. ترى ما الذي أصابك؟.. إنك لا تراني وأنا أقف أمامك منذ ساعة؟!

قال ها..

كنت أفكر يا «أنثى» في فندق أجد لك فيه غرفة لتأخذين قسطاً من الراحة بعد السفر الطويل.

ـ قالت: اسمع يا «سيف».. يا حبيبي.. إنني لا أريد غرفة.. أريد فقط قلبك.. قلبك كله أسكنه وأغفو!

(أيها الصدق يا عذابي.. إنني مخبول.. مخبول)!!

ـ قال لها: ولا يصيبك السأم عندما تسكنين قلبي، وأغلق عليك بابه حبساً مؤبداً؟!

ـ قالت وهي تضع رأسها على كتفه: كيف يكون ذلك وأنا أركض كل هذه المسافات.. لآخذ مكاني فيك.. في داخلك؟!

ـ قال لها: ولا تحاولي بعد أن أخبئك داخل هذا القلب أن تحفري ضلوع الصدر وتحيليها إلى خروم لتتسللي منها إلى الخارج؟!

ـ قالت له: يا «سيف».. كيف يمكنني أن أهدم بيتي.. هل أبقى في العراء؟.. إن قلبك بيتي الآمن، والحياة بدونك صحراء منثورة بالعطش!

(لأنك يا أيها الإنسان لا تستطيع الارتقاء إلى انتشاء الزهرة.. إلى خفقتها..

لأن الحب مرة واحدة فقط.. ربما يتحول الكذب إلى صدق مضاعف)!!

وجهها يزهر بالابتسامة

رأسه يتطوح، ولكن قلبه يزداد خفقه بعنف:

ـ قال لها: تعالي «يا أنثى».. تعالي لكي نحب.. اقتربي مني أكثر لنستطيع أن نمتزج.. تعالي، فمن أجل أن نحب لا بد أن نتعذب!

والتصقت به تحتمي في صدره..

وضعت رأسها الغامض على صدره المتقد، وخبأت وجهها الصاخب بالفتنة.. المنهمر بالصفاء، ومرغته على صدره الحائر!

وتناثر الكلام.. ما تبقى من كلام ـ فوق حبات الرمل..

وإذا العذاب.. خفقة تغمر القلب!!

ومن الصعب أن يكون لهذا الإحساس.. نهاية!!

# نـــانـــي

**ـ كل الأمكنة واحدة إذا اجتمعنا.. كلها مختلفة إذا افترقنا!**
**لأن الموت حقيقة، فهو وحده الباهر في دنيا تلونها الأوهام!!**

ـ تجف الأرض.. تجف!

تتشقق عطشاً، ونداء..

تتفلح الأرض، والخطوات فوقها تدك العطش..

تدك النداء، وينبجس الظمأ كالنبع الذي ينوح!

يا ذلك المطر: انسكب في النفس.. أغمرها يا ذلك المطر!

يا هذا الليل الممطر أصداء ولوعة وشجناً: دفعة واحدة وينغرس النصل في خفق الفؤاد، أو تنبت زهرة في فيافي الظمأ وحشية تحنو على الدموع.. دفعة إلى الأمام، أو دفعة إلى الخلف!

ولكنه لا يدري.. لا يحصد إلا سحل الحياة..

كان قد اقترب من سياج الكورنيش. كانت أشياء كثيرة قد ابتعدت من رأسه، وفارقت صدره المرتجف.

ما الذي يفارقنا، والذي نفارقه إذا اضطربت الرؤى؟!

ولكنه لا يدري...

خروم كثيرة متشابكة ومعقدة. . كما شبكة الصياد كانت نظراته. طوح بها في اللامدى. . بعثرها في الظلام الكثيف لتضيع به. . تضيع معه في لا نهاية هذا البحر الممتد أمامه كما السر. . كما التعب، لتختلط بعد ذلك بترددات الموج الخافتة. . كأن البحر يتنفس!

ـ (ما أجمل هاتين العينين، وهما تهمسان بالنظرة الواثقة.

لا. . بالنظرة التي ظن أنها واثقة في المساء الأول، وكانت تحف صوته بهاتين العينين، زائغ النظرات هو، ولكنها وجدت في نبرة صوته شاطئ أمان. تشبثت بالصوت. أدمته بالجدل ليستطرد ويحكي أكثر وأطول. وبتينك العينين ذات النظرات المدثرة في ظلال المساء. . شدت الصوت إليها بلا هوادة. طرحت نبرته وبعثرتها فوق رمال باردة لزجة بالرطوبة، ولم تنم العينان، وانشرخ الصوت وهو يحتبس في حنجرته بعد توديعها)!!

تجف الأرض. . تتفلح بالظمأ. .

وهو لم يعد يدري. . هل كانت دفعة إلى الأمام، أم دفعة إلى الخلف؟!

نفخ بشفتيه المكتنزتين قليلاً على التراب البارد المبتل بالطل. . على الحصى المتناثرة كأنها نفايات المد. . على الغبار الذي عجنته الرطوبة فوق السياج لئلا يتسخ ثوبه الناصع بياضه.

بياضه؟!. . هه. .

أيكون الثوب أثمن بكثير من نصاعة النفوس التي تلوثت بالحقد، وبالحدة، وبالأدواء الغريبة والمقتحمة؟!

ولكنه كيف يستعيد الآن نظراته الهاربة من عينيه؟!

وما الحصيلة؟!

النظرات محدودة بمداها.. لكن الشعور منطلق إلى أبعد من حدود الأرض، وقد جفت الأبعاد بفعل هذا الجفاف في رؤية الحس.. في عاطفة الإنسان!

يا ذلك المطر: انسكب في الصدر يا ذلك المطر.. ليختمر ببذرة الوجد!

الأحجار. الرمال. الموج الواهن المتسكع على وجه البحر في صمت الليل، وبقايا الناس... كلها أشياء تلتصق بجدار سياج الكورنيش على حافة البحر الواقف أمامه، وبساقيه المتدليتين من فوق السياج.. يطوح بالفراغ كأنه «يدوخ» ما تبقى في صدره من عشق.

وجهه إلى البحر، وأذناه لم تعودا تسمعان أصوات السيارات المنطلقة بجنون فوق الأسفلت من خلفه.

الناس يثقبون الليل بتفاهاتهم. طرقات منطقة «الحمرا» تشتعل بسرعة السيارات التي تدور حول نفوس أصحابها، وقد اختبأوا داخلها يبحثون عن الصدى في هذا الليل!

ـ (ساحر صوتها وهو يتردد في سمعه من خلفه. كانت تختبئ بظلال نفسها، وحيرة بوحها في المقعد الخلفي للعربة. كان صوتها نجمة في ضباب، وكانت تحاول أن تنتزع نفسها من الضباب في نفسها لتتناسى ما يمزقها من الداخل. لحظة رؤية للحياة ولو بالوهم. وهو أمامها.. أمام مقود العربة، وهمها الجميل الذي عايشته في خلوتها هو.. في تفجر أنينها

الذي تكبته كلما واجهت الناس وصديقاتها.. هو)!!

وما زال الناس يثقبون الليل، والسيارات تنطلق من خلفه فوق ظلام الليل، ونظراته تنطلق هي الأخرى بجنون.. لا تنظر إلى شيء، وإنما إلى كل شيء غامض مبهم.. لكنه يشع في ظلمة هذا المساء حزناً!

نظراته تسافر ولا تعود.. تدخل صدره وتحتبس!

نظراته تجسد في حدقتيه ملامح تشف وتشف حتى تتحول إلى روح..

نظراته تتخطى الأضواء الباهتة المتناثرة فوق أرصفة «الحمرا»:

تتخطى أيضاً الأضواء الصفراء المرئية عن بعد قادمة من الميناء.. صفراء كما هذا الألم في صدره، وقد افتقد ميناءه!

رأسه يدور في كل الاتجاهات..

في الصمت.. كأنه غلالة للبحر، وصرخة في أعماقه المكتومة.

في الشجن.. كأنه صدر العالم المطعون الفاسد، وعذاباته.

في اللهب.. حينما ابتدأ شمعة أضاءت جوانحه، ثم أحرقت الجوانح! الرطوبة شديدة، والهواء يلفح أنفه وصدره..

ما الذي يفر منه هؤلاء الناس الذين يتجولون عبر شوارع «الحمرا» في هذا الليل الفارغ؟!

الفراغ يفرغ الفراغ.. يفرغ السأم ويقذف به إلى البحر، وتهدأ النفوس والغرائز.. بالوهم أيضاً!

ـ (هل نتحرك إلى مكان آخر يا «ناني»؟!

من وراء المقعد جاءه صوتها قادراً على تحييد التعاسة:

ـ ولكن.. كل الأمكنة واحدة إذا اجتمعنا.. كلها مختلفة إذا افترقنا!

ـ آه.. تتحركين بصوتك في مسامي كالضوء.. تنعشين هذا المتعب المعنَّى بالحسرة ليستيقظ ويتكامل من جديد!

ـ قالت ناني: لم أسمعك تجيب. هل كنت تحادث نفسك أيها الفنان الغريب؟!

ـ قال: كنت أفكر في الظمأ. الإنسان يا سيدتي شره طماع.. يشرب الكأس الأولى ولا يرتوي ولا يكف.. يخوض التجربة ولا يكتفي ولا يحذر، ولكن.. كيف نجعل القلوب تحذر؟!

ـ قالت ناني: هل تقصد أن المكان يمكن أن يكون هو الظمأ، أو يكون هو الارتواء؟!

ـ قال: أقصد أن الشعور بالظمأ، أو بالارتواء هو الذي يعطي المكان أبعاده وقيمته.. لذلك فكرت أن نتحرك من هذا المكان لنجرب الشعور الآخر!

ـ قالت ناني: هل تشعر في هذا المكان الذي يضمنا الآن بالظمأ؟!

يبتسم كأنه يهذي.. يلتفت خلفه لينبش ملامحها من تراكمات الظلال عليها.. يقول لها:

ـ لا أستطيع أن أعرف شعوري عن هذا المكان.. إلا إذا جربت مكاناً غيره، وعرفت شعوري فيه!

ـ قالت ناني: إذن.. لنذهب إلى الرصيف الآخر الملاصق للبحر. هناك رجل يسهر الليل ليبيع السهارى الذين يشعرون بالظمأ زجاجة بيبسي.. ألا تود أن نشرب أنت وأنا من زجاجة بيبسي واحدة.. ليكون

بيني وبينك ماء وسكر مثلما بين الناس عيش وملح؟!)..

الفراغ يفرغ الفراغ.. وتهدأ النفوس والغرائز بالوهم أيضاً!

وما زالت ساقاه مدلاتين من فوق سياج الكورنيش يسترجع الكثير، وخفقاته كلها مدلاة. الذي يضيع لا يعود. الضربة القاصمة، وشاهد الإثبات في النهاية هو العقل لو بقي.

آه منه هذا العقل..!

إما أن يعود بالقناعة والتجربة، أو يتبدد في الفقد لأشياء غالية!

إنه يستعيد ذلك المساء..

كان يقف أمام باب بيته في «البغدادية». عيناه تحولتا إلى كاميرا سحرية تلتقط أغرب المناظر والملامح والتصرفات. عالم يموج بالمتناقضات: مكتبة مفتوحة لا يدخلها إلا نفر قليل.. أكثرهم يبحث عن كراريس مدرسة، ومحايات، ومساطر. طز على الكتاب والمعرفة لا يؤكلان عيشاً!.. بجانب المكتبة «سوبر ماركت» بابه مزدحم.. داخله مزدحم. يا الله.. ليت الناس يفكرون بنصف الوقت الذي يأكلون فيه.. كأن الحياة معدة!.. سيارة يابانية صغيرة تتلوى فوق الأسفلت المكسر تتخطى كل السيارات.. لماذا يتعجل الناس الموت والتشوهات؟!.. امرأتان تشيران لسائق تاكسي فلا يقف.. لماذا هو تاكسي؟!

ـ آبيه عاصم.. آبيه عاصم؟!

أخته الصغرى التي يدللها.. حلوة وشقية، لقد رعاها بعد وفاة والده. إنها كثيراً ما تدخل عليه غرفته وهو يرسم. كثيرة هي أسئلتها.. تسأله في كل مرة:

ـ من هذه المرأة الحلوة التي ترسمها يا آبيه.. هل رأيتها.. صاحبتك؟ ليه طيب ترسمها؟.. اللون الأخضر أجمل من اللون البني يا آبيه.. أنت ذوقك وحش يا آبيه.. بس لما رسمتني كان ذوقك يجنن يا آبيه!

ـ ماذا تريدين يا غادة يا شقية؟!

ـ التلفون يا آبيه يقول لك فيه واحدة تبغاك!

ـ وحدة؟.. قالت لك اسمها يا غادة؟!

ـ اسمها.. اسمها. يا خويا ما شاء الله يعني!

ـ بس يا بنت.. عيب!

ـ عيب عيب.. إنما صوتها حلو بشكل يا آبيه. بنت الكلب صوتها يسطح!!

ـ (يومها أمطرت السماء. ارتوت الأرض. يومها كان اسمه: يوم المرة الأولى. كانت «ناني» تتكلم بصوت مغموس في الحزن)!!

ـ قالت له: رأيت معرض لوحاتك. أعجبتني لوحة واحدة اسمها: الموت!

ـ قال لها وهو يلون فزعه بنبرة ضاحكة: ولماذا الموت بالذات.. ألم تعجبك لوحة الأمل؟!

ـ قالت ناني: الموت لأنه الحقيقة.. هو وحده الباهر في دنيا تلونها الأوهام!

ـ قال: لماذا اليأس.. لماذا هذه النظرة الداكنة؟!

ـ قالت: بالعكس.. إنها نظرة صافية.. أحسب أنها تضفي وضوحاً على كل نظراتنا الأخرى لشهواتنا وملذاتنا وأفراحنا!

ـ قال: لكن الحياة تحفل بالسعادة، الأمل وحده سعادة. إننا لا نقدر أن نحكم على الحياة بالموت. لا نستطيع أن ننتج ونحب ونترابط ونبدع ونتناسل إلا بفكرة الحياة.

ـ قالت: الموت يكبر في أعمارنا.. بينما الحياة تسلبنا هذا العمر!

ـ قال: ولكني أخالفك.. أشعر أحياناً بالحزن، لكنني لا أدع نفسي تضيع في اليأس!

ـ قالت ناني: تكفينا لحظة صدق.. إنها عمر كامل:

ـ قال عاصم: هل تقبلين عرضي؟!

ـ قالت: هل تريد أن ترسمني؟!

ـ قال: لأؤكد لك أن ملامح وجهك ـ رغم أنني لا أعرفها الآن ـ هي ملامح تعبر عن الفرح!!

ـ قالت: وجوهنا ليست هي نفوسنا يا عاصم .. أغلب الوجوه التي تراها هي أقنعة مزيفة!

ـ قال: والقلوب؟.. إنها ترفض الزيف والأقنعة، ومن خلال حوارك أعتقد أن قلبك مطبوع على وجهك!

ـ قالت: قلبي؟!.. إنه محارة مترسبة في عمق مناسبة حزينة!

ـ قال: كيف.. إنني لا أفهم؟!

ـ قالت: لا يهم أن تفهم الآن حتى تعرف قلبي لتستطيع أن ترى وجهي جيداً!!

❊ ❊ ❊

ليته لم يولد ذلك المساء...

لا.. بل ليته تمدد وتمدد، وبقي وحده لا مساء بعده.. هو البقاء الدائم في العمر!

لكن مساء آخر آت..

الهاتف مرة أخرى.. إنه بجانبه ينتظر بلا موعد. إنها لم تمنه. لم تعطه موعداً. إنها ذابت مع صوتها وهو محكوم بالانتظار له.. الانتظار ما أقساه.. ما أروعه!

والأيام تتعاقب..

هل قال الأيام؟!... بل اللحظات تتفسخ.. تتقشر بين أضلعه، ولا يأتي صوتها.

سئم من رنين الهاتف وهو يحمل إليه الأصوات كالكرنفال.. ألوان غير متجانسة. مفاهيم تعيسة وسخيفة.. كل صوت يأتي إلى أذنه بمأذون:

ـ هل أنت عازب يا عاصم؟!

اللعنة.. متى كانت الحياة زواجاً فقط؟!

قبل اللعنة.. هو يفتش بضنى.. هو يبحث عن أنثى لا تتخلف في شعوره جثة هامدة بعد شهور. هو متعب جداً حتى الهلاك، ولا يعثر على أنوثة تهمس بالفهم وتعزفه. العالم مليء بالنساء الفترينات. جمال يهبل..

إنما الوعي في الحس بورصة.. النتيجة فيها غالباً هي الخسارة!

ـ يا عاصم.. كم فتاة عرفت؟!

عمى.. نفس السؤال السخيف. أرأيت يا سيد عاصم.. يا أيها الفنان الكسيح إن المفاهيم كوبيا؟!

ـ كثيرات يا صغيرتي، وأسخفهم أنت!!

ويرن الهاتف من جديد.. لا بد أنها تفاهة أخرى!

ـ قال: من؟.. محارة مترسبة في عمق مناسبة حزينة؟!

ـ قالت ناني: أنت لم تنس عبارتي.. ما رأيك لو جعلتها عنوان لوحتك الجديدة؟!

ـ قال: و.. كيف أجد مكان المحارة؟!

ـ قالت: عاصم.. أنت الإنسان المريح في كل هذه الحياة من حولي!

! . . . . . . . . . . . .

ـ قالت ناني: أين ألوانك الصارخة في لوحاتك.. أنت لا تجيب؟!

ـ قال: الصمت يا ناني هو الألوان مجتمعة.. فيها الراحة والقلق.. فيها الخوف والفرح.. فيها العثور والفقد!

ـ قالت: لقد استطعت أن تلون نظراتي بألوان لوحاتك، وأن تلون أيامي أيضاً، والمفروض أنك لا تخاف.. أنا التي أخاف لأنك لا ترى نقطة واحدة في صدري لونها قاتم!

ـ قال: دعيني أدخل.. لأضيف إلى النقطة لوناً يجعلها فاتحة بيضاء!

ـ قالت: أمنيتي، ولكنها عجزي أيضاً. دع أشواقنا بريئة من إدانة الفراق لها يا عاصم!

ـ قال: هل مقدورنا أن نحيا المناسبة الحزينة طول العمر؟!

ـ قالت: عندما تعرف الحقيقة سيطول صمتك. أخاف عليك من هذا الاكتشاف يا عاصم، فدعنا نتحرك قليلاً.. لقد قررت أن أجعلك تحاول رؤية قلبي على وجهي.. إنني أنتظرك غداً بعد الساعة السابعة!

***

ليته لم يولد ذلك المساء..

«ناني» تختار المقعد الخلفي وراء عاصم.. بجانبه تجلس أخته الصغرى الشقية غادة، وخلفها تجلس أخت ناني!

ناني تبتسم في ظلال المساء. ترسل صوتها من جانب أذن عاصم تقول:

ـ هذه أختك التي حدثتني عنها يا عاصم؟.. ستصبح في العشرين ملكة جمال!

ـ قالت الصغيرة غادة: سبقتيني يا أبلة ناني.. لولا الليل لحدثت الآن أزمة في المرور!

ـ قالت ناني: يا شقية.. عاصم قال لك أن تقولي هذا الكلام؟!

ـ قالت الصغيرة غادة: آبيه عاصم؟ يا حرام.. خلاص ما يعرف يتكلم، وهو اللي كان ما في أحد يقدر يوقفه عن الكلام!

ـ قال عاصم: متى نبدأ في تأمل القلب على الوجه؟!

ـ قالت ناني: لا تتعجل الأسى يا عاصم. قلبي محروث.. لقد حرثه صوتك، وحرثته كلماتك، وحرثته ألوان لوحاتك. قلبي على وجهي.. على لساني.. في رعشة يدي، فلا تدعني أصمت في أقصر وقت!

قال عاصم: ناني.. إنني...

ـ قالت: أعرف.. إنك في الليلة الأولى التي تعرف فيها وجهي، ولكنك في الليلة الواحدة بعد الألف التي عرفت فيها قلبي وخواطري ورؤيتي!

ـ قال: هل نسكت عن الكلام المباح؟!

ـ قالت: الأرض العطشى لا يرويها مطر السحاب.. إنني لا أكثر من سحابة تعبر حياتك!!

وأغلق الصمت الشفاه.. أقفلها حتى فرغت العربة من ركابها، ولكن الصدور أخذت تنزف.. الجرح غائر وجثة!

عندما بلغ عاصم باب البيت.. سألته أخته الصغرى غادة:

ـ آبيه عاصم.. ليه الناس يسكتوا فجأة؟!

ـ قال لها: عندما يصبح الكلام سخيفاً يا صغيرتي!

ـ قالت غادة: وما هو الذي يبقى غير سخيف؟!

ـ قال لها: ذلك الصمت الذي سألتني عنه!

* * *

في المساء الآخر.. أتاه رنين الهاتف. صوت ناني مضرج بالحزن:

ـ قالت له ونبرتها دمعة: عاصم.. لا تلحدني في صدرك. صدرك لن

يكون قبراً لكل الذي أحسه بين أضلعي. صدري هو القبر، ولقد جاء الخوف يا عاصم مدوياً.. إنني فقط خفت عليك من صدري.. خفت عليك من البقعة الداكنة، هل لاحظت ليلة أمس؟.. إن كل ألوانك لم تستطع أن تضيف إلى النقطة الداكنة ما يجعلها تتفتح!

ـ قال عاصم: عرفت الآن أن يأسك أقوى من حبك!

أجهشت «ناني» بالبكاء.. قالت:

ـ لا تقل هذا يا عاصم.. حبك حياة، فكيف أضع حبك في الموت، وصدري موت؟!

ـ قال: إنني لا أدري.. لم أعد أدري.. إنني في متاهة كأنني أرسم لوحة سيرياليزم في معرض للوحات التقليدية!

ـ قالت: عاصم.. غداً أريد أن أرى الحلوة غادة.. دع أختك تأتي إلى البيت.. سأعطيها رسالة لك!

ـ قال: لا.. إنني أشعر أنك تصدرين حكماً بالإعدام.. إن خوفك شرس!

ـ قالت: لا تهرب إلى الوهم.. إنني أريد أن أنقذك.. لأنني أقولها لك للمرة الأولى: أحبك!!

ـ (ليته لم يولد ذلك المساء...

يا ذلك المطر: انسكب فوق الأرض القاحلة العطشى.. يا ذلك المطر!

تجف الأرض.. تتفلح بالظمأ، وهو لم يعد يدري.. هل كانت دفعة إلى الأمام.. أم دفعة إلى الخلف؟!

وما زال الناس يثقبون الليل، والسيارات من خلفه تنطلق فوق ظلام الليل، ونظراته تنطلق هي الأخرى إلى المتاه!!

ما زالت ساقاه مدلاتين من فوق سياج الكورنيش، وخفقاته كلها مدلاة. الذي يضيع لا يعود)!!

وفي الظلال.. من خلال أضواء السيارات العابرة، وفوانيس الشوارع المتثائبة.. ينشر «عاصم» ورقة صغيرة بين كفيه.. زمنها ساعات.. زمنها دهر بكامله.. يردد كلماتها في الشرود:

ـ (عاصم أيها الحياة..

سامحني بمقدار ما أحببتك. بشعة هذه الحياة. بشع هذا العمر. إنني أعجز أعجز. أرجوك.. دعني أقتنع أنني عاجزة لا أستطيع. أريدك لأنني أريد الحياة، ولكنني لا أمتلك هذه الحياة. سأقول لك السر.. التعاسة:

اعلم يا عاصم إنني...

يا إلهي.. إنني أتصبب عرقاً.. كم أموت في الثانية آلاف المرات.. فكيف أفقدك؟!

لكن.. لا أريد أن أظلمك، وقراري لا جدال فيه، ولا رجعة عنه. لا نستطيع أن نجعل الوهم حقيقة.. أنت حقيقتي الوحيدة، وسري هو الوهم، أرأيت كيف أعكس الحقيقة من أجلك.. من أجل حبي؟!

من أجلك يا عاصم.. من أجل النقطة الداكنة في صدري التي حدثتك عنها.. أصغ جيداً وتصبر، فاحتمالي يفوق فجيعتك.

عاصم.. يا سيد عمري: لا أستطيع أن أربط حياتي بحياتك، فأنا نهاية.. أنا طريق مسدود.. أنا موت يا عاصم.

عاصم.. سأقول لك السر: إن النقطة الداكنة في صدري هي قلبي الذي أحبك وعشقك كأنك الحياة المفقودة.. أنت الحياة، ولكنني بلا مستقبل.. بلا عمر يا عاصم. إن صمام قلبي مسدود لا يعمل.. لن أعيش أكثر من عامين.. مضى أولهما وأنتظر انتهاء الآخر. أعطاني الأطباء حكم الإعدام بين يدي، وتركوني أترقب اللحظة الأخيرة، وأخرج لساني للعلم، ولانتصاراته العظيمة، وقد جئت يا عاصم في اللحظة الأخيرة، وحبي لك يمنعك ويمنعني أن نستمر في العدم!

لا تقل إن الأطباء يخطئون.. أعرف هذا الوهم الآخر، لكن شعوري لا يخطئ.. أحببتك بكل العنف الذي ساد انتظاري للموت!

عاصم.. وداعاً يا أجمل لحظة في عمري.. هي كل العمر.. لا تستأنف الحكم.. فالحقيقة تفوق الوهم)!!

* * *

وتراخت أصابع يده.. تراخت!

وسقطت الرسالة فوق بقايا الناس.. كأنها بقايا الحياة.. فوق الأحجار، والرمال اللزجة، والموج الواهن المتسكع على وجه البحر..

إنه لا يدري.. لا يحصد الآن إلا سحل الحياة..

لم يتبق له إلا نظراته والأصداء، ولم تعد أكثر من خروم متشابكة معقدة كما شبكة الصياد.. طوح بها في اللامدى.. في لا نهاية هذا البحر الممتد أمامه كما السر.. كما التعب.. لتختلط النظرات بحروف الرسالة.. بترددات الموج الخافتة!

# ليلة الريح

**كل الأشياء المجردة... حقيقة، والحب لم يكن حقيقة كاملة.. إنه نصف الحقيقة دائماً!!**

الكلمات كانت ترحل.. مثلما الخفق في صدره ينسحب مجروحاً بالوهن ويذوي..

كانت ليلة الريح تلك.. هبت عاصفة من بين ضلوعها إلى نبضه وضلوعه المرتعشة.. تحاول أن تزرع من جديد في أعماقه: العهد.. الذكرى.. عمق الحس.. التحديق في الآتي!!

إنه يسبل جفني عينيه كأنه يصغي إلى العهد.. كأنه يحيا للذكرى في هذا التجسيد لأمتع لحظات عمره. هذه اللحظة هو يموت.. يعرف أنه يموت الآن فوق سرير هذا المستشفى بعد أن أعلن الطب عجزه التام أمام سريان «السرطان» إلى دمه، فلا فائدة حتى الآن من أبحاث العلم، ومن محاولة الأطباء للانتصار على هذا الداء اللعين.

ولكنه يعرف أيضاً أنه يموت بعيداً عن بلده.. عن حزمة أهله.. عن مراتع أحلى حياة ذاق فيها طعم السعادة، وأحس فيها بعطاء الحب المحفور في ضلوعه المرتعشة الآن بقوة الموت..

وشرع جفنيه في صعوبة، وهو يدلج إلى رحاب الموت هادئاً..

الملامح مضطربة ومموهة.. وهو يكاد أن يتعرف بالنظرة الأخيرة على وجه أمه المغسول بالدمع، وعلى وجه أبيه المغضن بالحزن والحسرة على هذا الشباب الذي يودع الدنيا في اللحظات الأخيرة. أعز الناس كانا حول سريره يتمتمان بآيات من القرآن للتصبر وللتجلد.. لكن وجهاً ثالثاً ينحني على صدره.. لا يكاد يتبين ملامحه.. يحاول أن يصفي نظرته.. أن يجلوها ليرى الوجه الذي تحفره الدموع.. فلمن هذا الوجه؟!

أتكون هي بذاتها.. هل أتت أخيراً لتودعه للأبد؟!

أيكون هذا وجهها.. هي «نغم» تشهد موكب رحيله من الدنيا بعد أن أعطاها وهج العمر، وأعطته الفرح بالحياة وهي معه، ثم تركته للفراغ، وللحسرة.. لا يفزع من هذا الموت القادم؟!

ترى.. ماذا تريد الآن؟!

خمس سنوات مضت منذ انفصلا بعد خلاف تافه.. لكنه عصف ذات ليلة بكل ما يحمله الواحد منهما للآخر من عشق.. عصف بعامين شربا فيهما الهناء داخل عش حالم دائماً!!

ـ (أبذرك في تربتي يا نغم.. كما تبذر الآهة في صدر الكليم الضائع، وقد كنت ضائعاً حتى وجدتك. تذكرين ميلاد ذلك الشعور بالوجود يوم جئت أضع الدبلة في إصبعك وأبي بجانبي.

وأبوك يبتسم ويدعوك أن تجلسي بجانب خطيبك وزغاريد أمك وأمي في صالة الفيلا كزخات المطر. يومها ـ يا نغم ـ شعرت أنني ولدت، وأن وجهك الذي أتطلع إليه كان نافذتي إلى الحياة الأحلى)!!

في أي زمن حدث هذا البهاء في العمر؟!

فواصل الأيام.. لا تتشابه مع فواصل الإحساس.. ذلك لأن فواصل الإحساس تعميق للوجد، أو إغراق تام له!!

في ذلك اليوم.. كان في صدري امتلاء بالحياة.. كنت أحاول تفسير الاقتناع بالنظرة التي تأتي من الداخل إلى الداخل ورغم ذلك فلا بد من الخلاف، ولم أكن أظنه باتراً حاسماً يفصل روحي عن حياتي، ويبذرني حنيناً تعيس المسافة والزمن.. أناديك فيه ولا أجدك. أبحث عنك لأعيدك إلى عشنا المنشرخ فلا ألقاك. وأتذكر كثيراً ما قلناه في تلك الليلة العاصفة.. ولكني نسيت السبب الذي صعَّد الخلاف. فدفعك للخروج إلى بيت أهلك غاضبة، ودفعني بعد يومين أن أخضع لرغبتك فأكتب لك ورقة الانفصال. نسيت السبب لأنه تافه بمقارنته بذلك العشق الرائع الذي حيينا به عامين..

في تلك الليلة التي لا أنساها.. أذكر حدة النبرة في صوتك، وصوت الحدة في نبرتي:

ـ (أكره أن تصفيني بالغرور.. لو كنت هذا الموصوف ما عرفتك لأن زهوة جمالك لا ينافسها غرور آخر!

ـ قالت: كل الأشياء المجردة هي حقيقة، والحب لم يكن حقيقة كاملة.. إنه نصف الحقيقة، فهو مزيج من اللمس، ومن التخيل، ومن الهمس، ومن غنى الأحلام. وأنت معي نبحث عن الحقيقة الكاملة، وأنا لا أطيق أن أراك تتفحصني كدمية عندما تكون جالساً بجانبي وخواطرك مسافرة إلى أمكنة لا أعرفها.

ـ قال: تريدين نصف الحقيقة دائماً.. تطلبين الآن أن ننجب طفلاً

وأرى أننا نسبق الزمن.. وعلينا قبل ذلك أن نضع قاعدة راسخة للحياة المادية.. لمستقبل من سنكون سبباً في دخوله إلى الحياة. تطلبين أيضاً أن نقيم الليل بالسهر والمرح وأنا لا أطيق ذلك دائماً.. لأنني لم أعد أثق بالناس.. لم أعد أصدق تلك الابتسامات الملونة، وذلك الضجيج المنافق.. بل نريد أن نكون أنت وأنا معاً.. وحدنا نحدق في نجمة واحدة، ونناقش حياة المستقبل بلا ركض لاهث، وننام مبكرين لأصحو حباً في العمل. وأطلب فيك سيدة البيت التي أجدها كلما عدت بدلاً من أن أعرف بذهابك إلى سهرة لا تنتهي إلا في الساعات الأولى من الصباح!

ـ قالت: أنت تقتات الحزن.. أكثر لحظاتك ساهماً مبتعداً بخواطرك.. بينما حياتي التي تعودت عليها هي المرح، والانطلاق، والتخلص من العقد والمواقف الدرامية.. لم أعد أطيقك قط.. ليس حباً هذا ولكنه عبودية. أريد أن أنطلق.. أن أمرح أن أرقص وأسهر فلا أعرف مسافة عمري، وأرفض أن أقطعها في التحديق، وأنت لا تعرف إلا التحديق فقط. لقد زهقت زهقت.. فاتركني)!!

وحاول أن يشرع جفنيه ثانية.. بينما الموت يأخذه رويداً إلى رحابه..

كان يحاول أن يرى وجهها الحبيب إليه.. أن يودعه في لحظاته الأخيرة لينام مرتاحاً وإلى الأبد، فقد كانت السنوات الخمس.. شاقة، جافة، هشة كورقة الخريف.. مرت به عمراً فكأنه فيها لم يكن الشاب الثلاثيني العمر، وإنما تحول إلى ركام.. تناثر اللون الأبيض في أكثر شعره، وزحفت التجاعيد إلى وجهه. سنوات مرت به حالة، أو ملابسة، ثم اقتناعاً.. اقتنع أن ما ذهب لن يعود، وأن الهروب عظمة الخائفين، وأن إسقاط الإصرار على ما أردناه أو اخترناه.. هو الحاجة إلى الاستقرار

على شيء.. بدواعي شيء آخر مفروض!!

لحظة موته الآن، وهو يرفع جفنيه ليرى حياته التي خذلته.. يرى «نغم» التي كانت تمثل امتلاء النظرة الأخيرة له إلى الحياة.. تماماً مثل اللحظة التي رآها فيها أول مرة، وكانت تمثل النظرة الأولى له إلى الحياة..

لقد تركته يومها، ونالت الانفصال الذي أصرت عليه، وحزمت حقيبتها ثم رحلت.. سافرت إلى أمريكا تلحق بخالها الذي يدرس هناك، واستقرت عنده تواصل دراستها، وتحقق لنفسها أن تحيا الحياة التي قالت إنها مفقودة في عشها الزوجي معه.. انطلقت، وسهرت، ورقصت، وعاشت الضياع والفراغ معاً.. عاشت الليل نهاراً، والنهار بدراً.

واعتقدت «نغم» أنها قد انقطعت نهائياً بأخبارها عن «أحمد» الذي أحبته وضاقت بلون حياته، فكسرت عن قلبها طوق الحب، وجفته، وسافرت إلى البعيد لتنساه، ولينساها.. لعلّها تعثر على الحياة التي تريدها!

لكن «أحمد» كان يعرف عنها كل شيء.. يتابع أخبارها.. يركض خلف جنونها بدون أن تدري بما يفعله، وبدون أن تراه.. لقد أحب مرة واحدة، وكانت هي تلك المرة الواحدة. كان يعاني أحياناً من الحنين المستعر في صدره.. كان يتوق إليها كقطرة ماء تسقط في جوف ظمآن.. كان يفكر أن يضعف، ويذهب إليها في أمريكا، ويعيدها، ويحقق لها ما أرادت: الطفل. والانطلاق والسهر، والرقص، والحياة اللاملتزمة. كان يفكر قليلاً.. لو أعادها وأعطاها الطفل الذي تريده.. من الممكن أن تنشغل به، وتتنازل عن مطالبها الأخرى، وتلتفت إلى بيتها، واستقراره. وتواجدها فيه دائماً. لو ذهب إليها.. فهل ترضى أن تعود.. أما زالت

تحبه؟!. . لو كانت تحبه ما تخلت عنه. ربما الغربة قد فعلت في نفسها التغيير وربما أخذتها إلى الأبعد وبعثرتها. . ولكنها قد تعود. .

يا لحظة عودتها. . كيف سيأخذها إلى صدره. . ماذا ستقول له. . ما الذي يمكن أن يقال لحظتها عن الأيام، والامتزاج، والعهد، وعمق الشعور؟!

ـ (عندما أحدق فتظنين أني لا أفكر فيك. . تكونين في خاطري دائماً. . ملامحك قناع وردي شفاف. . ألبسه فأرى الحياة أجمل وأروع. وأنت معي مثلما أنت بعيدة عني. . أنت دائماً نبضي، وتواجدي في الزمن وفي العمر وفي الشعور)!!

لكنه لو ذهب إليها. . فستعود معه بكبرياء مستمد من انتصارها عليه. لكن الحب ليس فيه انتصار. . الحب نصف الحقيقة. . إنما هي تريد الحقيقة كاملة، وإذا ذهب إليها فقد وجدت تلك الحقيقة كاملة، واحتوته طائعاً لها في كل شيء. لا. . إنه لن يذهب، ولماذا لم تعد هي؟!

وأمضَّه صراع قاس. . في كل ليلة يسهر حتى نجمة الصبح. . يتخيل، ويستعيد، ويحلم، وتفر دمعة من عينيه. . كأنه يناديها. . بل إنه يسترجع ذلك البوح الذي كانت تسمعه من بين ضلوعه في الشهور الأولى من زواجهما:

ـ (يا نغمي. . يا كل الشوق المتجدد دائماً في حنايا متآلفة على حبك. . أنت نعمة عمري فلا يشوهك الزمن، ولا يضعف حبنا الإصرار الأحياني المجنون على رغبة تافهة!

ـ لا يا أحمد. . كنت طفلة فكبرت في عينيك وصدرك. كنت أعتقد أن الحب يكون قبل الزواج. . صرت أدافع بأن الحب بعد الزواج أعمق

وله قاعدة.. عندما رأيتك أول مرة أحسست أنني أعرفك يوم تزوج أبي من أمي.. روحان توأمان ولدا معاً، فليست لي حياة بعدك، وليس لي عمر غيرك. سنختلف يا حبيبي على التفاهات مثلما يختلف كل الناس، ولكننا لن نفترق.. أبداً حتى لا أموت.. فأنا بدونك موت يا أحمد!

ـ لا تتحدثي عن الموت.. هات يدك تدلني على درب الحياة.. «اتركني أزهر في الخرافة» فأنت خرافة عمري.. أنت أسطورة زماني. أدخلك وأرفض أن أخرج منك)!!

ولكن «نغم» تركته في ليلة عاصفة.. أسقطت الحب في لزوجة خلاف لم يترك لهما فرصة للتحديق، وللتفكير، ورمت بنفسها في رغباتها، ورمته في فراغ العمر بقعة من سراب لا ينتهي!!

وقوي في نفسه عناده، ومكابرته، وتمسكه برجولته..

وقويت في نفسها رغباتها وجنونها، وتخليها عن الطفلة التي كبرت في عيني من أحبته!

وفي كثافة الرحيل جدف، وخاض المعاناة حتى أسقمته.. ولكن الرحيل لم يستطع أن يقتل الصورة الجميلة في نفسه.. بقيت تلك الصورة برغم السنوات الخمس، وبرغم النوى، وبرغم الحسرة على أعز ما فقد.. بقيت الصورة زاده.. بينما هي أيضاً تصدعه، وشروخه..

ـ وقبل أشهر.. قال له الطبيب: لا بد من فحص عام، ومن تصوير بالأشعة لداخلك!

ـ وابتسم في وجه الطبيب.. وهو يقول: داخلي؟!

إنني أعرفه جيداً.. إنه أصدق ما يميزني. إن الذي فيه أراه

بوضوح.. أكثر مما ستراه في الأشعة!

ـ قال الطبيب: ولكن لا بد يا أحمد.. إنني أشك في شيء!

ـ قال: لا يهم يا دكتور.. لم يبق شيء.. خلاص يا دكتور!!

لكن الطبيب أصر على ما طلبه، وحينما أمسك بالأشعة تميزت ملامحه بالكآبة..

ـ قال أحمد: ماذا ترى يا دكتور؟!

ـ قال الطبيب: أرى أن تسافر إلى أمريكا.. لا أنصح أن تذهب إلى لندن فالطب فيها يتأخر.

ـ قال أحمد: وهل الحالة خطيرة إلى هذه الدرجة؟!

ـ قال الطبيب: أرجو أن تسرع يا أحمد.. فالوقت ضيق جداً!

لكنها أمامه الآن.. بجانب السرير في أحد مستشفيات أمريكا.. في المنطقة التي هربت إليها ذات يوم قبل خمس سنوات.. لا تسأل عنه، ولا تلتفت إليه، وقد جاءها أخيراً.. وأخيراً قرر «أحمد» أن يقترب من قطرة الماء. أن يأتي إليها بكل ضعفه، ولكن ليس ضعف إرادته، وإنما ضعف جسده المتهالك المسجى.. المدلج إلى رحاب الموت..

ـ (ها أنذا جئتك يا «نغم».. وأرفض أن آخذك اليوم، لأنه ليس عندي ما أعطيه)!!

جاء «أحمد» يحمل بين ضلوعه داء «السرطان» وقد سرى إلى دمه، ولا فائدة..

بل إن «أحمد» سعيد جداً هذه اللحظة.. أليست بجانبه.. وسوف يموت ورأسه فوق ذراعها؟!

ـ أحمد.. اسمعني صوتك.. كلمني يا أحمد أرجوك.. سامحني يا حبيبي!!

وبتثاقل مرهق.. شرع جفنيه ليرى وجهها.. هذه اللحظة فقط يريد أن يتكلم.. لا يهم ما نصح به الأطباء أن لا يتكلم. إنها بجانبه.. رأسها فوق صدره.. فوق وجهه.. دموعها تغسله الآن وتكفنه، وتواريه مثواه الأخير.. أليس صدرها بيته؟!

أراد أن يتكلم.. تحركت شفتاه، ويده مخبأة بين كفيها:

ـ لا تتكلم يا أحمد.. فقط قل إنك ستعيش، وسأعود معك، وأبقى في البيت، ولا أريد طفلاً.. أنت طفلي، ورجلي، وعمري، تعبت من السهر والرقص والضياع يا أحمد.. قل إنك سامحتني.. قل إنك نسيت الخمس سنوات.. صدقني كنت أريد أن أنساك وعجزت. أردت حتى أن أكرهك وعجزت. ملأت حياتي بالصخب والضجيج.. فكان هدوؤك الذي أعرفه أقوى من الصمت والضجيج.. أحمد.. أحمد!!

رفع يده اليسرى فوق يديها اللتين تخبئان يده اليمنى وغطاهما.. إنه يبتسم لأول مرة بعد خمس سنوات.. إنه يستقبل الموت بلا خوف.. وبصوت واهن قال لها:

ـ هذه اللحظة يا «نغم» اقتنعت أنني سأحيا بالموت!

ـ قالت: أحمد.. لا تقل هذا أرجوك.. إنك تعذبني أكثر يا أحمد!

ـ قال: أليس الموت هو الذي أعادك إلي.. هو الذي جعلك تقطعين خطوات الرحيل والهروب وتعودين إلي؟!.. لو لم تسمعي أنني أحتضر ما رأيتك ثانية يا نغم!

ـ قالت: لا تقسو علي يا أحمد.. أما زلت تذكر تلك الجملة التي قرأتها همساً في أذني ونحن نجلس في بيتنا في جدة؟.. كنت تقول إن هذا التشبيه يعجبك: «واحة الصبح المعزولة» وقلت لي: إنك أنت واحة الصبح فلا تعزلي نفسك عني ولا تعزليني عنك.. لقد كنت دائماً وأنا بعيدة عنك «واحة الصبح المعزولة» عن كل شيء عندما كنت أمارس كل شيء.. فلا تذهب يا أحمد.. لقد عدت إليك، فعد إلي يا أحمد.. لا تخذل واحة الصبح!!

ـ قال: لم أخذلها يوماً، وإنما كنت منجذباً إليها حتى وهي تخذلني. انظري يا «نغم» هذه الابتسامة على شفتي.. ليست هي انتصار الموت على رغبتي في الحياة، لكنها انتصار الحياة بقوانينها، وبروابطها على رغبتك التي كانت في الضياع والهروب. طويلاً عشت يا «نغم»، وكانت حياة كبيرة في داخلي تغذي نبضي وفكري.. حياة التأمل التي كرهتها أنت.. حياة الشوق لك حتى وأنت بجانبي.. حياة الوفاء لما يعطينا إياه نصف الحقيقة، فليست هناك حقيقة كاملة يا حبيبتي!!

ـ قالت: أحمد أسكت.. أرجوك. لقد تعلمت.. علمني فراقك.. علمني الضياع والهروب.. لا تتكلم يا حبيبي حتى لا تتعب أكثر..

ـ قال: قرأت لك عبارة قبل أشهر، وكنت راحلاً إليك.. إلى هذه الأرض التي كثيراً ما راودتني نفسي أن آتي إليها بضعفي وإنهاك كبريائي لأستعيدك، ولكني كنت أعرف أنني آت لأموت هنا.. ـ قالت: أحمد.. أرجوك أن تسكت:

ـ قال: قرأت هذه العبارة: «وجهك الزمن البعيد.. وأنا عالم المسافة

القصيرة».. ها نحن الآن معاً يا «نغم» استعدتك أخيراً يا حبيبتي..

ورفعت رأسه إلى صدرها..

كانت آخر مرة سقط فيها رأسه.. على صدرها مات أحمد**!!**

# التجـــــربـــة

**ـ إن حياة الناس تكبر في الأسرار. . وتتضاءل في الرثاء!!**

عاجز هو عن الدخول في الجلد الزائف!

تعذبه الحيرة بعنفها الذي شرخ أعماقه، ويتلوى في أحشاء هذا الليل فوق سريره وحده. .

جاء منسحباً من النهار. . وقد غادر الشوارع، وحلقات السمر التي تتعالى أصوات أصحابه فيها صارخين:

ـ أربعة حكم. ألعب يا غشيم. أجننك!

ـ ويرد صوت آخر: وحدة ميه. . اكشف ورقك. .اللعبة خسرت!

عدة مرات ربما يستطيع أن يحصيها على أصابع يده. . تلك التي حاول فيها أن يسهر، وأن يجاري أصدقاءه في لعبة قتل الوقت، أو قتل الملل، وكان يقول لهم ساخراً:

ـ أنتم لا تقتلون الوقت. . أنتم تقتلون قدرة الإنسان فيكم! كان يتطلع إلى وجوه أصدقائه، وإلى وجوه زملائه في العمل، وإلى كثير من الوجوه العابرة في الشوارع. . فيشعر لحظتها وهو يحدق في تلك الوجوه، وكأنه يغمس عمره في الحياة كما كسرة خبز جافة. . وكأنه كان يريد أن ينبش

صدور الناس ليحصي ما تبقى داخلا من صدق، ومن حنان، وأن يتسلق أذهانهم ليبصر ما علق على جدار الرأس من المراثي، وأن يدق على ضلوعهم لعلّه يستعيد همسة شاردة منها. يرغب فعلاً أن يجمع دموعه فيغسل بها ذلك كله وأن ينثر ابتسامته فيسترد أشياء كثيرة ضاعت!

كان يتأوه في هذا الليل وحده، وتردد الجدران أصداء تأوهاته.

كانت تؤرجحه نوازع مختلفة.. جعلته يقف في وسطها مشدوداً من الجانبين!

إنها الحب، والمعاشرة، والالتقاء، والاختلاط.. وتتصاعد آهته أكثر.. يخاطب نفسه:

ـ إننا لا تقدر أن نجرد ذواتنا من هذا المزيج.. لأننا لو فعلنا.. لو تأكسدنا.. نتحول إلى خارطة عليها جغرافية الممارسة، ومناخ الأصداء الضائعة، وتضاريس التعامل المحصور في الرغبات أو تفرد الذاتية!

لقد خاض الكثير من التجارب.. بعضها انتهى تافهاً، وبعضها الآخر ترسب في داخله كوجع يشتد عليه ما بين حين وآخر!

ويعرف أن التجارب العميقة لا يمكن أن تتلاشى بنهاية.. لا تدفع الإنسان في محصلتها أن يقول: ليتني لم أفعل، فهذا يعني الندم، وهو ـ حتى الآن وهو يبلغ السادسة والعشرين ـ لم يندم، ولكنه يردد كلما خلا إلى نفسه فيقول:

ـ لا بد لكل تجربة في حياتنا أن تخضع زمن الإنسان للمقياس الذي تتشكل منه مجموعة التجارب!

إن حياة الناس تكبر في الأسرار، وتتضاءل في الرثاء!

وفي وحدته هذه يشعر أنه كثيف الوحدة.. متضاعف في الرثاء..

كان يصغي إلى الحيرة في نفسه.. يتمنى لو كان يعرف حقيقتها؟!

ومن صفاته التي أحبها في نفسه، وجافاه الناس بسببها: اتهام أصدقائه له أنه إنسان «وحداني» يميل إلى العزلة، والخلوة الطويلة إلى نفسه!

إنه لا يقحم نفسه في أمور الناس.. لا يتطلع إلى محاكاتهم.. إنه شيء سلبي في رأي الناس، ولكنه في رأي نفسه: إنسان يتاخم الشفق، ويجرح الأبعاد، ويصير المسافات من العمر وجعاً في الكشف عن الحزن، وألماً في الامتلاء من الشعور!

ويتذكر تلك الأمسيات.. عندما يعود إلى البيت مبكراً، ويرى شقيقته الوحيدة قبل أن تتزوج وهي تشاهد التلفزيون وبجانبها مجلة، والخادمة تغسل الأوعية في المطبخ، ويسلم على أخته بفتور، وتقترب منه تسأله:

ـ هل أحضر لك العشاء؟!

ـ ويقول لها: أخبار نفسيتك إيه؟!

ـ وتقول له: عايشين!

ويعتذر لها عن العشاء، ويدخل إلى غرفته مستأذناً منها بتعبه!

لكن هذا المساء سيطول حواره مع نفسه.. وكأن أنفه قد تورم.. لأن الناس قالوا عنه: إنه لا يرى غيره. أما إحساسه فكأنه يتبلور تجربة جديدة قادمة تختلف عن كل ما عبره أو تجاوزه، وعن كل ما شعر به وتلاشى، وكأنه أيضاً يحاول القفز فوق الحيرة.. أن يفتتها ليخلص إلى حل، أو إلى قناعة بكل ما رفضه في الماضي، وإلى تقبل لكل ما سيأتي!

وبكل ملابسه.. قذف بجسده على السرير يحفر بنظراته سقف

الغرفة.. إنه يحاول في هذا التأمل أن يطرح الزيف الاعتيادي المكتسب من علاقاته بالناس.. فالإنسان أصبح في ظروف هذا العصر يخضع لهذه القاعدة:

ـ أنا لست مع نفسي، ولست ضدها!

وفكر طويلاً.. مضت ساعة من الزمن، وساعتان، وهو لا يحس بهذا الزمن السلحفائي.. وهمس لنفسه:

ـ ترى.. هل قلت إنها تجربة؟!

نعم.. إنها تجربة، ولكن.. وما كانت التجربة أكثر من مغامرة تدغدغ الذات، وتنعش الأنانية بعض الوقت، وتبرد الغريزة، ثم تستدعي فينا الدواعي النفسية مثلما نادي القطط لتألفنا!

وقرر الآن أن يفعل شيئاً:

ـ الآن يا مجنون؟.. أثبت. المزيد من التفكير لئلا تندم!

كان يحادث نفسه كمخبول.. لكنه يريد أن يقطع بالرأي، ويحسم التردد، ويختبئ في جوف حصان طروادة ليختار الوقت الذي يجعله قادراً على الوثوب فوق ظهر الحصان، وينطلق بأحلامه.. حتى أحلامه كان يعاملها مثل الناس.. بالوحدة، وبالعزلة، وبالهروب منها!

وعاد يتساءل: ولكن.. هل هي مغامرة، أم هي تجربة تختلف عما سبقها؟! أوه... اللعنة على هذه الحيرة. كل الأسئلة كالشوك، وأهم ما يحرص عليه أن لا يخسر مستقبله!

إنه ناجح ومتفوق في عمله..

وفي حوافزه لبناء الإنسان المتكامل في داخله.. يعتقد أنه قد حقق

شوطاً بعيداً. . درس، وتحصَّل على شهادة جامعية، ونمّى تجارة والده بعد رحيله عنه، ويحب القراءة بقدرة تجعله يفصل بين طموح التجارة، وضرورة غذاء العقل والروح، ولكنه لا يريد أن يصبح نجم مجتمع، فهو يكره الزحام، وفي خلواته مع نفسه يبلغ مراقي الأفكار المشعة، والشعور الذي يرغد نفسيته ويغذيها!

ولكن. . إلى متى يزيف أحلامه ويدعها تغذ في المتاه؟!

وهل كل أحلامه محصورة في وجود أنثى في حياته؟!

ربما الآن. . هذا هو المطلب المباشر والهام، فحياته المادية ناجحة، والحمد لله كلها متيسرة وزيادة في الأرباح. وهذا العام استطاع أن يثبت قاعدته التجارية ويكسب الكثير. . وقبل ذلك كان منقوعاً في الاحتياج المادي. . أو أنه كان إنساناً متوسط الدخل. . رضي بما وجد عليه نفسه بعد أن رحل والده وترك له تجارة مضعضعة بعد عدة سقطات وخسائر. ولم ينل اليأس من عزيمته وتصميمه، وخرج من الأزمة، وانطلق كرجل أعمال ناجح!

وعندما مات والده. . لم يكن يشاركه في بيته سوى أخته التي تصغره، وقبل عام. . احتفل بزفافها إلى شاب يحمل الدكتوراه، وتنفس الصعداء، فالآن قد ضمن مستقبل أخته وحياتها، والآن يستطيع أن يفكر في نفسه، وأن يكمل النقص الذي يجعل حياته باهتة، والآن يختار الأنثى التي تملأ قلبه وحياته بالحب وبالحنان وبالأطفال، وترسم معه درب المستقبل الجديد!

الآن. . يمكن أن يطوح بكل التجارب السابقة المؤقتة، ويتلفت بحثاً عن التجربة العميقة التي تصبح بذرة لشجرة العمر!

وحينما كان يختال في أمانيه.. أيقظه جرس الباب من هذه الرؤى الرومانسية:

ـ ترى.. من يقرع الجرس، فأنا لا أتوقع زيارة أحد؟.. وأكثر أصدقائي ينفرون من زيارتي، فأنا لا أتحدث في الكرة وأكره ذلك، وأنا لا أحب كثيراً أن أستعمل الوقت كثور هائج أعامله كمصارع الثيران، فإما أن أقتله بدون أن أستفيد منه وبوحشية، وإما أن يدهسني بحوافره وأقضي!

وتثاقل على نفسه.. يخطو إلى الباب وصوته يتقدمه: حاضر سأفتح!

ثم كانت المفاجأة.. أخته تقف أمام الباب وقد بللت الدموع وجهها، واحتضنها، وأجلسها على حافة سريره حائراً فزعاً.. يسألها بإلحاح:

ـ ماذا حدث.. تكلمي.. أخبريني!

وما زالت أخته تواصل البكاء بنشيج:

ـ قال لها: لم تمض على زواجكما ستة شهور بعد.. فماذ حدث؟!

ـ قالت أخته: إنني لا أطيق هذا الرجل.. إنه أناني في كل شيء. إن شهادة الدكتوراه التي يحملها قد رمته أبعد من سور منزله، فهو لا يتكلم إلا عن قيمته في المجتمع، وعن علمه الواسع، وعندما يكتب مذكرة في البيت.. أصحح له فيها أخطاءه النحوية!

ـ قال أخوها: لا تبالغي وأنت في غضبك؟!

ـ قالت: صدقني، فأنا لا أكرهه، ولكن طريقته تجعلني أمقته، ولقد تحملت الكثير من سخافاته، لكنني ما عدت أحتمل طالما أنني أسمعه وأراه يتكلم من أنفه.. إن له أنفاً أكبر من الدكتوراه، وفي نفسيته قدرة على تعذيب عفوية الآخرين بما لديه من عقد لا تحصى!

ـ قال لها بعد أن هدأ توترها: عودي إليه، فهذه مهمتك.. إن البسطاء دائماً هم أصحاب الأدوار الصغيرة التي تؤثر وتغير في التصرفات المرهونة بمركز، أو بحالة، أو بانتفاخ. احتملي عدم قدرته على أن يكون إنساناً طبيعياً.. بقدرتك على البقاء بجانبه في واقعك الإنساني، ودورك كزوجة، وإلا.. فسوف يطلق كل النساء في أيام الزواج الأولى!

* * *

وأحاطته الوحدة من جديد.. داخل جدران الغرفة الأربعة. لقد استطاع أن يقنع أخته بدورها الصعب وهو يعرف أنها تحب زوجها ولا بد أن تنجح بالحب!

واختال في تحديقه وجه الأنثى الذي حفر في عينيه، وفشل أن يبدده!

ترى.. هل يتحول ذلك الشعور الذي أحس به يومها ينغل في عروقه.. فيصبح لا أكثر من ذكرى جميلة تطوف به في ليالي الوحدة والملل؟!

إنه يستعيد ما كان:

ـ (قبل أربعة شهور.. كان ينجز عملاً تجارياً له في إيطاليا، وشعر بعد إتمام صفقته التجارية بالرغبة في الراحة، وبعفوية قطع تذكرة إلى لندن.. لعلّه يقضي وقتاً طيباً في الريف الإنجليزي، وفي اليوم الأول له في لندن.. أراد أن يطوف المدينة ليتفرج، ثم يختفي هارباً في الريف. وأتعبه التجوال فدخل متجراً كبيراً، والتقى هناك بزميل قديم له في الدراسة، وتعارفا بعد تلك السنوات الطويلة، وقدم إليه صديقه امرأة في الخمسين: أمه، وفتاة في العشرين: أخته، وساروا جميعاً في حوار متشعب غير مترابط، وأصر صديقه أن يتناول معهم الشاي في مسكنهم.

وهناك.. سألها عن دراستها، وشعر أنه يضطرب.. لقد ارتج عليه وهي تقول له:

ـ حصلت في بداية هذا العام على الدكتوراه!

وخفضت رأسها حتى كاد يلامس صدرها النافر، وقد شاع في وجهها خفر العذارى.. أما رأسه المرفوع، فيحس به متطوحاً في فراغ شاسع، ولكنه حاول أن يتماسك، وسألها مجدداً:

ـ ماذا كانت رسالتك؟!

ـ قالت: أخذتها في الأدب الإنجليزي!

ـ قال مبتسماً: أما أنا فلا أملك إلا البكالوريوس، ورجل أعمال يحاول أن يكون ناجحاً:

ـ قالت: اللغة الإنجليزية تفيد كثيراً في التجارة!

ـ قال ضاحكاً: بشرط أن لا نتكلمها بأسلوب شكسبير مثلاً)!!

* * *

وحمل معه إلى البلد أصداء تلك الضحكات البريئة الصادقة، وقد تجمعت من قلبين.. أحدهما يصارع أشتات الحيرة والحنين، والأسئلة التي لا تنتهي!

كان يتكئ برأسه على الوسادة ويحدق في ظلال الضوء المنعكس:

ـ هل هي مغامرة.. هل هي تجربة.. هل تكون مجرد حلم يتحول الآن إلى وهم ماتع بهيج؟!

الأسئلة لا تكفي، واستطرد يحاور نفسه:

ـ هل هي الحياة الحقيقية القادمة.. وهل أخرج الآن من داخل حصان طروادة وانطلق لخطبتها؟!

قدماه ترتعشان.. قلبه يدق كمنفاخ.. كجرس يضغط عليه إصبع قلق:

ـ ترى.. هل يمكن أن تكون شهادة الدكتوراه في نفسها.. مثل شهادة الدكتوراه في نفس زوج أخته؟!.. كان لا بد أن أكتشف.. أن أجرب عفويتها.. أن أسبر أغوارها.. أن ألاحق أفكارها عن المستقبل والحياة الزوجية!

وكيف يكون التعامل بين أنثى تحمل الدكتوراه، ورجل لا يملك إلا البكالوريوس.. هل يشكل هذا فارقاً، وتأثيراً على العاطفة الإنسانية؟!

أبداً.. لماذا هو يصعد الحكاية بهذا الشكل المدمر؟!

ـ ألا تهدأ.. فكر طويلاً لتصل إلى قناعة تامة؟

يحادث نفسه كما مجنون، ويرد عليها:

ـ وإذا هدأت وانتظرت، وطارت الطيور وخطفها من هو أسرع مني خطوة.. ما الذي أفعله حينذاك.. كيف أكون بعدها؟!

بعدها؟!.. أنت تحبها بالفعل، ولكن.. الدكتوراه.. أوه.. أوه..

* * *

وقرع جرس الباب!!

ـ يا ألطاف الله.. اللَّهم اجعله خيراً..

وخلف ضلفة الباب كان وجه أخته!

عرك عينيه يحاول أن يثبت رؤيته:

ـ ماذا أيضاً. . فشلت خطتنا؟!

دخلت أخته هادئة لا تنبس بكلمة. . وهو يركض خلفها متسائلاً:

ـ أريد أن أرتاح. . لماذا هذا البرود؟!

أضاءت الابتسامة وجه أخته، وأخذت يده إلى يدها قائلة:

ـ بارك حياتي يا أخي. . أخيراً. . لقد تخلصت من مقتي لزوجي. كان كل تفكيري أنني أحبه حقيقة، وحاولت أن أفهمه، وبسطت له كل شيء في نفسي، ففهمني، وأقنعته بالنقاش، وإن كل إنسان يحمل عيباً، ولا بد أن يعالج عيوبه وهي ستقتله إن لم يذوبها، ولا بد أن يواجهني بعيوبي، ونحن الآن من أسعد الناس. . لقد انتفعت بكل ما قلته لي. . لقد جئت إليك بفرحتي، فأنا حامل!!

وركض يجري إلى غترته وعقاله، ويرتدي ثوبه على عجل، وأخته تفغر الفاه مندهشة:

ـ ماذا حصل يا أخي. . ما الذي ستفعله؟!

ـ قال لها: أنت حامل، وهذا خبر سعيد، وأنا ألقيت كل حملي وهذه نتيجة سعيدة. . لقد نجحت التجربة. . نجحت!

وانطلق يجري نحو باب الخروج، وأخته تلاحقه وتنادي عليه:

ـ أخي. . ما هو الذي نجح. . أية تجربة. . إلى أين أنت ذاهب؟!. . تمهل فتأخذني معك إلى بيتي!

صوته بقربها في العربة يغني: ذاهب إلى التجربة الحقيقية. . ألا يسعدك أن أتزوج الآن؟!!

# سطر . . . بدفء الكون!؟

# إهــــداء

كل سطر في هذا الكتاب، من دفء الكون... هو سطر أهديه إلى "برودة" عواطف الناس.. في لهب انفعالاتهم وتوتراتهم!

إلى الباحثين عن "دفء" المحبة الضائع في حرائق البغضاء...

إلى (الإنسانيين)... المتولهين على صبابة من رؤية، تدلهم على الطريق..

أهدي هذا الكتاب... السطر !!

**عبد الله**

# شهادة على الكاتب . .
# لا . . الكتـــاب!

**بقلم: فواز عيـد**

أشهد: أنني قبل بضعة عشر عاماً، قد لمحت أصابعه الدقيقة تنغمس بحذر في الماء الساخن. . . لتأخذ درجة حرارته على عجل، ثم تولى هارباً إلى "الحب".

أشهد: أنني قد لمحت قبل بضعة عشر عاماً شاباً يحاول أن يخرج من "البحر الأحمر" إلى الأغنيات، والصيف، والشفاه المزمومة. . ولكنه بعد كل جولة خروج. . كان يعود صريعاً إلى الموج، وفي يده قلم مرتعش حي.

أشهد أنه: بعد أن صار صديقاً. . وصرنا أصدقاء أنه كان يستطيع أن يموت مرتين كل يوم. . ليكون لديه الوقت الباقي كله: للحياة أبداً وللحب أحياناً. . حين يكون قادراً على الالتصاق بجناح فراشة لا يثقلها كثيراً. . حتى يستطيع معها أن يتعلم الرحلة، والهروب، والدفاع عن النفس، بعرض الأجنحة المختصرة لحديثه.

أشهد أننا حين كنا نزوره مرة في الشهر، مرة في السنة. . أشهد أنه كان يطمئن لغياب الشهود عنه لنلمح قدمه وهي تحاول أن تتسلل إلى الشارع العربي. . إلى الهموم العربية. . إلى الأحزان العربية. . إلى الياسمين العربي المكدس في الغد، ولكنه يظن بنا الظنون، فيتراجع على عجل. . لنضبطه في وضع مريح أكثر. . في وضع أي حب. . أية أحاديث جانبية. .

أشهد: إنه كان يستطيع دائماً. . يستطيع أن يأخذ كتاباً جديداً يقرؤه، ويستطيع أن يجد الوقت. . بعد السهر، بعد الأصدقاء، والبحر، والمقاهي الصحراوية. . يستطيع أن يجد الوقت، ليكتب شيئاً عما قرأ، وأن يملأ كل يوم صفحة كاملة في جريدة، لتنفتح العيون على الثقافات الجديدة. . على الحياة الجديدة. . على العالم الجديد. .

عالم "عبد الله الجفري". . العالم الخجول الواعي الذي تجاوز زمن الخجل البريء، إلى زمن الخجل الواعي. . الواعد. .

أهذه شهادة له. . شهادة عليه؟!

شهادة مريحة للذين يحبون كتاباته، أم شهادة تكثر السهام في جعبة من لا. .؟!

الأمران سيان. . لأن كلاً منهما كان بحاجة إلى صوت شاب يقرؤه. . صوت يخرج بثقافة جديدة. . يخرج من زاوية ضيقة محاذرة؟!

أو يستلقي بكامل وجداناته على صفحة جريدة كاملة، مخاطراً هذه المرة بالبوح الموارب.

صوت كان ضرورياً أن يأتي، بعد جيل الرواد الشيوخ.. جيل: العواد.. وشحاته والزيدان.. وابن إدريس، وضياء، والآخرين من السابقين..

جيل.. كان فيه من يرعى كتابات هذا "العبد الله جفري" وكان فيهم من يود لَوْ شطبها بقلم أستاذ غاضب، ولكن كلاً منهما كان يعرف أن صوت هذا الكاتب الشاب، كان قد بدأ يُسمع جيداً ويتابع جيداً من جيل جديد.. مشغوف بالكتابات الجديدة والثقافات الجديدة.

ومهما يكن من أمر "فعبد الله الجفري": الكاتب، القاص، القارئ الجيد، الصحفي الساهر دون ملل.. عبد الله كان صوتاً من بضعة أصوات جديدة، لا يمكن المرور بها بسرعة عند دراسة الأدب السعودي، لأنه مع الآخرين من أقرانه يشكل مرحلة هامة من هذا الأدب، لا يمكن شطبها، أو الإعراض عنها بسهولة..

وبعد.. فها أنذا ـ على غير العادة ـ أحاول أن أقول كل شيء عن الكاتب ولا أقول شيئاً عن الكتاب.

لماذا؟

ربما.. لأن المعرفة الحميمية لإنسان تخجل النوايا الخبيثة المبيتة.. وربما لأن قراءة الكتاب تبقى من حق القارئ نفسه، دون مرشدين.. من حقه أن يقرأ، وأن يتوقف معجباً أو غير معجب!!

من حقه.. ألا يتبع الوصايا الأدبية التي توضع عادة في أول الكتب، وربما.. لأنني أعرف تماماً تلك الفترات التي كتبت بها هذه الإشارات.. هذه الإغراءات بقراءة الكتب التي كان يتعامل معها "عبد الله جفري"..

في وقت مبكر . . والتي لم يعد كثير من قراء اليوم يتعاملون معها كثيراً .

ربما لأن عالم الكتب لم يعد عالماً لهم، وربما . . لأن الزمن صار ضيقاً، بحيث لم يعد يتسع لقراءة كتاب جديد! .

**دمشق ـ تموز/ فواز عيد**

# سطر. . بدفء حمامة!

## (١)

• هذه الليلة لها!!

ورغم هذه "الملكية" الخاصة بها فيه. . إلا أنها ـ هذه الليلة ـ ترفضها. . تهرب منها. تتحاشى صوته، حتى لا يطلب منها خصوصية الحوار، وخصوصية النظرة، وخصوصية الوقت الذي يضمهما معاً. . دون أن ينغص صفوهما، وتوحدهما عزول، ولا شريك!

ولكنها ـ هذه الليلة ـ لا تريده.

احتارت كيف تصده. . دون أن يغضب، أو أن يحنق عليها!

انفعاله سريع جداً.

وهي الآن تسترجع بعض كلماته لها:

ـ صدقيني. . أنا لا أفتعل الخصام معك، أكثر من هذا الحرص. . فإنني ألوم نفسي كلما أغضبتك، أو آلمتك، أو مارست استفزازي عليك.

ـ سألته: ولماذا تستفزني. . تحطم أعصابي، فأثور عليك؟!

ـ أجابها: لعله الحب الشديد لك، والغيرة عليك. . هذه التي تحرقني في اليوم مئات المرات. .

ـ قالت: ولكن. . لماذا تغار. ألست تثق في مشاعري الخالصة لك، ألا تحس أنك "الرجل" المتربع في سويداء قلبي؟!

**(٢)**

استرجعت هذا الحوار المبتدأ بينهما، والمتواصل دوماً. . كلما احتدت الكلمات.

وساءلت نفسها مندهشة في منتصف هذا المساء:

ـ حقاً. . لماذا أرفضه هذه الليلة؟!

لم تقدر أن تفصح عن شعورها المفاجئ هذا في أذنيه.

وشغلتها الحيرة، ورمتها في هواجس عديدة، وفوق أسئلة مدببة!

إنها تعرف نفسها جيداً.

ليست هذه المرة الأولى التي ترغب فيها أن تخلو إلى نفسها، وتنعزل عن مجتمعها، وصديقاتها، وهواتفها.

مجرد "حس" غير عادي. . يدفعها أن تدخل إلى غرفتها الخاصة، وتغلق الباب عليها من الداخل، وتتدثر بلحاف سريرها جيداً، وتشرد بها أفكارها، وهواجسها، ومعاناتها، وهمومها، وطموحاتها، وأحلامها.

زحام عجيب من الصور، والمواقف، والأصداء.

وزحام أكثر كثافة. . في استرجاع جانب من شريط العمر، والذكريات، والتجارب.

وقد شعرت بحميمية لصيقة بأن تعيش هذه الليلة مع هذا الزحام الذي توافد على نفسيتها، وتذكرها، وتأملاتها.

ـ وعادت تسائل نفسها: هل هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أهرب من لقائه، والجلوس معه، والدفء الذي أحسه دائماً بقربه؟!

ربما كان هذا السبب دافعاً منطقياً لرفضها.

ويخايلها سؤال آخر.. ما لبثت أن ابتسمت لهذا السؤال في أصدائه!

ـ ترى.. هل برد حبي له؟!

اختلجت قليلاً، وسرت هذه الرعشة تلف جسمها الممشوق.. وكانت ابتسامتها مرتبطة بهذا الخاطر الذي فاجأها، وبتخيلها لشكله هو.. حين يعرف أنها قصدت ألا تراه هذه الليلة، فيبادر بانفعاله المعهود أمامها، ليقول لها:

ـ لابد أن الملل قد اصطادك.. أصبح حبي عادياً في حياتك، وشعرت أن عاطفتك نحوي قد أصيبت بالصميم، وبالثلج!

**(٣)**

حتى الآن.. مازالت تعاني من حيرتها، أمام هذا الموقف الصعب!

هو الذي أبلغها بقدومه. هو الذي جذب إصغاءها، وغسله في دفء صوته، حينما كان يصور مدى اشتياقه لها.

تذكرت الآن شيئاً مهماً.. لعله فسره بطريقته المعتادة!

فعندما كان يتدفق صوته في سمعها.. معبراً عن حرارة اشتياقه لها، كانت هي ـ على الطرف الآخر ـ تتلقى هذا التدفق باعتيادية ملحوظة.. لم تكن تتجاوب مع دفء عباراته وتعبيره، ولكنها كانت تصغي، وكأنها مذهولة، أو شاردة بعيداً، بعيداً عنه!

ـ صحيح. . ترى ماذا حدث لها؟!

كانت تشتاق إليه كثيراً. . تتمنى أن تراه كل لحظة. تغار عليه من وقته الآخر الذي يقضيه بعيداً عنها، ويتحدث مع غيرها.

كانت تسأله: متى ستأتي؟!

هذه الليلة بالذات. . سقطت في الحيرة، والاستفهام، والدهشة.

هل من المعقول أن عاطفتها قد فترت نحوه؟!

إنها تحبه بكل إحساسها. تفكر فيه كل لحظة. تتخيله. تركض إليه كلما دخل عليها.

فماذا حدث هذه الليلة؟!

لعلها ضاقت ذرعاً بأسئلته المتلاحقة. بغيرته الحارقة. بملاحقته لها.

المرأة تحب الرجل الذي يغار عليها، ولكنه ـ أحياناً ـ يعذبها. لا. . بل هو يعذب نفسه أكثر من نفسها. يتألم. يثور. يحترق. ومرة رأته يبكي!

قالت له: لا أحب منظر الرجل وهو يبكي. . المرأة فقط ـ هي التي تبكي! ـ

ـ قال لها: الرجل لا يبكي دائماً مثل المرأة، ولأبسط الأسباب. . لكنه يبكي في الصدق. يبكي في القهر. يبكي في العجز. يبكي عندما يحب بأعماق قلبه، وهذه الدموع لحظتها تنزلق من أجله حتى لا ينفجر. . حتى لا يتسلط. . حتى لا يتحول إلى ألم مضاعف. . لذلك هو يبكي!

لماذا تتذكر كلماته الآن. . وهي التي أصرت هذه الليلة أن ترفضه؟!

ـ يا الله. . إنني أكـاد أنفجر.

أريد الإجابة الحقيقية التي تفسر تصرفي هذا. عـذاب أن لا نعرف: لمـاذا فعلـنا تصـرفاً مـا!

(٤)

رن جرس الهاتف بجانبها. . بقيت تتطلع إليه. ما زالت في قمة حيرتها: ترد، أو تصمت؟!

لم تستطع المقاومة. اشتاقت إليه رفعت سماعة الهاتف. فوجئـت بصـوت صديقتها، قالت لها مازحة:

ـ غريـبة. . تليفونك غير مشغول!

حتى صـديقتها القريبـة منها لا تريـد أن تثرثر معها. أنهت المحادثة بسرعة.

أطفأت ضوء "الأباجورة"، وبقي ضوء التلفاز وحده يواجهـها، ولكنهـا لا ترى الصور على الشاشـة. هنا في رأسهـا شاشـة أكبر. صور مختلطة ومتناقضة.

فشلت أن تنفي هذا الرجل من تفكيرها. وفشلت أن تجد إجابة عن سؤالها: لماذا لا تريده هذه الليلة؟!

كانت مدعوة عند صديقة لها. . تحتفـل بميلادها. حتى هـذه الدعـوة رفضتها في داخلها.

ـ هل هي متوترة؟!

ـ أبداً. . . إنـها تنعم باسترخاء نفسي فقط. . . تريد أن تبقى مع

نفسها. وحدها وصمت غرفتها. وحدها وأفكارها وحدها وما ترغب أن تسترجعه من أعماق نفسها، ولا تبوح به لأحد!

تعرف أنه دائم الأسئلة إلى حد الاستفزاز معها. يسألها عن شريط حياتها. عن ذكرياتها. عن ارتباطاتها والتزاماتها.

ـ يقول لها: أرفض أن أبقى في حياتك نداء تطلقينه حين تريدين، وفي نفس الوقت تحتفين بنداءات الآخرين عليك.. تخافين أن يتألموا من رفضك لمشاعرهم!

ـ تقول له بحدة: المشاعر لا تمنح إلا لشخص واحد. قلبي لك. وحدك تسكنه.. فلماذا لا تصدق؟!

ـ يقول لها: ولكن اهتمامك بالآخرين يماثل اهتمامك بي، إصرارك على استمرارهم في حياتك.. مشاركة لي في عواطفك!

ـ تقول له: إنني لا أطيق إيلام أحد. إفهم هذا جيداً، ولا تكن أنانياً.

## (٥)

استوت فوق سريرها.. كأنها تذكرت شيئاً. قالت لنفسها:

ـ لو اهتم هو بامرأة أخرى غيري.. ماذا كنت سأفعل به؟!

هذا سؤاله الدائم لها. لكنها تحبه هو. تسكن إليه هو. ترتاح معه هو!

وحاصرتها الأسئلة. عصفت بها الحيرة. شعرت بصداع شديد.

لقد رفضته هذه الليلة، فثار.. اهتاج، وأخذ يهذي بكلمات جارحة!

أحزانها تتعاظم، وتتصاعد بعد ذلك من حشاشتها.

ولكنها قررت أن تكون هذه الليلة لها. . كأنها "حمامة" بيضاء وادعة، تفر إلى الدفء من ثلوج قاسية تتراكم صقيعاً في صدرها.

يحتاج الإنسان في لحظات شفافة إلى التوحد مع نفسه. . إلى سماع داخله. . إلى مراجعة مشواره الطويل.

لقد ظن أنها تكرهه هذه الليلة. . لكنها كانت تفر منه كحمامة، لتعود إليه بعد ذلك كعش!

إنه الفرار من اقتحامه لحياتها. . من تسلطه على مشاعرها وأفكارها. . من أنانية امتلاكه لها!

## (٦)

لقد انتهت الليلة التي لها. . ولم تكن أكثر من سطر بدفء حمامة!

وبقيت الأسئلة تتجدد مع الصباح القادم، وحيرتها تتضاعف. . كأمواج بيضاء، تتدافع من وسط البحر، لتتكسر عند شواطئ نفسها!!

# سطر . . . بدفء راحة!

تقت إلى الإجازة من العمل من التفكير . . . من التحديق . . من "الكلام" المرهق فوق أرصفة الدنيا، وعبر هواء هذا الكون!

فكرت أن أسرق نفسي من التزاماتها، وانطلق بها . . كوصف الشاعر المغربي المبدع "عبد الجبار الدوري" وهو يترنم قائلاً:

"حيرى . . تميسين من حولي، كما نفرت . . يمامة الصيف . . من قوس لصياد"!

وضحكت! . . . إذ كيف أشبه النفس بـ"يمامة الصيف"، والشاعر كان يقصد حبيبته؟!

أريد بالفعل أن أنطلق إلى ميادين العالم . . أنتثر على "ماء النوافير" كما يقول الشاعر "فواز عيد"!

وسكنت في التأمل لحظة . . فاكتشفت أنني أتذكر أبياتاً، ومقاطع من الشعر . . ربما تعمق معاناتي أكثر، وأنا أرغب في الابتعاد، والركض، وفقدان الذاكرة العربية من رأسي لفترة محدودة.

ولكن الانسان محكوم بالتعود . . حتى عندما يفكر في "انتزاع" إجازة له . . يهرب فيها من العمل، والالتزام، ومن المعاناة.

وقبلت بالإجازة في الحلم بالتخيل، ولكن.. حتى الأحلام قد تحولت إلى التزام!!

فهل رأيتم مقدار ما بلغه الخوف في النفسية العربية؟!

وتساءلت: لو أردت أن أدلل نفسي، وآخذها في إجـازة، ترى.. إلى أين أذهـب بـها؟!

هل أذهب بها إلى دولة عربية فقدت ذاكرتها؟

أم أذهب بها إلى دولة أوروبية فقدت أمانها، وتكره "العربي" وتتلمظ على فلوسه، وتخدعه، وتسحقه في زحامها؟!

أم أذهب إلى دولة ثالثة تعاني من فقدان التنمية والتطور؟!

* * *

إن الأسئلة التي تتوالد في أذهاننا. لابد أن تكون لكل الأعمال التي نقوم بها، والتي (نرتكبها) في يومنـا، والـتي نتمناها، والـتي لا نستطـيع الابتعاد عنها.. حتى لا يجهلنا اليوم الذي عشناه، ويتحول إلى "بصمة" فوق أعمارنا، وأعمالنا!

وتساءلت ـ مستطرداً ـ كما يفعل أي إنسان طبيعي! ـ لماذا أدع نفسي، وتفكيري نهباً لتلك الأسئلة؟!

أليـس في مقدور الإنسان أن يحيا الأيام بالطول وبالعرض.. كما بقية التائهين في خديعة الوهم الكبير التي اسمها: الحياة؟!

ألا يمكنني أن اعتقد بأنني هذا الإنسان الـذي يقـدر على القهقهة متى أراد، ويقدر على الانتصار متى أراد، ويقدر على تجسيد أحلامه؟!

لكن هذا الإنسان نفسه يعجز عن الابتسـامة أحياناً، عندما يحتاجها. . فكيف أجيب إذن؟!

بل هي أسئلة تطرح يومياً على جميع النـاس، وعلـى جميع الشعوب، وعلى قادة هذا العالم المتفجر، وحتى على العشاق!. .

وغالباً ما تأتي الأجوبة عن الأسئلة البسيطة بكثافة من الأسئلة المرهقة!

إننا من أجل الابتعاد عن ركود النفس، ومللـها، وملـوحتها: نجـري، ونفتـرق، ونغتـرب، ونضـيع في الزحام، وننشغل بالبسمة العابرة، ونرفض أن نقلد العجائز في النوم المبكر، ولا نحتمل صبر النفس على الاستلقاء والتأمل!

* * *

وحاولت أن أستغرق في حلم من أحلام اليقظة!

لكني ما لبثت أن "فزيت" هلعاً من حكاية استقرت في ذاكرتي، وكانت عن فتاة فلسطينية في "الخليل". . أخذت تستعد لفرح عمرها في زحام آلام وقهر أمتها ثم ـ فجأة ـ جاءها الناعي بخبر موت خطيبها الذي سقط صريعاً برصاص اليهود!

وجففـت دموعهـا، ورحلت لتنضم إلى "الهلال الأحمر" وتحولت إلى فدائية!

وذات ليلة. . جلست تبكي كل رجل فلسطيني أخذته لعبة الانشقاق والخلافات، وشعرت أن ما تبقى من أحلامها قد تلاشى!

وتذكرت هذه الحكاية القصيرة جداً، وكان لابد لي أن أتساءل ثانية:

ـ ترى. . ما هي أخبار المقاومة الفلسطينية، وأخبار القمة العربية،

والتضامن، والوحدة، والاجتماعات الدائمة؟!

ـ أجبت نفسي: لا أعلم.. وكل أولئك لا يعلمون!

وتخيلت شكل المقاهي العربية، وتساءلت:

ـ هل مازال العرب يشربون القهوة سكر زيادة، أم قهوة مرة؟!

بقيت ـ وحدي ـ هنا.. أحدق في سقف الغرفة، ولا أريد أن أدري!

ووجدت في جمجمتي عبارة قالها الروائي الفرنسي "جورج سمتون" عن عشق الكتابة:

ـ "إذا كتبت لا أتوقف، وإذا توقفت يومين فترت حرارتي، وإذا لم أكتب فإنني أمرض.. فعلاجي في الكتابة، ولذلك.. فأنا المريض والطبيب معاً"!

ولكن.. ما الذي يمكن أن نكتبه بعد؟!

لم يضع أول الخيط.. بل أكثر الخيوط ضاعت، ومازالت الحياة هي هذه الرواية المستمرة!

ـ قلت: لماذا لا أضع شريطاً لموسيقى هادئة.. لعل هذا الصخب في أعماقي يهدأ!

فعلت ذلك بسرعة، لأرتاح.. وحينما كنت أصغي للموسيقى، تذكرت حكاية أخرى عن صبي هولندي كان عمره اثني عشر عاماً، ويعمل على أحد المسارح الكبرى.. وغنى، وذاع صيته، وحققت أسطواناته التي بلغت (٢٥) أرقاماً قياسية في التوزيع.. فرفعته إلى مستوى المليونيرات!

وأطرف ما كان في حياة ذلك الصبي.. أنه يحصل على مصروفه اليومي من والده، ولا يزيد على (١٢) شلناً.. ينفقها على شراء الحلوى!

ولابد أن أعلق على الحكاية، قائلاً:

ـ هذا الصبي. . شعب أمموه بدون قانون!

* * *

إن تقدير الماديات في مطالب الحياة وظروفها ـ تطورها وانحطاط أفكارها ـ هو تقدير يقوم على دافع واحد: البحث عن النجاح، والانتصار والرفاه!

ولكن. . كيف ؟!

ستمتلئ أمعائي بالطعام الذي أشتهي في أي وقت، وربما غيري يكتفي أن يملأ معدته بأي طعام. . المهم أن يشبع!

وسأضيء الغرف في بيتي، وسأضيء بوابة البيت. . لا يردعني هذا الفعل "الاعتيادي" سوى انقطاع التيار الكهربائي، وحتى هذا الانقطاع يبدو أحياناً محاولة للتقشف، أو الأخشوشان، حتى لا نتعود على الترف، وحتى لا ننسى الظلام في العالم، وحتى نتذكر كيف ومتى نرفع رؤوسنا إلى السماء. . نناجي الله في جلاله وعلاه، ونفتش عن ضوء القمر!

* * *

وتنبهت. . تعبت من الأحلام، ومن الأفكار ومن التأمل، وأريد أن أفعل كما العجائز، فأستلقي على السرير، وأغمض عيني، وأحلم بدون يقظة!

وأغمضت عيني ثانية، لكن "التعود" ينتابني. . يزحف إلى صدري وعقلي. . يتقافز فوق أصابع يدي اليمنى، وقلت:

ـ لماذا لا أتحرك، وأكتب الآن؟! أين هي رغبتي في الإجازة والصمت، والهروب من العالم كله؟!

لقد تعرض الشاعر "محمد الفيتوري" للضجر، وحمل شفتيه فوق أهدابه، وحمل صدره جرحاً فوق شفتيه.. ولم تكن أحماله أثقل من مسببات ترحاله، فرحل بحثاً عن الضجيج، وفراراً من الهدوء والتأمل.. فتحول ـ كما قال ـ إلى هذه الصورة:

ـ "حدقت بلا وجه.. ورقصت بلا ساق..

عشقي يفني عشقي.. وغنائي استغراق".

هكذا كان مستغرقاً وراكضاً في آن، وهو يسير درويشاً متجولاً.. بين شفتيه معزوفة، أراد أن يواري الكلمات فترة ليتفرج فقط، ويندس في الزحام، ويضيع!

وأبصر الناس يجرون.. وكأنه يقارن بين مشهدهم، ومشهد "فليباس.. الفينيقي الذي ابتلعه اليم في الأرض الخراب"!

* * *

ولم تزل جمجمتي مليئة بالقرع العنيف!

قرأت "الفيتوري" الذي كان يبحث عن إجازة تأخذه إلى اللامبالاة حيناً، وإلى التعمق حيناً آخر.. يصل به إلى درجة التصوف، وإلى سأم من السأم ويصمت بعد ذلك طويلاً، مستغرقاً في أصداء إنشاده القديم.

ـ "فأنا جسد.. حجر.. شيء عبر الشارع..

جزر غرقي في قاع البحر.. حريق في الزمن الضائع"!

وأحاول أن أخرج لساني ـ بمزاج ـ لجمجمتي الملأى بالقرع، وشيء يغري.. صداه في نفسي يناديني قائلاً: أنا.. أنا!!

فما هو ذلك الشيء؟!

أغنية حياة قصيرة.. نترنم بها عندما تنفرج شفاهنا، لحظتها نغني، وقد تناسينا ضجر "الفيتوري"، وتناسينا تعود "سمتون" وورق السيلولوز، ونهاية "فليباس"!

فقط نغني حتى نتعب.. وعندما نقتنع أننا تعبنا حقاً، نرتاح!!؟

# سطر . . . بدفء فجر!

**• مدخل:**

"شريفة عبد الله" : اسمها.

ـ عبرت سخونة "الخليج العربي" حتى استقرت هنا أمامي من وراء أمواج "البحر الأحمر" : رسالتها الفياضة بالشجن!

ـ امرأة تلد "البوح" طفلاً جميلاً في شكل "كلمة" : بطاقتها!

ـ العالم رجل وامرأة: اعتراضها، وعنوان حوارها!

ـ "إن تركيب البشر يختلف.. فبعض الناس يغلب فيه مركب البغضاء، والبعض يغلب فيه مركب المرح أو الحزن.. فتجد **الأول**: يفيض بالبغضاء.

فيستطيع أن يكره عشرات الناس دون أن ينفد معين كرهه، **والثاني**: يستطيع أن يضحك، ولا يكف عن الضحك، **والثالث**: يغرق في حزن إلى مالا نهاية" : أرضية الحوار التي فرشت فوقها الكلمات، والبوح!

**(١)**

أكتب إليك ـ يا سيدي ـ في اللحظة التي يرتطم فيها إحساسي المرتعش ببرودة الوحدة، ويتوق إلى دفء ليل تضيء سطوره المبحرة فوق عتو الموج واندفاعاته!

عندما يحصل الارتطام. . تتولد الشرارة، ويذوب الإحساس، وتتحرك الأنامل نحو القلم. . لتسكب الجراح على سطور البوح والمكاشفة!

كتبت إليك ـ في مدخل رسالتي ـ تلك العبارة التي ـ تسميها أنت الآن: أرضية الحوار، وقد استعرتها من كلمات القاص الراحل "يوسف السباعي". . فتأمل هذه العبارة واسمعني!

أنا ـ يا سيدي ـ مزيج من الإنسان الذي يضحك ولا يكف عن الضحك، والذي يغرق في حزن إلى مالا نهاية!

إنني لا أكف عن الضحك، ولا يكف عني الحزن. . وقد أضحك من شدة الحزن، وقد يلفني حزن عميق بعد استغراقي في نوبة ضحك!

إنها حالة غريبة تسيطر على كياني. . مزيج من الإحساس باليتم والغربة!

فهل تود أن تسمعني بدون ملل؟!

**(٢)**

لقد عشت طفولتي في يتم الإحساس. . ولا أدري كيف أشرح لك هذا الشعور؟!

وعشت سني مراهقتي ونضجي في غربة الفكر. . فهل يعني "اليتيم" بعد هذا: فقدان الأبوين؟!

لا أعتقد ذلك بالتحديد!

لكن "يتم" الإحساس، وغربة الفكر والروح. . شعور مر، كئيب، ومن الصعب أن يعيش الإنسان مسوراً بأفكار لا يمت له بصلة، ومع ذلك يحاول أن يتقبلها، ويصبح مرناً معها، ويعيش فيها. حتى لا يصدمه فكره

الشخصي، ولا تجربته الخاصة بما هو أعمق غربة، وأشد يتماً!

وأنت.. بذاتك الواعية، والمطلعة والمدركة لأبعاد الحياة، والعلاقات الإنسانية المتشعبة ـ كالأخطبوط أحياناً ـ لابد أن تكون لك أحلامك، وتوقعاتك، ورؤيتك، ومن ثم سلوكك الشخصي المرتبط بما سبق.. وفي المقابل: تأتي الاستجابة من الآخرين كرد فعل على مبادراتك.. بمعنى أنك تتوقع العطاء والاستجابة ولكنك ـ في الغالب ـ لا تجد الاستجابة المتوقعة، ولا ردة الفعل المنتظرة!

فماذا يحدث؟!!

ما يحدث.. هو أنك ترضى بالواقع الأخف وطأة: واقعك المشدود إلى الإحساس الأبدي باليتم وبالغربة!

وعندما يحدث هذا.. تهرب إلى نفسك خوفاً من فقد ذاتك، أو لعلك تهرب من نفسك أيضاً حتى ترتاح وتقنع بهذا الإحساس القاسي والبارد، لأنك لا تريد أن تفقد نفسك، ولا الآخرين الأقل قسوة!

لذلك.. فالحزن يلازمك، لأنك لا تجد غيره صاحباً، تجاربك الذاتية تفشل.. لا بسبب رفض الآخرين لأفكارك، وتحديهم المستمر لوضوحك ولاستقامتك بل بسبب توقعاتك نحو من توسمت فيهم العطاء المتكافئ!

قمة الفشل، والإحساس بالخجل من حجم الحلم، وحجم التحدي.. وهنا يحدث التقهقر والانزواء إلى الداخل، وتتمدد الغربة، ويتضخم الإحساس باليتم!

هل تعرف معنى أن تكون وحدك تتصدى للآخرين، وتدافع عن

قضيـة خاسـرة. . تحارب الآخرين، وأنت تعلم أنهم على حق؟!

تصور حجم المهزلـة في واقع البشر بهذه الصورة؟!

أنت مخطئ، ومقهور، ومخدوع. . ومع ذلك تكابر. لماذا؟!

لأنك تحتال على الفشل بالمكابرة وهـذه حيلـة دفاعيـة ـ لا شعورية ـ للهرب من الإحساس باليتم والغربة. . فقط لتوهم نفسك بأنك صاحب قضية بينما أنت بلا قضية، ولكنك دائم الحزن. . كنت تسعد الآخرين، ولديك إحساس داخلي غريب بأنهم أحق منك بهذه السعادة.

فعـلاً. . الجميع يشـاركونك الـرأي، ويؤكدون إحساسك بأنهم أحق منـك بالسـعادة. . فيتضخم الضمير لديك، وتسقط "الأنا" وترتفع المثل، ويمتد الحزن إلى ما لا نهاية.

**(٣)**

قد تقول لي ـ يا سيدي ـ هذه النتيجة عني: إن اختياري لم يكن صائباً في كل الأحوال!

نعم. . قد يكون هذا صحيحاً ولكن. . حـتى لـو اختـرت الصواب نفسه فإنني لن أوفق في تجربتي. . لأن "تركيبتي" لا تحتمل المعادلات الخطأ مهما تضاءلت نسبة هذا الخطأ!

لقـد نفـدت طـاقتي. . مات الإحساس. . امتلأ حلقي بالمرارة فلم يعد لأي شيء طعم، أو مذاق، اختفت خطوط الطالع من يدي، فلم أعد أهتم لشيء يتحدث عن الغد. الغد هو الأمس، واليوم، واللحظة!

قد تصفني بالتشاؤم. اسمع أصداء صوتك تتردد في كل ما حولي. . ربما كنت متشائمة. ولكـن . . ما الذي جعـلني كذلك؟!

ـ أنت تقول لي: إن التجارب لا تقتل بقدر ما تقوي العضل. وتفيد ما بعدها.

هذا صحيح.. وأحاول ـ لذلك ـ أن ألتقط أنفاسي الآن، وأعاشر عشقي.

أصبح عشقي هو الليل.. يذكرني دفء الليل بعمق الجرح، وطول السهد، وعذاب الغربة.. فكان لابد من الكتابة إليك، لتتحرر الروح وتنطلق من سجنه الكئيب.

ثم أنت تقول لي يا سيدي: "أن يجد الإنسان شارعاً يشعره أنه بيته وليس منفاه، وأن يجد اتكاءة لا يسترخي في تضاعيفها، وإنما يجادل ويحاور ويناكف ويشاكس.. إلى أن تقول:.. ومازلت في تطلعي المستمر أبحث عن إطلالة صدق ومحبة، لئلا أعود إلى الليل كل مساء، وأنا موال مجروح"!!

أما أنا فانتظرني.. إنني الموال المجروح، أعود إلى دفء الليل، لأحتمي من جليد التجربة، وجفاف العاطفة!

- **معْبَر:**

أنت ـ يا سيدتي ـ خرجت من نفسك الآن. التي تراكمت عليها ثلوج اليتم العاطفي.. وهذا انتصار أولي على الهزيمة من الداخل!

أنت تعبرين منتهى الجليد.. إلى دفء "الوحدة" أو العزلة التي أحاطتك كأنقاض لتجربة مؤلمة.

التجارب لا تقتل، ولكنها قد تجرح.. قد تدمي.. ونزيفك هذا يطرد دم الألم الذي فسد.. ليمنحك فرصة الطلوع على الصباح الجديد!

هناك فجر قادم. . فابتسمي له ولا تعبسي. استقبليه بوجهك القادر على الضحك، واغسلي الدمعة، وجففي الحزن. . واملئي رئتيك بأنفاس الصباح المطل من الغد**!**

الصباح. . له دفء الأمل، والإرادة. . بالحب، وبالإصرار**!** لا تنعي قلبك إلى التجربة ولكن. . عليك أن تنعي التجربة إلى قلبك لتبدئي تجربة أكثر وعياً، وإدراكاً، وثقة**!!**؟

# سطر... بدفء ذكرى!

(١)

• قرص الشمس ينحدر عند الأفق.. قانياً، مضجراً بحصيلة النهار كله!

الشاطئ أخذ يستعيد أنفاسه.. وهو يتخلَّص رويداً من الأقدام التي ركضت فوقه. وجرت فوق رماله، وتقافزت على حصاه.

الزحام في كل مكان.. حتى عندما تنحدر الشمس للمغيب.

ونظراته ـ تلك اللحظة ـ ضائعة.. ترحل خلف الغروب، ممتزجة، مطوية بين المياه الزرقاء الداكنة، وبين ترددات الموج الخفيف وهو يصطدم هيناً بحجارة الشاطئ!

لا شيء مما كان مرئياً: لا الزحام ولا الانطلاق، ولا حتى ذلك التواجد المؤقت في الوقت.. بل كل شيء الآن ـ في العينين ـ هو ذلك الكل، المازال في الضلوع من المحسوس، ومن الرجع، ومن أصداء الزمان الذي تفوق على الوقت، وكبر بالعمر، وبالوفاء.

إنه هذا الصمت النبيل.. حينما تغرورق العين بدمعة لا تهون.. وفي الدمعة تختال صور الذكرى، وتكبر الأيام، وتضيء النفس براحة العهد للحفاظ على الغالي.

فهل الصمت حزن. . هل الصمت إدانة لعبث الإنسان بصدقه، وبقيمه؟!

كان الصمت حوله وكان على امتداد البصر شعاعاً في البصيرة، ودفقاً دافئاً في القلب. أما سرحة النظر فقد كانت تطارد ذلك (الذي يأتي ولا يأتي) كما قال الشاعر!

أما الرجع والأصداء. . أما الإصغاء للمترسب بين الضلوع وهو يطفو الآن. . فقد كان تذكراً منه لعبارة ترددت في الزمان الذي لا مثيل لعنفوانه. . تقول:

ـ "يصفونني بأنني حزين. . بل يدينني البعض بحزني، مطالباً بإبعادي عن مدينة المستقبل. ودعاوى هذا البعض إنني أفسد أحلام الحاضر وأمانيه بما أبذره من شك في قدرة المدنية على تجاوز زيفها"!

**(٢)**

تمتد يد هذا المبحر في مكانه مع الصمت والتأمل وتدير مؤشر المذياع فيأتيه الرجع ثانية من البعيد. . من خلال أغنية لا يطيق سماعها حتى لا تضطرب قدرته حينما يربط الأمس بالغد. . لكنه مشدود على النداء العفوي والصادق فيها:

ـ "يا أغلى من أيامي. . يا أحلى من أحلامي"!

ويسارع. . فيفر بمؤشر المذياع من جديد. . يركض به هارباً من دمعة لا يستطيع احتمالها. ويبحث عن برنامج ضاحك. . عن نكتة سخيفة. لقد امتلأت أغنيات العرب بالدموع. بينما تكاد تنضب مآقيهم من الدموع!

وتمتد نظراته إلى البحر ثانية، في رمق النهار الأخير، يتأمل. . كيف

يغرق هذه النظرات، وكيف يدع ما يختال في الدمعة يسبح حتى يبلغ الشط؟! إنها سرحة من الإشعاع الروحي تتهادى به فوق مياه البحر حافظ الأسرار!

إنها لحظة من إمتاع الذهن.. كما "فلتر" ينقي من أوشال الألم، ويشذب الحزن.. عندما يقدر العقل على الانطلاق بعيداً، حتى يتصل مداه بمدى الأحلام العريضة.. تلك التي تسقط غالباً مع قرص الشمس الآفل!

لكن الزمن يتحول إلى مجرد "وقت".. عندما يخلو من الانتظار، ومن الوعد، ومن الكلمة ذات الصدى.. فالزمن هو عهودنا، وقيمنا، وهو معاني الإنسان في الوجد، وفي الفكرة.. وبذلك تبقى موانئ النفس مضيئة رغم غارات الكراهية في عالم الإنسان.. رغم التفاهة!

إنها مازالت الموانئ التي تستقبل أشرعة بيضاء قادمة.. بينما البحار تقذف الأصداف والوشل، و.. "ما زال الحنين لظى"!

سأل نفسه: هل في إمكان التجربة الإنسانية أن تعبر بإحساس الإنسان من ارتطاماته، وما حوله من إحباطات.. إلى قناعة بجدوى الزمن ؟!

إنه يسكن الموانئ، ويرضع من سحابة تلوح بالغيث!

إنه ـ كما يرى نفسه ـ يقف فوق صارية رست سفينتها، وكلهم يرحلون، ويبقى وحده يستقبل الوقت، ويودع التجربة خلف التجربة والموج يقهقه، والبحر يعلو وينحسر، والصارية تنتشر على وجه البحر.. ومازالت السفينة تتمايل بلا تعب!

وعندما كانت نفسه كمحارة تائهة في الموج.. كانت ضلوعه تستقبل النداء المتجدد في دعوة للحياة وللأمل. إنه لا شيء يقدر أن يتحول إلى

فراغ. . طالما حافظت نفوسنا على عمار الحب لها.

إن الفراغ الحقيقي. . هو أن لا يبقى شيء تفكر فيه، ولا يبقى لك من تحبه ويحبك. . لحظتها يتحول الزمان إلى وقت، وتكف الحياة عن الحياة!

**(٣)**

كان يمثل الفرح المتفجر. . وكان يغرق في الألم النازف!

ضدان اجتمعا فيه في لحظة اكتشاف واصطدام. . في عودة روح، وفي عجز عن امتلاك الأمل. . في مواجهة حقيقة صادقة، وفي شحوب انتباهه!

كأنه سيد الزمان حينما يشعر بالتواجد. .

والذكريات المستقرة في القرار لا تقدر على التلاشي. . والعمر الجديد يطلع في الوقت. . ويهدر في النبض!

ولكن الحقيقة لا تتغير. . إنه الغريب الذي أمضى سنوات العمر جوالاً، يذرع الحياة ويفتح أبواب الليل بحثاً عن "توأم" الروح التي ترضعه استقرار الشعور، وتهدهده في أرجوحة النشوة. . فأضناه تعب البحث، وهدَّه التصوّر عند كل محطة توقف. . يحسب الخيال تجسيداً "لتوأم" تحتضنه وتنهي عذاباته!

وكادت الأيام أن تهرم به وتشيخ. . ولكنه في اعتراكه بالضنا، عادته الأصداء من البعيد. . كأنما انتصبت في حدقتيه أشجان صوت يشرق بالغربة. . ينجرح بالأسئلة التائهة. . يبح بالنداء الذي يبحث عن قرار!

كان الصوت القديم يتجدد. بينما الزمان يوغل في الشيخوخة!

صوت ينزف الوجع، والحزن، والآهة.. يفتش في نداءاته عن كل ما يفجر التذكر!

وكطفل خطفه الزحام.. بكى، وكقلب تراكمت عليه السنون.. ارتعش، وكعين كادت الأضواء الكثيفة أن تعشيها.. حدق في الظلال وانكسارات الضوء، فإذا به ـ بكل ما فيه ـ يقترب من الصوت القديم وهو يتجدد.. يمتزج به، ينغمر فيه كأنه هو.. كأنها حنجرته.. كأنه يردد أمانيه التليدة، وأشجانه الغريقة، وأفكاره الراحلة، وسخافاته، وكل حزنه!

وأضاءت الكلمات صدره تمحو التذكر، وتقتلع غرسة التناسي، وإذا الماضي كالأرض البكر التي تستقبل أول غرسة فيها لتزرع الغد!

عاد "الغريب" يتمنى، ويحلم، ويتصور، ويجسد الخيالات.. فإذا الجراح خفق، والحزن شجى، والغربة لقاء!

ولكن.. كم يطول عمر الأماني؟!

إنه بعمر الخفقة الأولى التي تكبر في الحس حتى تصبح وجوداً لا بديل له..

فالأحلام القديمة لا تتجدد، لأن الزمن الذي انبجست فيه قد ولى، والحاضر لا أكثر من صدى حنون فقط!

عاد "الغريب" يصغي، ويتعذب!

كأن الأسى يسيل صبراً ويغور في رمال السنين التي تغذ المسير!

إنه الدمعة.. في لحظة اصطدام الصدى بالواقع المفروض!

إنه البسمة.. في لحظة الخروج من الزمن المعاش.. إلى عالم رحب من الروح!

فهل يعود غريباً كما كان؟!

دمعة رحيل دائم هو. . تحتشد اللحظات والمواقف، وأصدق الكلمات في حدقتيه، ثم يواصل السفر. . كأن الملامح دوائر صغيرة على سطح البحيرة. . تتسع، وتتسع، ثم تتلاشى!

كأن أصداء ما سكن إصغاءه تصطدم بالشمس وبالنجوم، وبتعاقب الليل والنهار. . باليوم وبالأمس، وليس في الغد مطمع. . لكنه مدعو بالضرورة للوقوف، وللترقب. . في انتظار فرصة التعرف على الغد الذي سيرحل فيه بكل غربته!

الغد. . كل آماله: أن نواصل الوفاء للأنبل، وللأعمق!؟

# سطر . . . بدفء شجن!

(١)

• ذلك المساء لم يكن عادياً . . . في أعماقه حشد من الشجون، والأصداء . .

على حفافي نفسه تتناثر تلك الأسئلة التي تكثفت في داخله . . منذ أوغلت الشجون بين الضلوع!

لكن الأسئلة كانت تتكرر . . تثور بعد أن تهدأ!

حين يدعي الإنسان تطيب جروحه . . يكتشف أنه لا يحيا بدون جراح .

الجراح . . ذكريات الإنسان، وشجوه، وأصداؤه، وأحياناً، ، هي طموحاته .

وها هي الجراح . . قد أصبحت عقولنا!

ذلك المساء . . لم يكن بارداً، ولا باهتاً . .

الليل من حوله يضج بالأصوات المنبعثة من البعيد . .

كان يعاني من الشجن . . كأنه مسدس كاتم للصوت، وأطلقه كرصاص من خارج صدره إلى تخيله، وتأملاته . . لعله يرتاح!

أن تتحول أشجاننا إلى رصاصة تقتلنا. . ذلك هو السقوط في الحطام.

لعله الآن ـ كنتيجة ـ يفتش عن شجن جديد. . يضعه مكان الشجن القتيل، والقاتل!

ابتسم بمرارة وسخرية. . إنه "يهوجس" فيحادث نفسه:

ـ الطب الحديث نجح في استبدال القلوب وأعضاء الجسم. . بينما الإنسان الحديث أيضاً، نجح ـ بالمقابل ـ في استبدال العواطف، وتولى قتل كل ذلك. . إما بأسئلته التي لا يجد لها أجوبة، وإما بتقبله لأجوبة لم يطرح من أجلها أي سؤال!

**(٢)**

ترى. . هل يمكن أن يحل شجن بديلاً عن شجن، أو في مكانه؟!

يشعر الآن أن الصور الجميلة في عينيه تضطرب، وإحساسه يتموه ما بين الكذب والصدق. . ما بين الحقيقة والزيف. . ما بين الأصل والتقليد!

آلمه كثيراً هذا السؤال المسدد إليه من نفسه كرمح:

ـ لماذا تضطرب الصور الجميلة، أو التي كنا نحسبها لا أجمل منها ولا أنضر؟!

ألقى برأسه العاصف بالأسئلة على ظهر المقعد. . إنه لم يعد يدري هل يبكي، أم يقهقه؟!

زوجته قالت له في الصباح، أمام طعام الإفطار:

ـ لقد تغيرت كثيراً!

ـ سألها: إلى الأسوأ، أم إلى الأحسن؟!

ـ أجابت: أنت تفكر في امرأة أخرى غيري!

ترى.. هل يضحك، أم يبكي أمام هذه النتيجة التي رمته بها زوجته؟!

هل تغير بالفعل؟!

لابد.. أن الرجل لا تغيره امرأة، ولكن.. يغيره الإحساس، والنضج، وتعامل المرأة معه!

ابنه الأكبر أمضى عدة أيام، وعلى وجهه مسحة من الاكتئاب!

ـ سأل ابنه: هل تعاني من مشكلة؟!

ـ ابتسم الابن الرجل، وقال: بل لعلني أتشكل بالمعاناة.. دعني أكبر لوحدي!

## (٣)

عاد المساء إليه مرة أخرى، وفي أعطافه أصداء الحوارات!

ـ همس لنفسه: هناك مشكلة بلا شك أعاني منها، وهناك مشكلة تتضخم في رؤية زوجتي محدودة في ذلك الذي أسمته "التغيير".. وهناك مشكلة تتبلور في تجربة ابني، ويدور حولها!

لكن المشكلة لا تكمن في رؤيتنا للملموس، عندما نحدده بالرؤية، أو عندما نصد عنه بعد اكتشافه.. لكن المشكلة: أن الصور الجميلة تضطرب في حواسنا ونفوسنا، وفي انطباعاتنا التي نكتسبها من الاكتشاف.. لحظتها تنهشنا الأسئلة المدببة، وسوء الظن، وافتقاد الثقة، فإذا الصور المحددة بحجمها تتضخم وتتشوه، ويسود القبح.. ليطغى على كل الصور والملامح الجميلة التي كانت تحيا في حواسنا: خيالاً، وحلماً، وقناعة!

رئيسه في العمل. . قال له قبل انتهاء وقت العمل:

ـ لقد أرهقتنا بحساسيتك. لابد أن تتعامل مع الأشياء، ومع الناس، ومع الحياة بوقاحة، أو بواقعية تصل إلى درجة الوقاحة!

ابتسم بتلك السخرية المريرة. أغمض عينيه، لعله يتخيل صورة أجمل، أو ملامح تريحه.

ـ الإنسان في الاكتشاف الفاجع له. . يبدو سجيناً ومرهوناً في الحزن، أمام تعديات العقاب الذي يجمره!

ولكن. . حتى هذا الإسقاط، أو هذه المواجهة بالفاجعة، أو مع التفاهة. . يكون من الصعب عليه أن يستبدل شجناً مكان شجن، أو أن يطلق الرصاص على شعور ما، ويضع مكانه شعوراً آخر!

هنا في صدره آثار دماء نزفت، وآثار جراح لم تندمل، ولكن العذاب. . العذاب: أن يضطرب ما تبقى من الصور الجميلة في الحس!

لحظتها. . كيف يحيا حس إنسان بصور مضطربة، أو مخلخلة غير ثابتة؟

ذلك هو: رفض التخيل، أو صعوبة تجسيد الاعتياد!

**(٤)**

ها هو يعترف الآن ـ في توغل الشجن ـ أن الأمسيات تدخل قلبه كغيمة، ولا تخرج منه. ذلك هو عذاب الصدى!

الصدى يعتاده من خلال صوت "أنثى" كانت تحاوره ذات يوم لتكتشفه وتصل إلى معرفة الإنسان في أعماقه!

وكان يحاورها ليتأملها، فتكون معرفته لوجهها من خلال رؤية أفكارها، وعبر ثواني صمتها:

ـ قال لها: لا بد أنك طبيبة نفسانية!

ـ قالت: ولماذا؟.. ليس شرطاً ما تعتقده.

ـ قال: فأنت إذن طبيبة باطنية؟!

ـ قالت: أنا لست مراوغة!

ـ قال: وما الرابط هنا بين المراوغة وسؤالي؟!

ـ قالت: الطبيب الباطني مراوغ، أو لعله متأن بطيء!

ـ قال: وأنت أيتها الزهرة البرية؟!

ـ قالت: أنا جراحة.. والطبيب الجراح حاسم دائماً!

ـ قال: فكيف تقدرين أن تحسمي موسم الثلج في صدري ؟!

ـ قالت: أشق صدرك. أدميه، فأذيب عنه الثلج المتراكم.. ليسري الدفء فيه.

ـ قال: وبعد ذلك؟!

ـ قالت: سأشتاق إليك.

ـ قال: وما الذي ستفعلينه كلما تضاعف اشتياقك؟!

ـ قالت: لابد أن أطمئن على صدرك.. خوفاً من عودة الجليد إليه!

ـ قال: والأنثى لا تقتنع لمرة واحدة.. فلا بد لك أن تشقي صدري في كل مرة تشتاقين فيها إليّ! ولكن.. ما الذي يكمن في صدرك أنت؟!

ـ قالت: زهرة برية.. لا تغطيها الثلوج!

ـ قال: ولكنكم في الطب. . ابتكرتم القلوب الصناعية؟!

ـ قالت: هذه فقط. . للصدور التي تراكم فيها الجليد!

ـ قال: ليس شرطاً. . فبعض القلوب أصابه التلف من شدة الحرارة، أو الدفء!

ـ قالت: فاعلم أن الزهرة البرية ليست من الشمع ولا من البلاستيك!

ـ قال: زهرة حاسمة، تقصدين؟. .

وأكاد أرى حسمها هذا في نبرة صوتك!

ـ قالت: فماذا قلت؟!

ـ قال: أنا مستعد لإجراء الجراحة!

**(٥)**

استلقى أخيراً. . كأنه يدخل في غيبوبة ما بعد الجراحة.

كان يشعر بدفء الشجن يسري في كل أضلعه!

لم تعد هناك جراح في صدره، ولا في قلبه. . ولكن كل الجراح أصبحت في عقله!!

# سطر... بدفء "عين"!

## (١)

• الوجود.. عين مفقودة! كانت هذه العبارة تبدو كحصاد أخير من حديقة عمره، أو كأنها الزهرة التي غرسها، وسقاها، وشذبها.. منذ نشر الحزن وشاحه الرمادي على حياته عام ١٩٧٠، عندما خسر جنونه الملهم، أو حبيبته التي أضاءت عمره حباً ووجوداً.. تلك التي كان اسمها "إلزا"!

يوم ماتت "إلزا".. تحول الوجود في رؤيته إلى: "عين مفقودة"!

أو إن "إلزا" كانت هي عين وجوده التي اختطفها الموت منه.. وإذا هي في عمره المتبقي من بعدها: "الحاضرة الجامدة" التي تركته في هذه الصورة التي صاغها بشعره:

ـ "تركتني من كل الأبواب.. تركتني في كل الصحاري..

تركتني أيتها الحاضرة/ الجامدة..

في كل مكان.. تركتني بعينيك..

بالقلب.. بالأحلام.. كجملة ناقصة"!

ورغم أن "لويس أراجون" صاغ آلاف الجمل المشعة، والمتكاملة، والعبقرية.. لكن انسحاب هذه الأنثى من الحياة كلها، قد جعل الفرح

ثلجاً، والضحكة غيمة، والذكرى ـ وحدها ـ هي الفردوس الذي يظل عمره من هجير الوحدة والأسى!

ولم يكن موت "أراجون" شيئاً مفزعاً له ـ بعد موت "إلزا" ـ ولا اغتصاباً لحياته من الوجود. . لكنه كان يرتقب هذه اللحظة/ الفرح، منذ اثني عشر عاماً!

كان يتكئ على الحصى البيضاء، ويتطلع إلى السماء الزرقاء، ويرقب موعده القادم مع "إلزا" في فجر يوم الجمعة، من نهاية عام ١٩٨٢!

وكانت العصافير في بدء انطلاقها، ورذاذ المطر يخترق السحب والأمل. . ليبلغ بـ"أراجون" إلى الحلم الأجمل. . نهاية انتظاره للموعد الذي يلقي فيه بجنونه، وبحبه: "إلزا". .

إنها نهاية "ديسمبر": لوحة الخريف التي سقط القلب في ظلالها كورقة جافة. . هي ما تبقّى من هذا الشاعر، والروائي، الناقد، الفنان.

وكعادة الأحياء مع المبدعين الذين أعطوا حشاشة قلبهم، وخلاصة تجاربهم الإنسانية. . تسابقت الصحف والمجلات، تنعى وتؤبن هذا الفقيد، وتسلط أقوى إضاءاتها على أعماله، وعظمته، وإبداعاته!!

**(٢)**

ولكن "أرجوان" مات بعد ذلك سعيداً!

ولعله كان يوسع من خطاه التي غادر بها العالم. . بعد أن يئس من تحقيق أحلام الإنسان فيه. .

وبموته. . فقدت دعوة السلام واحداً من أنصارها، ومحاربيها، ودعاتها. . فقد كان واحداً من أعداء الحروب، وتسلط القوة. . مثلما كان

محارباً، مشاكساً، متألقاً، قلقاً، حائراً، امتزجت في حسه ومداركه أضداد عديدة.. جعلت منه ذلك الكاتب الواقعي.

وهو ـ في نفس الوقت ـ يأتي شاعراً رومنسياً يستغرق في البوح والإنشاد.. منغماً اسم "إلزا" الذي يشع في صدره إلهاماً، وراحة، وطفولة.

ومات "أراجون"..

وبقي التعريف الأكثر التصاقاً به، وهو: مجنون "إلزا"!

وبقيت الحياة في رؤيته ورؤاه ـ بعد موت إلزا ـ عيناً مفقودة!

وقيل عن هذه الأنثى التي استقطبت أجمل سني عمره:

ـ "إنها الأنثى التي دخلت حياته.. فبعثت فيه الحلم والروح"!

وهذا العشق الفريد في مجتمع الغرب.. جعل من "أراجون" ذلك الشاعر المتفرد، والمميز عن سائر الرجال الغربيين ـ وفي باريس بالذات، وإخلاصه والتصاقه بزوجته "إلزا" كانا بمثابة الظاهرة في مجتمع تغرب كثيراً عن مثل هذا الالتزام في العاطفة لأنثى واحدة.. لا يرى في النساء من تضاهيها، أو تقدر على سرقة عواطفه من "إلزا" إليها.. فأطلقوا عليه صفة "المجنون" كما مجنون ليلى، وقالوا:

ـ لقد تأثر أراجون بالشرق.. حتى في العاطفة!

وتأثره بالشرق ثابت من خلال جولاته التي قام بها إلى هذا العالم المختلف عن طبيعة الغرب..

وقارن بين "مجموعة شعراء الطربادور في فرنسا أثناء القرون الوسطى، والشعراء العرب، وقال: شدتني إلى أشعارهم ما وجدته من قرابة روحية وشبه في المحتوى"!

ولكن هذه اللمحة التاريخية عن الشاعر الراحل، تبدو "تقريرية" . .

تتفوق عليها طبيعة النفس والروح في البناء الإنساني للشاعر، وترتفع إلى فلسفة الفن المتاح لتعبير النفس، ولتصوير أعماق هذه النفس المثقلة بهموم العصر، وبضغوط الماديات وبتحديات البقاء والوجود!

**(٣)**

لقد كان " أراجون" في فترة من إدراكه ورؤيته. . أديباً يتخبط في شعارات، ظن أنه بمناصرتها يخوض قضايا المعدمين، والفقراء، والموجوعين. . ثم ما لبث أن اكتشف عدمية تلك الشعارات، وسقوطها في الغوغائية، فقال عباراته التي كتبها عنواناً لواحد من كتبه:

ـ "لابد أن نعرف الأشياء بمسمياتها"

ثم هدأت صولاته في مضمار الفكر السياسي. . ليستقر في سؤاله الذي كان يحاوره عن: الوجود، وعن منطق الحياة. . فتحولت فلسفاته الفكرية إلى رؤى من الشعر الناضج، والأعمق.

عاد ذلك الشاعر المفتون بعطاء الشرق. .

وكان منطلق عطائه المتبلور. . ينبع من عيون "إلزا"!

"إلزا" : الأنثى التي حفرت أصداء صوتها كل ضلع من ضلوعه.

"إلزا" : التي سكنت همساتها كل خفقة من خفقات قلبه. . فكأنه هو ذاك المتيم بموعد اللقاء مع الحبيبة التي تركته في شوارع العمر. . يشاهد الناس وهم يصطادون العصافير، ويحرقون الأشجار، ويسفكون الدماء باسم الحضارة، والحرية، والتاريخ، والمستقبل.

(٤)

وبعد موت "إلزا" . . فقدت الفراشات ألوانها، واندفعت إلى اللهب المتأجج في العالم لتحترق!

ومع احتراق العصافير والفراشات ـ في هذا اللهب المندلع ـ كان "أراجون" يسترخي في لحظة تأملية!

كانت ذكريات الحبيبة تعتاده. .

كانت أصداء معاركه، ومشاكساته تتردد في أذنيه. .

كانت حصيلة العطاء بالكلمة. . تنفذ به إلى سر الوجود، وطبيعة النفس الإنسانية. .

فكأن ما تبقّى من العمر ـ بعد "إلزا" ـ أصبح هو الفراغ، وهو "قبضة الريح" . .

ذلك أن ما فقده "أراجون" كان يشكل في عمره قيمة تلك "العين" التي يبصر بها جمال الحياة، ويتأمل عمقها. . فيرى إطلالة الصدق الذي يستخدم الصمت بوحاً يفسر معنى الوجود!

إنها تلك العين المفقودة. .

العين التي رحلت عنه. . وأخذته في أعماقها معها تحت الجفن!

أو كأن "أراجون" ـ في تأمله الأخير ـ كان يرى العالم من حوله. . هو هذا الوجود الذي فقد عينيه!!

# سطر . . . بدفء ليل!

**(١)**

• كعادته ـ دائماً ـ حاول أن يستفز مشاعرها الغافية. أراد أن ينطلق معها وبها كصاروخ. . ليرقى إلى حدود نجمة عالية، كأنها درب الغد!

كتب إليها نجواه عنها.

كتب ضلوعه حروفاً تصطفق كموج، وكلمات تتردد كخفق، وبوحاً يتمدد كآهة!

أخذها إلى خارج الزمان، واسترجع أصداء ذلك الخفق، وترجيع تلك الآهة الصافية واصطفاق ذلك الموج.

أبحر بها فوق عتو ذلك الموج وفوق انسيابه تارة، واندفاعه تارة أخرى.

تلفت نحوه. . فإذا الماضي كله، من خلال همسه لها، يتراص. . كبيت من أجمل الغزل، ويتناثر مرصوصاً في الرجع. . كنجوم متلألئة، غيبتها السحب زمناً طويلاً، ،

**(٢)**

استرجع بدوره الأصداء من الماضي. .

كان في زمن الطموح، والمكابدة، والعشق الذي لم يغبره تراب

الزمن: يشرئب نحو أحلام لم يعتد عليها فساد الانكسار تارة. والحزن تارة أخرى.

استعاد قهقهات تلك الأمسيات الصافية.. بهجة تلك الشفاه المبتسمة.. رغم هواية "الدبابيس" التي يجيدها بعض الناس، فيشكون بها الآخرين، ولا يؤلمونهم، ويستفزونهم ولا يجرحونهم، ويثيرونهم ولا يعفّرونهم!

يا لمعاناة هذا الإنسان اليوم. كتب إليها ـ أخيراً ـ :

ـ "هاهي أمسياتنا يجللها الشيب. هاهي شفاهنا تستغرق في الريح، وتتيبس"!

ـ "كنت في الماضي أخرج من بين ضلوعي شاباً أتقافز وأرقص على كل الطرقات، كنت أمسك كل نجمة تحاول أن تختفي، وأجلسها بجانبي وأمامي.. لتحرس لي التلة والبحر"!

ـ هل مازلت تذكر.. أيها الوفي لليل؟!

كأنك اليوم في معاناتك، وفي استرخاءة هذا الجيل المتكئ على الذكرى.. تفاجئ الناس بكلماتك تضيء هذا الليل.

ها أنت.. هذا المتطوح في الأصداء.. كأن كلماتك حداء، وتردد:

ـ "معاد هذا المساء.. معاد هذا الليل..

إنه يزحف إلى صدري، ويثقل لساني.. فلا أجيد الكلام!

معاد هذا الليل.. ويتيم هو وحده، ويتيم أنا من الخفقة.. وحدي أيضاً"!

ها أنت.. هذا المدلج في الذكرى، تواصل إنشادك الحزين:

ـ "هذا ليل آخر. . ليلنا القديم كان يقول الشعر بالترنم والدان. .

كان يملأ الدنيا إيقاعاً. . كان نشوان يصطاد النجوم حيث كانت للسماء نجوم!

كان ليلنا يفهم ـ بدر شاكر السياب ـ وكانت عيناه تسقطان دمعتين، وتخفيان الحزن.

الآن. . لاشيء أكثر من غيمة تأتي، وتذهب. . غيمة عاقر، لا تمطر"!

ترى. . هل تبدلت الدنيا. . أم نحن الذين تغيرنا؟!

لعل المشكلة تكمن في حقيقة واحدة، وهي:

ـ إن أرواحنا كانت مفعمة، حبلى بذلك الزمان الممطر وجداناً. . وأن مادياتنا أصبحت عاقراً، لا تلد الفرح لأرواحنا، فأصبح لدينا هذا الانفصام ما بين الروح، والمادة!

**(٣)**

قبل أعوام. . حاورها عن الليل!

يومها. . خط قلمه هذه الملامح التي رسمت وجه الليل، ومضمونه بها، فقال لها:

ـ "ليل الطفارى يبني ناطحات السحاب، والقصور، والجنائن. على مد النظر"!

ويحلم الطفران. . حتى يسلبه النعاس أحلى أحلام اليقظة، وعندما يستيقظ. . يردد تلك العبارة الشعبية التي كان يسمعها في الحارة: كلام الليل مدهون بزبدة!

ـ سألته: وليلنا.. ما لونه، ما هو مضمونه؟!

ـ قال: إنه ذلك الليل الذي تعربد فيه ألوان المشاعر، صخابة بالخفق.. مولودة بتحدي الملل.. تزرع رايات الحلم في كل الجهات!

ـ قالت له: هل مازلت تذكر؟!

ـ قال لها: في حوارنا ذلك.. قلت لك: الليل يمثل البداية عندي.. بداية أن أجد نفسي بعد تطواف حارق طوال النهار.. بداية أن ألتقط معاناتي لأسكبها في قالب نقي.. بداية أن أعثر من جديد على كل الأشياء التي افتقدتها طيلة النهار!

ألم تقرئي عبارة ـ جبران ـ التي لم تمت، رغم موت أشياء كثيرة: "إذا أماتتني امتهانات البشر لمحتواهم الإنساني نهاراً.. أعادني الليل إلى جوهرهم"!

ألم تسمعي انسياب صوت "فيروز" في وريد الليل.. رغم ما صار، وكان، وما سيكون، وهي تردد: "سهار بعد سهار.. تايحرز المشوار"؟!

المشوار.. جئنا اليوم إلى بوادر حصائله.

الليل.. هو بيتي الذي أختبئ فيه من الشرور، ومن البعثرة ومن الكراهية.. لأستمد فيضاً من المقدرة على مواجهة كل السخافات، والإسقاطات، والإحباطات..

في الليل.. أقذف ساعتي من يدي، فالليل ليس له ساعات.. الليل لحظات قد تمتد لتصبح عمراً!

(٤)

ـ أسألك أيضاً: هل ما زلت تذكر لون حواراتنا، وخلافاتنا، وقهقهاتنا؟!

ـ أوه. . اندرست أكثر المواقع. أهمها: أن يجد الإنسان شارعاً، يشعره أنه بيته وليس منفاه، وأن يجد اتكاءة. . لا يسترخي في تضاعيفها، وإنما يجادل، ويحاور، ويناكف، ويشاكس، ويردد بعد ذلك كله قصيدة "السياب": مطر. . مطر. . مطر.

ويردد أشعار "أيوب طه" وأغاني "علي محمود طه" أيضاً!

أوه. . كان صديقي المتغرب الآن في ذهوله يتحفنا بعبارات مأثورة. . كان يدعي أن قائلها هو "نيتشه". . فيرد عليه أحدنا ضاحكاً:

ـ "نيتشه" لا يقول كلاماً ركيكاً!

كنا نضحك من قلوبنا، وتتزحلق الكراهية من بين الضلوع كقطعة ثلج تذوب!

وكنا بهذه القراءات لأعماقنا ننطلق من عتمة التعب، إلى همسات المساء، وأحلام الغد!

ـ هل تذكر سؤالي القديم لك عن متناقضات الليل؟!

ـ أذكر أنك سألتني مرة: البئر، النجوم، الحقل. . كيف تراها في الليل؟!

قلت لك يومها:

ـ البئر: هاوية يسقط فيها الظلام والعمى. . لكنها تضيء من أعماقها

بنعمة الارتواء، فينبغي أن لا تكون آبارنا قاحلة، أو مهجورة!

ـ النجوم: شفة أنثى لم تكذب بعد!

ـ الحقل: رائحة أم..لم تترهل، رغم فقدانها لكثير من الحنان!

**(٥)**

ـ سألتني بعد ذلك: متى تكون مفقوداً؟!

ـ نعم.. لقد أجبتك قائلاً: دعوني أنظر في عيون الناس أولاً، لأكتب لكم إجابة رائعة!

آه.. أيها الكلام!

منذ ذلك الحين.. وتطلعي إلى عيون الناس لم يتوقف.. لم يسأم.. ولم ييأس!

آه.. أيها الكلام!

لكن "نظرة" الناس اختلفت!!

لكن عيون الناس تلونت!!

ومازلت في تطلعي المستمر.. أبحث عن إطلالة صدق ومحبة.. لئلا أعود إلى الليل كل مساء، وأنا موال مجروح!!

ـ وإذن؟!

ـ لا أعتقد أنني سأقول شيئاً عن بوادر الحصيلة.. العبارة المرتقبة مع الزمن الذي يغذ إلى الشيخوخة!

لن أقول: أنا والليل وحيدان.. لم يعد يطرق بابنا أحد!

ولكن . . . . . . . . . . . . . . . .

مـا زال معـي "السيـاب" في قصيدته: "مطر . . . مطر"!

مازال معي هذا الليل . . عند منتصفه تنتشر عينا حبيبتي لتصبح بحجم السماء والنجوم!

# سطر . . . بدفء سحابة!

## (١)

• هذه الليلة له!!

كان هذا منتهى أمله، وحلمه.. البقية من أنفاس التفاؤل المجهدة!

كان "صوته".. وقد جمع فيه عواطفه، ونثرها بذوراً في رحم هذه الليلة.. حتى تلد له الحلم.. فيكون حقيقة، وحياة!

واحتضن شجنه، وهدهده..

هذه الليلة يبقى وحيداً.. تحت نسمة رطبة مبللة بالطل.

يريد أن يوقف تجواله قليلاً.. فقد تعب من تجوال أفكاره، وظنونه!

ـ قالت له في تلويحة النهار بالوداع: انتظرني هذه الليلة. سأراك، ستراني.. أود أن أروي ظمأ الشوق لك!

ـ قال لها: هل تجِدِّين؟!

ـ قالت: أنا جادة جداً في وعودي.. سيكون منتصف الليل: بيتنا، وقمرنا، وهمستنا!

كان يريد أن يلم أنفاسه لحظتها.. أن "ينيخ راحلته" بعد ذلك التجوال الممض وهي بعيدة متغربة.. وهو واقف عند بوابة الوقت يرتقب

طلوعها كنجمة. . كنسمة. . كهمسة. . كمهرة تطوي أصعب الدروب وأطولها إليه.

ـ مشتاقة تسعى إلى مشتاق"!

ابتسم، وهو يتذكر شطر بيت الشعر هذا.

(٢)

كان الوقت حينذاك في بداية المساء. .

مازال الوقت يمر بطيئاً، ممعناً في توتره، وحنينه إليها.

ـ ما أطيب فنجان شاي ساخن الآن!

قال لنفسه هذه الأمنية، وقام يخطو في بيته الصغير إلى المطبخ. سينجز الشاي، والوقت حينئذٍ يمر.

ألذ فنجان شاي. . لابد أن يستكنهه ويستطيب بطعمه.

كان يدير "ملعقة" الشاي في الكوب، وهو شارد خلف وجهها.

خلف أصداء صوتها وضحكتها!

ـ ترى. . متى تعود. متى ينتصف هذا الليل الأخرس، المشلول؟!

وضع الشاي أمامه. . واختلطت نظراته بدخانه المتصاعد.

أطل من الشرفة. . السيارات تعبر، وبعضها يمر بجنون!

ـ هل هذه. . كلها مواعيد؟

إلى أين يذهب كل هؤلاء الناس. . في ليلة الإجازة؟!

النساء مدعوات إلى أفراح تقام في الفنادق الكبيرة. تزداد نسبة الإضاءة هذه الليلة.

قام من مقعده، وأطفأ ضوء الشرفة.

ـ هكذا أجمل، جو رومانسي، وأضواء الشارع تتلصص على هدوئه، وسرحته وانتظاره.

ـ ياه.. بداية الليل طويلة، ومملة.. خاصة في إحساس إنسان يجلس وحده.

أيام كثيرة مرت.. كان فيها وحده.

خيل إليه أنه انتهى إلى كوخ. كان الكوخ. وكان الظلام فوق المسافة كلها، ويئد التفاؤل، ويمنح الريح وحدها!

**(٣)**

لم تصبح قصة بعد...

إنها ـ رغم تعاقب الأيام وامتدادها ـ مازالت بداية القصة!

خمسة أشهر في تاريخه "العمري"، أو تاريخ عُمْر خفقته الحقيقية.. حين أكتشف أن قلبه يخفق بشدة.. كأنه يعاني من أول حب!

تراها.. هل تبلورت في حياته، لتكون هي وحدها بالفعل الحب الأول.. لأنها الحب الأقوى، والحب المعذب الذي احتوى كل مشاعره؟!

يقولون: إن البدايات تبدو سهلة دائماً.. أما النهايات، فهي الصعب والمرهق!

لكن البداية هنا.. كانت عنيفة، مقتحمة، ركضت به وبها مسافات طويلة في وقت قصير!

ـ ماذا جرى. . وكيف؟!

البداية حوار متردد، وربما كان مملاً في مدخله!

كانت "هي" لا تطيقه، ولا تكرهه. . لكنها ترى فيه الرجل الصلف، والضبابي.

وكان "هو" لا يعرفها طبيعة ووجداناً. . لكن خيطاً واحداً شده إليها: طموحها، وفكرها، وقدرتها على اقتحام الصعب.

سمع عن مميزاتها هذه كثيراً. واستطردوا وهم يحدثونه عنها:

ـ قد تراها تضحك لك. . لكنها من الممكن أن تعبس، وأن تتخذ نبرة صوتها أسلوب الحدة والصفع.

ـ مغرية هذه الأنثى!!

لكنه تردد، والتردد خوف!

أن نبدأ بالخوف. . فلن ننتهي إلى أزلية الصدق، والشجاعة، واليقين!

البداية عنوان ضخم وغامض. . يحفل بالعديد من علامات الاستفهام والتعجب. . فإذا أنت خِفْت من العنوان. . فقدت القدرة على فهم واستيعاب المحتوى. . وإذا استهنت بالعنوان فقد تفقد غالياً وثميناً لم تكتشفه!

أما إذا أعطيت اهتمامك له . . فستحصل على انطباع، وستعرف قيمة الثمين، وتجرب التعامل مع الرخيص!

البدايات كثيرة. . والناس يهدرون أغلبها بأعصابهم، أو بجنون القسوة!

وعندما وجدها.. اكتشف فيها قيمة الثمين.. وأحس أنه وحده الذي يفهم هذا العنوان جيداً، ويحسن التعامل معه!

كانت عنواناً مثيراً في حياته.. لبداية مجهولة الخطوات. لكنها مغرية وحافلة بالإضاءة وبالجاذبية، وبالقيمة الكبيرة.

**(٤)**

مع ذلك.. لم تبدأ القصة بعد.. أمام هذه البداية!

سطر واحد.. رسمته الصدفة، على ظهر ليلة عاصفة التأثر.. حكت فيها له عن ملخص مشوارها، أصغى، واستغرق في بوحها ومعاناتها.. وحكى لها فيها عن جنون عمره. أصغت، وشعر أنها تمتزج بدمه عبر نظراتها وإصغائها!

وأخذ ذلك السطر الواحد يملأ ورقة بيضاء، مثبتة تحت أصابع حائرة. تخيل أنه لحظتها، وهي تحكي، قد التقط ورقة، وأخذ يمرر عليها قلمه بخطوط لا معالم لها.. لكنها كانت تعكس معاناة تلك اللحظة!

هكذا.. كانت البداية خطوطاً بلا معالم.. على ورقة بيضاء، مطلوب منهما معاً أن يملآها: حباً، وصدقاً، وبوحاً، وعهداً بينهما لا ينفصم.. مهما كانت الأحداث القادمة..

والتفت نحوها.. كانت تمسح دمعة تفر من عينيها، فقال لها:

ـ قلوبنا ورقة بيضاء.. نملأها نحن بالخطوط الزمنية، وبكلمات الحب والصدق.. نحن لا نعرف زمن حشدها بالمعاني.. لا نستطيع اختيار الكلمات التي تكتب عليها.

ـ أجابته: أحبك الآن أكثر.. أحس أنك نفسي، وأن بدايتنا معاً، هي

بداية عمري الحقيقي. . فهل تصدقني؟!

ـ قال لها: إذا صدقت أنني أشعر بنفس هذا الإحساس معك!

قال تلك الكلمة. . في لحظة "منتهى الأمل" وأقوى أمل!!

قالها في البقية من أنفاس التفاؤل. . وأردف بعدها، يقول لها:

ـ هذه الليلة. . لي وحدي!

ـ قالت: بل هي الليلة التي لنا وحدنا.

وانطلق تزغرد جوانحه. . عريضة الآمال في صدره. . عنيف وجيب قلبه. . متفائل حتى الطفو!

كان يحمل ورقته البيضاء ذات السطر الواحد. . ويود لو ملأها هذه الليلة، ويكمل عبارة مازالت ناقصة!!

## (٥)

وكانت وقفة الانتظار بعد ذلك!

ما أقسى أن تشعر بالوصول إلى نقطة الكسب، ثم تنزلق كل أشيائك فجأة!. . إنها تبدو "كاللحظة الفاصلة ما بين الحياة والموت"!

اكتشفت أنها ترتبط بمشاعر أخرى. . لكنها ـ وهي تؤكد له ـ

قالت:

ـ ذلك رجل كان قبلك ولم يملأني. . لم يقنعني. كنت أحاول أن أبلوره وأن أصوغه. . حتى جئت أنت فملأتني وأقنعتني. . وجدتك تصوغني إنسانة وأنثى، وعشقاً، ولهفة، وانتظاراً.

ـ قال لها: إذن. . اتركيه، فعندي مبدأ أناني بالغ القسوة. . يحفرني،

وأردده دوماً وهو: "أكون أو لا أكون"

ـ قالت: لا تخيِّرني بينك وبينه.. فأنت الأقوى، وأنت مضموني، ومحتوى مشاعري.

اصطكت السحب، صرخت عاطفتها في وجهه: لن أتركك.. لا تتركني.. أنت عمري.

وأحس كأنه عيي لا يقوى على الكلام.. كانت عاطفته تصرخ في أعماقه، فتخلع ضلوعه، وتشرخها وتقوضها. وقال لها:

ـ أنا الآخر لا أريد أن أتركك، لقد أحببتك حتى الاحتياج الذي لا يُعوَّض بغيرك، أنت البشارة في عمري، ولكني.. أرفض هذه الخزانة الصغيرة في زاوية قلبك.. أرفضها!

ـ قالت: نسيت أنك رددت على مسامعي كلمتك تلك: أنت قدري، وأنا قدرك. تذكر المعنى الذي قاله الشاعر" (وهل يملك النهر تغييراً لمجراه)؟!

ـ قال: أنت تملكين تغيير المجرى.. لابد أن تكوني هذا النهر بمجرى واحد، وليس باثنين!

**(٦)**

أفاق من شروده، وتذكره.

لمس كوب الشاي.. فوجده قد برد. قام إلى المطبخ وأحضر قطعة ثلج من الثلاجة، وضعها في الشاي، وهمس لنفسه:

ـ إذا فاتني أن أشرب الشاي ساخناً.. فلا يفوتني أن أشربه مثلجاً، كما يفعل العالم!

ورن الهاتف في بيته. . قام يركض نحوه. جاءه صوتها شفّافاً:

ـ ها. . . ماذا تفعل؟!

ـ قال: أشرب شاياً بالثلج!

ـ قالت: لا تمزح. . أنت "وحشتني". . اشتياقي لك لا يوصف.

ـ قال: كان موعدنا عند منتصف الليل. لقد تجاوز الوقت الموعد، والانتظار، ولم يبق معي سوى القلق عليك.

ـ قالت: أراك بقلقك. . المهم أن تأتي.

ـ قال: الآن لا أصلح. . لأن قطعة الثلج لم تسقط في كوب الشاي كما ظننت، بل سقطت في قلبي!

ـ قالت: أنت مجنون. . لا تطاق.

ـ قال: ربما. . اكتشفت منذ لحظة أنني "مكلف" من قدري. . بأن أكون مجنون وحدتي فقط!!

# سطر... بدفء طيف!

## (١)

● ماذا قال المساء الأول لخفقة قلبك؟!

ـ كنت أنتظره اكتشافاً.. ولم أكن مغروسة فيه انتظاراً.

كان صوتك قادماً من المجهول.. أعرفك شخصاً، واسماً.. وأجهلك إنساناً، وأسلوب حواره وكيفية تعامله.

سمعت الكثير عن حياتك، ولكني أعلم أن الناس يتلذذون بالكلام عن الآخرين.. فلم أرد أن أظلمك، وأيضاً لم تكن عندي الرغبة في المغامرة لأنني ـ حينذاك ـ كنت أطوي جوانحي وضلوعي على جرح، خفت أن يواصل نزيفه فيعذبني.. وكنت ـ أيضاً ـ أعاني من حيرة أكبر تواجهني من خلال ملامح رجل يسترضيني لأفتح له بيتاً، وأنجب له أطفالاً.

أنا أحب الأطفال جداً.. لكن حيرتي التي كانت تتعاظم.. تطوح بي في كل اتجاه وتشكني على طرف سؤال مدبب، أردده في أمسياتي التي تخلو من صديقاتي وأتساءل:

ـ هل أنا أحبه حقاً.. هل أنا مقتنعة به فعلاً.. هل هو الرجل

المناسب لي الذي يفهمني، ويستوعب جنوني، ويقدر أفكاري؟!

ـ هل الحب في هذا الموقف عقل فقط، أم لابد أن يحسم القلب هذا التردد، وهذه الحيرة؟!

ترددت كثيراً. احترت أكثر. . ولكني كنت مندهشة لاستسلامي أحياناً لعواطف هذا الرجل. . حين يخاطبني ويلح في سرعة الاقتران به.

لا أخفي عليك. كنت في تلك الدهشة أشعر بخفقة فرح، لا أقول أنها خفقة حب. . أفرح حين أتخيله زوجي، وأنا زوجته التي تهيئ له سبل الراحة، وتفتح له بيتاً وترعى شؤونه وتسهر على استقراره وهنائه!

في طبيعتي الأنثوية هذا الميل نحو الرجل الذي أختاره!

ربما أيضاً. . أغرتني فيه بعض طباعه، فهو طيب مطواع، يمكنني أن أبقيه أمامي طوال الليل. أحكي له حكاية طويلة مثل شهرزاد، وهو مأخوذ، متولِّه، منجذب، مصغ. . مثل شهريار.

لكني ـ في الجانب الآخر من طباعي ـ أركض وراء الرجل المشاكس. . الرجل الذي يتفوق بشخصيته على شخصيتي، يأمرني فأطيع. يقول لي: لا، فأناكفه وأعانده وأرضخ له بعد ذلك!

ـ تريدين الرجل الذي يغتصب عواطفك، ويغتصب رضاك ؟!

ـ لعلني هكذا. . متمردة ومطيعة. . مغتصبة وغاضبة. . مأخوذة وآخذة!

وفي تلك اللحظة التي اغتصب فيها صوتك سمعي. . لم تكن أنت بالنسبة لي عاطفة، ولا حتى عقلاً، لكنك كنت مجرد رجل طرق بوابة انتباهتي، واستفز استرخائي، وأشعل تأملاتي.

(٢)

ـ وأنت. . ماذا قال المساء الأول لخفقة قلبك؟!

ـ خلته مساء لا يبوح. . مساء بخيل، مقتر. أظنه قد أحاطني بالأسئلة المغتاظة عنك!

لم تتردد خفقة قلبي الأولى أمام انسياب صوتك في سمعي، لكنها وقفت مشدوهة مستفسرة. مئات الأسئلة. حشد من الغموض والدهشة.

ـ من أنت. . كيف أنت. . إلى أين أنت؟!

أنت أنثى ناضجة . . تتحدثين بثقة، وبقدرة على تطويع الحوار، وتوصيل المعنى.

في صوتك تحد، وفي عباراتك سرعة، وتلاحق لاختصار أشياء كثيرة. . . كأنك أردت أن تقفزي بي من الليلة الأولى إلى ما بعد الألف ليلة!

في استقرائك لأفكاري وخطوتي نحوك: كشف مباغت. . خلت أنه يحاصرني كمن يقول لي: أعرفك. . أعرف ما ترغب في قوله.

لا أنكر أنني اضطربت في اللحظات الأولى حتى تمالكت جأشي، وهدأت خفقاتي المتلاحقة. وشددت على مقود الحديث معك. .

ومنذ تلك اللحظة شبهتك "بالمهرة" المنطلقة التي يصعب على الفارس في بدء التعامل معها أن يشد رسنها!

كيف أنت؟!

كان هذا السؤال الذي لم أتعجل الحصول على إجابته في اللحظة. . فلن تكوني رشفة ماء قبل عطش الصابي، ولكنك هذا النبع المتدفق. .

شلال من العاطفة والأنوثة والوعي.

عندما تضحكين.. أقـول في سريرتي: هذا هو الفرح الحقيقي!

عندما تتكلمين جادة.. أقول: هذه خلفية إنسانية حافلة بالشواهد على التجربة، والعمق.

عندما يتهدج صوتك.. أقول: هذه شحنة وجدان لاتنفجر، وإنما تشع وتضيء!

ظننت أن حياتك تخلو من المشكلات. كان صدرك يغتسل حينذاك من أصـداء أخذت في الابتعاد، وكان يلتزم بمطاردة رجل يحلـم بك حـباً يتطور ليصبح حياة متحدة.

ولم أكن أعاني من مشكلة.. لكنني كنت كمن يتنفس الهواء من كل الجهات.

مشـقوق من الـداخل.. لكني نجحت في تدمير برودة النفس بدفء من الخـيالات والأطياف والأحلام..

مولع بطيور "النورس".. حتى عشقت كل ما هو أبيض ويوحي بالحزن!

وكان العجب أن يعكس هذا اللون الأبيض في أعماق النفس حزناً يتبتل.. شيئاً كالخشوع، كالصمت، والتأمل، كالإصغاء المريح!

دخلت إلى مسائك الأول.. هارباً من الزيف، ومن الطلاء، ومن اختلاط الألوان.

وكان هروبي الأكثر من "تأجير" العواطف أو رهنـها في بنـك التعامل البشـري، أو بيعـها للحظات قليلة من الامتلاك أو المتعة!

ورغم ذلك.. لم أكن ـ أيضاً ـ متألماً! كنت ـ فقط ـ أطارد طيفاً في خيالي.. يتموه كما قوس قزح، كما جناح طائر يغذ في أجواء السماء نحو الأبعد!

كل مشكلتي الحقيقية.. كانت في المعاناة من الزيف.

أصبح الزيف في دنيا البشر دقيقاً وكربونياً وخادعاً.. إلى درجة الصدق!

**(٣)**

ـ وأنت وأنا.. ماذا قلنا للمساء الأول؟!

ـ دعيني أصف لك ما شعرت به، لقد نمت في الليلة الأولى تلك قريراً مثل طفل مارس شقاوته، وركض وقهقه وسرقه النوم فجأة.. ليخلد إلى تلك السكينة بدون أحلام، ولا حتى خيالات..

وفي اليوم التالي.. تفجرت أسئلتي من جديد.. تربع الرجل في صدري وصرخ في رأسي.. كأنه يفتش عنك.

ـ تساءلت: هل أنت سحابة عابرة.. هل تراك قوس قزح ما لبث أن انسحب.. هل تراجعت لتكوني مجرد أصداء في الأيام؟!

وطردت الأسئلة، امتلأت من جديد بالطموح، وبالهموم، وبالرغبات، وبمشاكسات الحياة.

وخلت أنك تلاحقينني. وتفجرت الأسئلة مرة أخرى ولكنها ـ هذه المرة ـ في صيغة البحث عنك، وفي محاولة الاكتشاف لك!

ـ هل أنت ذلك الخيال الذي ملأ جوانحي زمناً طويلاً.. ليكون المساء الأول ميلادك، ومخاضك بين أضلعي؟!

كأنني قد تعودت عليك: عشرة عمر.

كأن لحظاتي الحميمة قد تعرفت على ملامحك لتطبقها بنفس ملامح الخيال المغروس والمعشب في صدري منذ سنوات.

افتقدتك منذ المساء الأول. ناديتك. أطلت التفت في داخلي. . حاولت الهروب من استيطانك في تلافيف نفسي.

ـ لماذا تطول اللحظة في الانتظار؟!

عندما يكون الانتظار مرهوناً بالإحساس وليس بالوقت!

ـ هل انتظرت طويلاً؟!

ـ بل أطلت الانتظار كالذي يطيل التحديق في صورة سيدة ليجتلي قسماتها بدقة!

ـ هل رأيتني بوضوح؟

ـ كأنني أرى نفسي. . أحياناً أرى نفسي في عينيك. . في غضبك. . في توهجك.

وهل تسألني بدورك: ماذا قلت أنا للمساء الأول؟!

ـ لم أفعل مثلك. فالتحديق يتعبني. . ذلك أميل إلى النظرة المباشرة والغريبة.

لذلك. . حاولت أن أقربك إلى رؤيتي أكثر. . أن أراك بعدسة "زوم".

ـ قلت لي إنك مثل كتاب مفتوح.

ـ قلت لك: هذا صحيح. . لكنك كثيف السطور، مرهق بفلسفتك

وبصورك المتلاحقة. مرهق بتهميشاتك على صفحات الحياة.

لست مثلك أيضاً.. فأنا بسيطة، عفوية مباشر. أحببت فيك الصدق. ولكنك تسرق هذا الصدق لمصلحة أنانيتك أحياناً.

أعرف أنك تردد دوماً على مسامعي: الحب أناني، ولم تصدق بساطتي وعفويتي.

لعلني كذبت قبل أن أراك. معك كنت أعاني من الصدق.. لأنني حرصت أن ننسج لحبنا رداء شفافاً من الأحلام، ونرتديه أمام العديد من صور الواقع المرهق.

أردتك أن تبقى في حياتي هذا الحلم الماتع الذي أريح رأسي عليه وأهرب بعيداً عن المعاناة والهموم الصغيرة والحزن الذي طاردته في عيني حتى وصفته قائلاً لي:

ـ إن حزنك بحجم عمرك.. بينما ضحكتك عندما تعلو تصبح بحجم الأمل والفرح والعطاء!

كم أنت رغيد الكلمة.. لكنك تقسو على الحقائق أحياناً!

بعض حقائق البشر مدببة كرأس سهم.. لكن الخلاص منها صعب، وأنت تضاعف الصعوبة حين ترهن الحلم بالواقع في بنك الأماني!

(٤)

ـ هل تريدين أن نفيق من الحلم؟!

ـ أبداً.. لم أطلب ذلك منك، لكنني أفتش عن اللحظة التي تدفئ برودة العمر، واللحظة التي تسفي الرمال من حول الغرسة التي زرعناها في منتصف العمر، واللحظة التي نحياها بإحساس كل العمر!

ـ إنني أحيا هذا الشعور المترع معك.. لكنها حياة اللحظة. الاحتواء المؤقت الذي لا يطول، بل ما يلبث الواقع أن يرميني بعيداً ويرميك أبعد من حدود التخيل والحلم.. لتكوني هذا "الطيف" الذي اختال وتبدد!

ـ لماذا تقول هذا الألم؟!

ـ لأنك ستذهبين إلى الحقيقة، وتدخلين واقع بحثك عن الوعاء الذي تنسكبين فيه امرأة، وأماً، ودفئاً لرجل!

ـ لكنك أنت هذا الرجل.. أنت حلمي وحقيقة عمري.. فهل تصدقني وتجيبني عن هذا السؤال: هل أنا مجرد طيف في حياتك؟!

ـ لا تسأليني أنا.. بل هناك الغد. الشمس التي تشرق في اليوم التالي. النهار الذي يطلع من سجف الظلام. الخفقة الوحيدة التي منحتها لك وحدك.. ولم أقدر أن أبيع!!

# سطر.. بدفء حلم!

## (١)

• كانت تقف في نهدة عمرها.. تحوطها المرايا!

ترى وجهها.. وما تعبر عنه ملامحها وانفعالاتها وتلقيها.

وترى ما حولها.. ما يؤثر في حياتها مداً وجزراً.. شروقاً وغروباً.. ضحكة ودمعة!

وترى ما خلفها.. وما يدبر، مما يعد تجربة مضت، أو خسارة آلمت، أو ذكرى رسبت الأصداء والشجن في أعماقها.

حاولت أن تحذر وتلتزم الحرص.. وأن لا تنزلق بخطوة متعجلة لا تعرف نتائجها، ولا تبصر امتداد الطريق إلى هدف تريده.

وأنهت دراستها الثانوية، واستقبلت مرحلة جديدة في عمرها.

وعندما انخرطت في مجتمع الجامعة.. كانت البداية بالنسبة لها تفرض عليها الكثير من التلفت، والتمعن، والحذر.

ـ قال لها والدها مرة: لا تكثري في التلفت إلى الخلف، ولا حولك.. لا أمنعك أن تفعلي ذلك حتى تكتشفي من بجانبك، ومن يلتصق بك، ومن يمسك بيدك، ومن يحاول أن يطعنك من الخلف..

لكن كثرة التلفت تعيقك عن التركيز في الطريق الذي أمامك، وتعرقل خطواتك أو تؤخرها قليلاً.

وفي الجامعة.. أطلق عليها زميلاتها صفة: المنعزلة، أو الصامتة!

وبرغم أنها حينما تناقش فكرة ما في دراستها.. تحاور، وتكسب إعجاب من يسمعها، وتذهل اللواتي لا يملكن إلا الإصغاء إليها عندما تتحدث!

وحينما تخلو إلى نفسها.. لابد أن تفتش عن إحدى صفاتها التي "يتهمها" بها زميلاتها، وتتعجب!

وأيضاً.. تجد نفسها تبحث عن إحدى صفاتها التي تداريها، وتواريها عن الناس وتجسدها بالخيال، وتحادثها، وتعيدها ثانية إلى ذلك الصندوق ـ بين ضلوعها ـ وتقفل عليها!

**(٢)**

كثيراً ما تساءلت في خلوتها:

ـ هل الأحلام عيب؟!

تصمت بعض الوقت.. ما بين حيرة تتوازعها، ويقين يسكن نفسها، وتجيب بعد ذلك:

ـ من قال إن الأحلام عيب؟!

الأحلام.. تصبح في بعض الأحيان مطلباً ضرورياً أو علاجاً نفسياً للحصول على الراحة.

ولكن.. ربما تصبح الأحلام رهقاً، ونصباً.. لو استطرد الإنسان

بأحلامه فتجاوز الركائز الهامة في حياته، واستخف بالأحزان، وبالتحديات وبالمثل، وبالقيم، وبالطموحات.

وعادت تستفتي نفسها بسؤال آخر:

ـ ترى.. هل تطول أحلامك هذه؟!

وإلى متى يظل الإنسان يحلم ؟!

تجيب عن هذا السؤال وهي شاردة نحو البعيد:

ـ أحياناً.. أحلامنا تعين قدراتنا، وأحياناً أخرى تشل تلك القدرات!

لكن الإنسان ينتقل من حلم إلى حلم.. كلما حقق حلماً، فإنه لا يكتفي وإنما هو يتطلع، أو يتلفت نحو ميلاد حلم جديد.

ـ استطردت: ولكنني أعترف. نعم.. لسنا الآن في زمن الأحلام!

إن الكوابيس التي تقض غفوات الإنسان مفزعة وأليمة على النفس.. فنحن في عصر الماديات، وعصر السلاح المهدر ضد النفس الإنسانية المباحة، فكأنها كوابيس متلاحقة!

تفكر قليلاً، أو يستغرقها الشرود. صوت من داخل نفسها يعلو قائلاً:

ـ ولكننا نفرح أيضاً. هناك الحلم، وهناك الأمل، وهناك الحب الذي يرقرق المشاعر، ويهدهد النفوس الملتاعة!

## (٣)

ولم ينته هذا الديالوج الداخلي بينها، وبين نفسها.

لكنها حاولت أن تحبس ما تبقى منه في صدرها، وأن تتنفس في نفس الوقت.

وشخصت بنظرها إلى نجمة بطيئة الحركة. . تتوسط السماء في ليل يسوده السكون والظلام، كأن القمر الذي تفتش عنه أصبح يخضع لمثل حالة بعض البشر في مناطق من الأرض. . يخضع لحظر التجول، والإحتماء من النيازك والشهب.

وطال تحديقها، وهي تنفي ـ في هواجسها ـ أن توافق بين ما يجري على الأرض بفعل الإنسان ضد نفسه، وما يجري في امتداد السماء الرحبة!

وفي تلك الهواجس. . كانت بعض الصور الراحلة من حياتها تلوح كما الأطياف، وتتذكر الكثير، والمحدود!

لقد كانت تحلم ـ منذ أخذت تشب عن الطوق ـ واندفعت إلى العلم، وأنهت الدراسة الثانوية، ودخلت الجامعة. . ومازالت تحلم، قائلة:

ـ كيف يمكن للإنسان أن يتسلق الشاهق من مرتفعات الزمن الوعرة، ولا يسقط؟!

وهي الآن في عامها الجامعي الأخير. . قاب قوسين أو أدنى من التخرج!

هي الآن. . تعتادها في وحدتها هذه أسئلة أخرى عن الخيارات الصعبة:

ـ هل تواصل التحصيل. . حتى تنال الدكتوراه؟!

ـ ترى. . ما هو المجال المفيد للزمن الآتي؟!

أم تراها ستقبل الاقتران بشاب من الذين تقدموا لخطبتها، وتقنعه بالاستمرار حتى تحقق حلم مستقبلها؟!

إنها الخيارات الصعبة.. فأين المستقر؟!

وأين ذلك الشاب الذي تتطابق رؤيته للمستقبل مع رؤيتها.. فيضمها إليه رفيقة درب، وشمعة تضيء حياته، وإثراء حب يرفد وجدانه؟!

كيف يفهم الشباب.. أن المرأة لم تعد فراشاً، وغسالة، وبوتوجازاً، وثلاجة تبرد أعصابه؟!

ما زالت تذكر ذلك الشاب الذي تقدم لخطبتها بعد أن طلق زوجتين.. الأولى عاش معها عاماً، والأخرى طلقها قبل انتهاء فترة الخطوبة؟!

كان دفاعه عن نفسه: إن البنت هذه الأيام تريد زوجاً "مفصلاً".. بينما هو، كان يريد زوجة بالزر!

(٤)

انشطر وجهها الصافي إلى جزءين:

وجه يبتسم، والآخر يغرق في الحزن!

ولماذا الحزن إذن؟!

إنه الحزن المضطرب.. حزن لو تبددت الأحلام، حين يقتحم الإنسان الحياة العملية، أو حياة المشاركة لإنسان آخر، أو تقتحمه الحياة بهمومها ومشاغلها، فتغمر لحظة التألق الروحي!

وهو حزن.. لو تحققت الأحلام، وأصبحت معايشة، ومن ثم معاناة وأشياء صغيرة، وبذلك تنحرف الأحلام وتتشوَّه. فلا تبقى للإنسان تلك اللحظة التي تمنح التألق الروحي!

ـ وكأنها تناجي نفسها فتقول:

كـل فتـاة حينـما تتزوج، تتضخم آمالها بما يشبه تضخم ميزانية المال . . بمعنى: أنها تشعر بالاضطراب، أو تطلب المزيد على حلم متواضع وهنيء، أو تصاب بالفجيعة عندما لا تستطيع أن توفق بين الحلم والحقيقة!

**(٥)**

وشعرت بالحزن، ويتكشف هذا الحزن أكثر، وهي تستعيد صدى صوت الشاب الذي تفكر أن ترتبط به، دون أن تعده.

لقد كان يهمس لها قائلاً:

ـ سنتزوج بمجرد خروجـك من قاعة الامتحان.

ـ قالت له: أنا أرفض هذه الطريقة . . لأنها تشعرني بالزج السريع!

وتراءى لها ـ لحظتها ـ أن هذا الشـاب يعدو نحو صفقة لا يريـد أن يخسـرها . . وهي ترفض أن تفهم الزواج على أنه صفقة . . حتى لو وجد فيها صفـات الجمـال، والعقـل والنضـج، والهدوء . . ولكن روحها أكبر ما فيها، أو أن الروح هي مضمونها . . بينما العقل هو عنوانها الإنساني!

طلبت منه أن يطرح بينهما بساطاً من الحوار ليلتقيها عند نقطة تجمعهما!

ولكنه هرب . . كأنه قد تغرغر بكوب ماء ومجّه!

وشعرت أن جانباً من الحلم قد احترق، وتساءلت:

ـ ترى . . هـل هـذه صفـة الشباب اليوم؟!

(٦)

ونجحت في الجامعة، لكنها رسبت في أول تجسيد للحلم!

وتحسست صدرها ذات مساء بعد تحديق طويل في الصمت. ونقرت بأصبعها على موضع القلب، لعلها تسمع الصدى!

إلى متى.. تبقى جالسة ترتقب أن تسمع الصدى؟!!

# سطر . . . بدفء شجرة!

## (١)

• دعني أشرع أمامك أبواب نفسي.

أنا هذه "الأنثى" التي لا تعرف شيئاً عنها. . ولكني ـ في بدء دخولك إلى نفسي ـ أقول لك: إنني "محرومة" من نعمة الغيرة!

الغـيرة ـ في رأيي ـ وإلى حد طبيعي، هي نعمة!

أظن ذلك لأنها توقد الغضب في الإنسان، ومع الغضب يسرع النسيان!

عندي صديقة لم تستطع أن تنسى بسرعة. . لأنها لم تستطع أن تغار من امرأة أخرى جذبت انتباه رجلها!

لعلك تدهش، حين تعلم أن صديقتي أبقت على صداقتها مع تلك المرأة التي استحوذت على عواطف رجلها. . لم تنقص صحبتها يوماً. . لم يتغير لونها ظلاً واحداً!

فكيف تصدق؟!

بقيت أفكر في هذا "الموقف" القصة، أو في هذه القصة التي تخلخل فيها "الموقف"!

تذكرت ما علّمته أمي لي منذ وعيت!

كل ما تعلمته من أمي بقي في حياتي مقدساً، مقدساً، مقدساً!

أتذكر الآن أنها قالت لي ذات يوم:

ـ الغيرة خطأ.. إنها تدمر حياة المرأة!

شربت هذه الكلمة. رضعتها مع اللبن من ثدي أمي. حفظتها غيباً. حرمت من الشعور بها!

الغيرة خطأ.

النساء جميعهن، أو أغلبهن يغرن. لكني أنا.. الغيرة عندي خطأ!

فكيف أفسر ذلك؟!

غير وارد أن أقتل رجلي، أو أقتل نفسي.. أيضاً غير وارد عندي أن أغار. الفعل والمقارنة يتساويان!

لو عاد رجل صديقتي إليها ـ قبل أن تنساه ـ لغفرت له، وعادت إليه!

لعلك تظن، أو ـ متأكد ـ بأن الذي لا يغار.. لا يحب!

ربما.. في ظروف طبيعية!

لكن ظروفي أنا، لم تكن طبيعية.. لم، ولن أعرف الغيرة!

**(٢)**

لقد طلبت "الحبيبة" ذات يوم أن تتعرف علي.. بحجة أسباب علمية!

لم أكن أعلم الخلفيات، والأسباب الحقيقية.

لم أكتشف شيئاً.. إلا بعد أن أصبحت صديقتي حقاً.

عرفت السبب الحقيقي لتعرفها عليّ. . لأنها أرادت أن "تتفرج" على الزوجة التي تستحوذ على الضوء في حياة زوجها. . على الجهر أمام الناس.

فهمت. . وأشعرتها أنني لم أفهم!

ستقول: برود ليس له مثيل. وغريب!

ربما. . ولكنني طمأنتها من خلال مجرى حديث عادي، وقلت لها:

ـ إنه لم يحبني قط!

كذبت عليها. كنت قد نسيته يومها على كل حال. وكان لطمأنتي وقع السحر عليها.

وتوثقت صداقتنا أكثر!

وذهبت إلى زوجي بسؤال/ جواب.

ـ سألني مندهشاً: هل هي محاكمة. . أم ماذا ؟!

ـ أجبته: لك ما تشاء. لعلها مصارحة. صدق. شجاعة. أنا أصلي من أجلك يومياً لكي تنجح في الهروب مني!

هل يمكن أن كل صلواتي ودعواتي لم تنفعك؟!

بل. . كيف يخطر في بالك أنني أطلب منك براهين وإثباتات على صدقك. على. . لا أدري ماذا؟

لمجرد أنني قلت لك: إن الله قد برهن لي مراراً أنه يحبني. بمعنى أنني أطلب منك براهين، أم ماذا؟!

منطق الأطفال دائماً يلكزني بالدهشة!

لا شيء أطلب منك... لا شيء سوى الهرب ـ بنجاح ـ بجلدك الأبيض، وبسرعة البرق!

لم يجبني. صمت. وبقي يحدق في وجهي!

**(٣)**

استطردت بسؤال/ جواب ثالث، كأننا في محاكمة سرية ـ علنية. قلت له:

ـ من المسؤول عن وضعك "الحزني" هذا؟!

كأنني أصغيت إلى صوتك يردد:

ـ لست أنت المقصودة بالحزن.. بل لعلك تشبهينني ـ فقط ـ بمشاعرك!

ست سنوات أعرفك. من بعيد ومن قريب. ولكني لم أحاول أن أستفزك؟

ما تبقى.. يصبح لا أكثر من صُدَف، غرقت بها أنا أكثر من غرقك أنت!

تهت. استغرقني ذهول منتش، أو كأنني بلا وعي.

وجدت نفسي بدون سابق إنذار "مجرورة" مثل أية كلمة يسبقها حرف الجر.. مثل الخروف إلى المذبح، ولكن.. لا أدري إلى أين؟!

أقول لك دون أن أتحرك: لقد وجدت نفسي ـ فجأة ـ في غير المكان الذي كنت أقف فيه!

المضحك ـ المحزن: أنني أنا ـ لسبب ما لا أزال أجهله ـ وبشعور

داخلي. . كنت أحس طيلة الوقت أنني "مُطاردة" لأطاردك!

وجئت أنت بعد ذلك، تقول لي العكس.

صدقني. . لقد ضعت، برغم إنني أدري أكثر منك بأن النساء يختزن الرجال عادة، مع إيهام هؤلاء الرجال أنهم هم الذين اختاروهن!

كلنا في داخل هذه الحكاية بالذات!

أنا لم يخطر في بالي أن أفعل ذلك.

إن كنت ترتاح لفكرة أنني طاردتك. . لا مانع عندي!

أنا لا أحاول أن أجادلك. . أحاول ـ فقط ـ أن أخبرك الحقيقة، كما رأيتها.

أنا ـ أيضاً ـ حاولت الهروب مرات، وكنت أنت. . أنت ـ في كل مرة ـ تعيدني مقيدة من هنا، أو هناك في ظلك، تماماً. . بمثل هذه الصورة التي صورها الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً، وقال له إياك. . إياك أن تبتل بالماء!

**(٤)**

هـذا الحوار معك. . أعتبره إجابة عن سـؤالك الذي طرحته:

ـ لماذا لا أعترف؟!

هاأنذا أعترف: إنني لأول مرة منذ سنوات ضعفت!

يلتقي الواحد منا بين الحين والآخر شخصاً. . يشعر أنه يعرفه من زمن. . ينجذب إليه بسرعة تفوق سرعة الصوت، ويحس بتقارب عفوي معه. . بأنه لو التقاه في ظروف حرة أكثر. . لكان حراً معه أكثر!

حدث هذا معي خلال أعوام طويلة.. لكنني ـ في كل مرة ـ كنت أقطع الحبل بحزم من أول الطريق، وبسكين حاد جداً، لا يترك مجالاً للأخذ وللعطاء.

ومـرة. أو أكثـر.. أصـر "الطرف الآخر" على العناد.

أخبرت أهلي، وطلبت منهم أن يزيحوني عن طريق ذلك الشخص، لأنني لا أريد أن أضعف!

أنا لم أضعف مرة واحدة خـلال تـلك السـنوات الطويلة.. سوى هذه المرة معك!

أنت لا تحب التردد، والحلول الوسط.. ولا أنا!

لذلك يا ـ سيدي ـ فإن الحل الوحيد، هو وضع حد لمشاكساتنا المطلقة.

وجـدت نفسـي مسروقة، ومتهمة بالسرقة!

وأصدق نفسي، وأصدقك!

يحصل.. ربما لا يحق للواحد منا أن يلقي نظرة خارج الدار، حتى ولو مرة بعد سنوات طويلة!

ربما.. لكنني فعلت ذلك.. سامحني أرجوك.

يوم كان عمري سبعة وعشرين عاماً.. كانت حواجز أهلي تقيدني، لأنني لو كسرتها لطالت الملامة أمي قبلي.. فنذرت "العزلة" حتى لا يطال ظفرها الصغير سوء!

ولـم تتخذ صديقتي ـ يومها ـ هذا القرار الذي اتخذته أنا.. إلا بعد أن تأكدت أنها لن تؤذي أمها، أو عائلة رجلها، أو فتاها!

لكـني الآن أنـا. . وليست صديقتي!

أنت مخطئ إذ تظن أنني ألعب بألعابي، ثم أحطمها وأرميها.

مخطئ. . مخطئ. . وهذا يكفي!

**(٥)**

هل من أسئلة أخرى؟!

نعم أعرف أنك تخبئ لي سؤالاً بعد. . وهذا جوابي عنه!

تعلم أن أمي ذهبت إلى هناك. . إلى بلدنا لبنان، وإذا لم أستطع أن أراها خارج ذلك الجحيم، فلابد أن أذهب إليها

وحدي. . لن أصطحب الأولاد معي. . لن أعيدهم إلى كابوس ما قبل ثلاث سنوات. . حين هربنا من خروم الشبك بالبحر!

المطار قد يقفل أو يفتح مئات المرات. . من الآن، وإلى أن يأذن الله!

أنتظر، وأرى. أتمنى لو رميت نفسي في البحر!

غليان. . . .

قد تخرج أمي من البحر!!

# سطر... بدفء ضوء!

**• مدخل:**

• الليل.. فخ للحب!

كل الأيدي تتشابك، وتغيب اللحظة في الحلم...

ويتكئ الضوء على الظل... والرأس على كتف العاشق والمعشوق!

والعشق هو اللحظة في هذا العصر!

والليلة ـ بعد المنتصف ـ يطأ العام القادم...

رأس السنة... مع الإنسان بلا رأس!

رقصة عام يأفل... وهمسة عام يدخل في العتمة... بعد ذبول الضوء!

فالليلة ـ مثل العام الماضي ـ مازالت: فخاً للحب!

**(١)**

من خلال الأذرع التي تتعانق..

وفي أصداء الضحكات المختلطة بعطر النساء، ونظرات الرجال الزائغة...

ومن فوق كتف رجل يستريح عليه رأس أنثى. . تخاف على تسريحة شعرها من البعثرة. . .

تلك اللحظة ـ قبل حوالي خمسة عشر عاماً ـ طلع اسمه، وانتشر في ترديد الليل، وظلال الأضواء، وقهقهات السهارى!

ذلك المساء ـ عند منتصف الليل من رأس السنة ـ كان صوته يعلو، وأنغامه تتصاعد. .

راكضة نحو "ريح الشمال الباردة"!

كان اسمه: "بوريس فيون".

وكانت أغنيته. . . احتفاء بسنة جديدة قادمة من الغد. . . لتصبح حاضراً يعيشه الكثير، ويحياه البعض. . . وتتحول في مثل هذه اللحظة إلى ماض، يهرب منه البعض، ويحن إليه القليل!

وكانت السيقان مظاهرة. . .

تؤدي رقصة عام ١٩٧١م!

ومن بين هذا الزحام. . . ولد صوت "بوريس فيون"، ليصعد. . . لينتشر. . . ليختفي بنفس السرعة!

**(٢)**

كان العالم في شعر "بوريس فيون". . . شتلة ضائعة من حقل مسروق!

وكانت "أوروبا" كلها تغني على الألحان الغجرية، والرتم الزنجي المرتطم بالأسئلة دوماً!

في باريس... حملت الصبايا أشعاره في صدورهن!

وحمل الفتيان حزنه في سوالفهم... وغربوه معهم!

هناك.. كانوا يغنون لـ"بوريس فيون" مرددين:

ـ أنا مجرد إنسان مسكين... أعمل وأحب... وأشقى وأموت.. وأسير بقدمي إلى الفخ"!

**(٣)**

القصة تبدأ من معاناته: فقيراً كان يبحث عن الثراء!

جرب كل الوسائل، وفشل... ولكنه طرد اليأس، وعاود المحاولة.

فكر أن يبيع المدافع... وباعها لكل من يملك الثمن!

كثيرون كانوا... أولئك الذين يبتاعون المدافع، والسلاح... دفاعاً عن أنفسهم، أو اعتداءً على الآخرين!

تلك هي طبيعة نفسية هذا العصر.

ومن المدافع، وتجارة السلاح: اغتنى!

وتلفت حوله، وهو يمتلئ بالأموال... وهو يودع الفقر، ويرمز للغنى.

واكتشف شيئاً آخر في حصالة ركضه:

ـ لقد أصبح يعيش وحده!

مات العالم كله... وظل وحده يقول: مدفع للبيع!

مات الإنسان ـ أكثره ـ وظل هذا الإنسان يرقص للسلاح، وبه!

(٤)

أصغى "بوريس فيون" إلى داخله. . . وصاغ التجربة شعراً!

صمت الزمن في أعماقه. . . فارتفعت أنغام أغنية، تحولت إلى: رقصة عام ١٩٧١!

غناها الشباب في أوروبا حينذاك. . . لأن الشاعر الحزين "بوريس" مات، وعمره لم يتخط الثانية والثلاثين!

فكيف مات الحزن؟!

هل موت الحزن يتساوى تماماً بموت التفاهة؟!

لقد ظهر بعد "فيون" مغن راقص آخر اسمه "ترافولتا"، وقدم رقصات. . كانت صرعة، أو انفلاتاً من الحزن إلى التفاهة. . . حتى سقط "ترافولتا" هو الآخر في "الشحم" العاطفي!

وهكذا. . . كلما احتار الإنسان

بسؤال قائل: ماذا أفعل؟!

كلما فقد أفكاراً حياتية، واتجه إلى طريق. . . يكتشف أنه فيه قد عاد من بدايته!

ويبدو أن شباب العالم يجري إلى ما يسمى بـ"الظاهرة الجديدة".

ولقد كانت سنة ١٩٧١... هي سنة التفكير بالإذن، فالذي يؤثر علينا. . . هو ما يصل إلينا عبر أسماعنا: كلمة في الشارع. . . أغنية في "الكاسيت". . . "مظاهرات" صحافية بالكلام المغشوش الفاسد. . . أسطوانة غالية في سعرها فقط. . . حكاية تقال في سهرة تترمد!

**(٥)**

وجاءت سنة ١٩٨٠، وكأنها سنة "الصداع"... فالذي كان يفكر فيه الإنسان مخلخل، والذي يقوله مذبذب على عدة موجات صوتية، بعدد إذاعات العالم!

وحتى مستوى "الفن" ـ موسيقياً أو سياسياً ـ فقد سقط "ترافولتا" ومات "الفيس بريسلي" ورقي "عبد الوهاب" إلى رتبة لواء، وانفصلت "فيروز" عن "الرحبانيَّيْن"، ومات بعد ذلك "عاصي الرحباني"، وظهرت أصوات تغني بعدد الليمون، ولم ترقص "نجوى فؤاد" لوزير بعد "كيسنجر"!

ورغم ذلك... ما زال العشق قضية!

قضية وطن، وقضية عقيدة، وقضية حرية، وقضية مصير.

وبعد "فيون"... بزغ الصوت الآخر من باريس:

أنثى... تنشر صوتاً فضياً، يتحول ألقاً في أصداء الليل.

كان اسمها: "جان مورو"... تلك التي دخلت الأمسيات بصوتها، وصادرت تعب الناس في حنجرتها، وسكبت بدلاً منه: راحة في أسماعهم.

ووقف الناس يصغون لهذا الصوت... حين كان يغني:

ـ في ليلة سفرك... خلعت ذراعي

ـ في ليلة سفرك... خنت نفسي

ـ في ليلة وداعك . . . قلت: أحبك!

وازداد رصيد "جان مورو" في مشاعر الشباب وأيضاً . . . في البنك!

واتضح أن سكان عالم الحضارة يجرون وراء لحظة الوداع، وخيانة النفس، وتوتر خفقات الضلوع!

الوقت سريع، سريع . . . وكل شيء يتم في الطائرة، أو في القطار، أو على الأقل في السيارة! ولا شيء يستقر، ولا شيء يبقى، ولا شيء يطيق كل الوفاء!

وكل انفعالاتنا، وساعاتنا، وانتظاراتنا: "كل" مرهون للحظة، أو بلحظة!

* * *

**• موقف:**

في ليلة رأس السنة أيضاً ـ وبالصدفة ـ ارتفع صوت "ميراي ماثيو" متهدجاً. شجناً . . . يردد حزيناً:

ـ "يا قلوب العالم . . ترقرقي، فقد حجرتك الأحقاد"!

لكنهم ـ في هذا العالم ـ ما زالوا يغنون . . . كأنهم في بيت جديد خرج كل من فيه، أو لم يدخله أحد بعد، أو لعلهم يرقصون بلا أنغام.

وبقي زهو الوحدة، والتأمل المطرز بنجوم الليل!

العالم ـ هاهو ـ يغني لخرافة المساء: الحب!

ها هو ـ العالم ـ يرقص لعروس الجن: القلق!

وشاعر حزين... مات منذ خمسة عشر عاماً، فوق صدر حبيبته القاسية.

وما أروع أن تودعك الحبيبة، لأنها أحبتك أكثر... لا لأنها اكتشفت سخافاتك الأكثر!؟

# سطر . . . بدفء "إنسان"

(١)

المساء متوقف. . . أفرط في تشـذيب غـرور الساهرين، وأشاح عن هدهدة الذين يمضون الليل وحدهم. . . في انتظار عودة النفس إليهم.

وتنسحب عقارب الساعة إلى كل مكان مليء بالزحام، أو بالضجة، أو حتى بالتأمل والتحديق. . . فيركض الوقت، ولكن هذا الوقت يبدو بليداً، ثقيـلاً، كـزجاجة طافحـة بالرمل. . . حينما يبقى الساهر "منقوعاً" تحت النجوم ينتظر!

فماذا ينتظر هذا الإنسان؟!

هـل مـازال ينتظـر عصا الساحرة في حكاية "سندريلا" . . . وقد أضاع الإنسان عيونه في الوقت الذي كان يفتش فيه عن "مقاس" حذاء تلك التي تواجدت في الهروب دائماً؟!

لقد أصبح الكثير في هذا العالم يركض حافياً، ويفكر بعقل حاف، ويحب بقلب عار من الدفء!

فـهـل كـان ـ إذن ـ ينـتـظـر عـودة الإيـقـاعـات إلـى الـحـاسـة فـي أذن "بيتهوفن" بعد موته؟!

لقد انتشر النغم.. أصبح النغم موجوداً في ألعاب الأطفال، وفي قرعات طبول الحرب... مثلما هو موجود في مشاعر الساهر وحده تحت نجمة "حرانة"... يترقب عودة "جودو"!

أم ترى هذا الإنسان... ينتظر "مطر العمر في توهج المسافة"... بينما المسافة أصبحت هي القدر المكتوب؟!

يبحث عن التوهج... فلا التوهج يتفاعل، ولا الغيث ينهمر... لكن العالم كله مجلود بالقوة... مسفوح بالصدمة... متمنطق بالخوف من نفسه.

الإنسان... لم يعد هو هذا العالم، بل يبقى في داخل العالم محكوماً بالمصالح، وبالضربة القاضية!

(٢)

في انتظار الفرح... تتوقف ريشة الرسام، ويجف حبر الشاعر، ويبح الشادي.

والوقفة ـ بعد منتصف الليل ـ لعل هذا الإنسان يعترف أن الناس يزرعون احتجاجهم في حدقتي عينيه، ويديرون ظهورهم مقهقهين في اللامبالاة...

وهو لا يمل انتظار الفرح، وانتظار الحقيقة، أو يستغرق في مزيد من خرافات: الجبل الذي يلد فأراً للعالم!

لعل الإنسان في انتظار "عروس الخرافة"... كما تلك الملامح التي رسمها مرة الفنان الفرنسي "بول جوجان" لفتاة من تاهيتي ـ جزيرة السحر ـ فأعطاها عصارة إحساسه وسكب فيها فنه... لكن دائنيه استطاعوا أن

يقهروا ذلك الفيض من نفسه ووجدانه، وباعوا تلك اللوحة في مزاد علني بمبلغ سبعة شلنات!!

وفي ذلك المساء المتوقف ـ بعد سرقة لوحته الأجمل منه وبيعها بالبخس ـ سهر حتى الصباح. . . فإذا أمامه لوحة أخرى، رسمها لوجه الفتاة ذاتها. . . حشد فيها ألمه وفقده، وأعطى منها تعبيراً جيداً فقد رسم وجه الفتاة، وترك هذا الوجه بلا عينين!

كأنه كان يقول لهم: أنتم خسرتم أثمن شيء في الإنسان، وأهم شيء، وهو: الرؤية، وستكون هذه اللوحة شاهداً شد ممارستكم للبخس في الحياة!

## (٣)

ومازال المساء متوقفاً. . . والذكرى تسترجع الأصداء من الماضي!

في عام ١٥٣٩م. . . . كان ذلك اليوم الذي بدأت فبه الآلام تتعاظم وتتكاشف على الشباب الذي لم يقدر أحد أن يردعه عن احتضان الفتاة التي يراها، وتسكن صورتها في عينيه!

قرر ذلك اليوم أن يغذ المسير، ويقطع الجبال والسفوح على ظهر جواده، وراء "ليونورا" الرائعة. . . ابنة قائد "إشبيلية" بأسبانية، القائد "ايللوا". ومنذ ذلك التاريخ السحيق. . .حتى أيامنا هذه، ما زال يعيش في أذهاننا اسم العاشق الشاب "دون جوان تينوريو". . . الذي تحول إلى "صفة" نلصقها بالشباب المنطلق في حياته العاطفية، وربما المتهور أحياناً.

لكن "دون جوان" الاسم الأصل. . . الأسباني الحائز لقب "نبيل"،

استطاع أن يمتشق ـ في أغلب أيامه ـ سيفاً، ويغرس في قلبه شجاعة دفعته لأن يقول لكل محاول للإعتدء عليه:

ـ "إليك الساحة للمبارزة.. فأما أهدرت دمك، أو تضرجني بدمائي، وأنا مؤمن بأن الموت لن يكون عامل خوف في نفسي... إنما شجاعة من بارزني كانت سبباً في قتلي"!

واستطاع أن يغمد خنجره في صدر القائد العظيم، ذائع الصيت: "ايللوا" عندما تلقى منه إهانات متلاحقة، واستفزازات جاءت كلها أمام "ليونورا" التي شغف حباً بها، برغم عزوفها وصدودها عنه!

كان هم ذلك الشاب، المفتول العضلات، أن يخطف ببصره وجه فتاة نضرة من داخل نافذة بيتها... ليضعها بعد ذلك بين ذراعيه، ويأخذها إلى بيته، وهو الحاصل على لقب "نبيل"، ويضع في أنفها عطر الترف والبذخ المنساب من أرجاء قصور سادة البلاد ونبلائها... فيتعذر على الفتاة حين ذاك أن تلتقط بأنفها رائحة الأرض والناس الذين كانوا في يوم ما أهلها وذويها!

فأرهقه التعب، وهدته المبارزة في كل حين.. من أجل أن يعود إلى موطنه أسبانيا من فرنسا، وفي ذراعه ابنة أرضه "ليونورا ايللوا".

وأفجعه تصميم ذلك الرجل الذي أقنع "ليونورا" بمعنى الحياة الحافلة بمشاعر الناس الآدمية، لأنه لم يكن "نبيلاً، ولم يحز لقب "الكونت".. بل كان يبحث ـ وهو يدافع عن ليونورا ـ عن سبب، وحقيقة أهله تحت مقبرة!

واستطاع أن يتزوجها... في اللحظة التي قرر فيها "دون جوان تينوريو" أن ينتحر... بعد أن هزمته امرأة، وهو الذي كان مثالاً،

وأسطورة تكاثر حول مكانها الجميلات. . ممن كانت مقاومتهن منهزمة أمام إغرائه!

(٤)

وقبل سنوات. . أثاروا حملة شعواء على أنثى لبنانية، كانت تعشق الكتابة والكلمة، وكتبت عن الشباب الضائع في حمى صوت الطبول والرقصات المشهورة آنذاك: مثل: التويست، والهالي، والتاموريه، حتى "السيرف".

وعلت صرختها قبل أن تصمت نهائياً، فقالت يومها:

ـ "إن الشبان هنا يحلقون رؤوسهم كما كان نابليون يحلق رأسه، والنساء تلبس ثياباً استوحاها مصممو الأزياء من ثياب نساء نابليون"!!

وكان هذا الصراخ في عام ١٩٦٤م، في قمة الصرعات، و"الموضات" وجنون الشباب!

فما هو نوع الصراخ اليوم في عام ٨٦، وبيروت قد تهدمت، والشباب لم يعد يمتشق إلا نفسه؟!

ما زال المساء متوقفاً. . . يفرط في تشذيب غرور الساهرين!

ما زلت متفائلاً بقدرة الوعي على عودة النفس النقية!

ما زلت أنتظر الإنسان!!

# سطر . . . بدفء "كف" !

(١)

• أعلنت المضيفة عن إطفاء إشارة ربط الحزام.

ضغط على زر كرسيه ليدفع بظهره إلى الوراء. أسند رأسه على وسادة صغيرة. ألقى بساقيه إلى الأمام، متخذاً وضع النوم. . . حتى تمر ساعات الرحلة الطويلة دون أن يشعر بها، ويريح عينيه وجسمه من سهر الليلة الماضية.

ـ قال لصديقه بجانبه: ألا تنام قليلاً؟!

ـ بل أريد أن أقرأ. . .فرصة أن نعوض وقت الأرض بوقت ما بين السماء والأرض.

ابتسم وهو يغمض عينيه، ثم همس لصديقه:

ـ لكن. . . أيقظني عند إحضار المضيفة للطعام، فأنا جائع!

ـ سأله صديقه: جائع للطعام؟!

لكن المضيفة لم تمهله وقتاً طويلاً ليستغرق في النوم. كان قد أغفى. . . . فإذا به يشعر بيد ناعمة تربت على كتفه. حدق في وجهها وهي تسأله:

ـ هل تـريد أن تأكـل، أم تنام؟!

ـ أجابها ساخراً: لقد أيقظتني. . . فلا بد أن آكل!

التفت إلى صديقه بجانبه، وكان مستغرقاً في قراءة كتاب معه. سأله:

ـ ألم تشاهد المضيفة. . . ابتسامتها صافية جداً كنبع ماء.

ـ أيها العجوز الأصلع. . . انهد يا شيخ، أنها فتاة عادية جداً.

ـ أبداً. . . ابتسامتها تفيض بألوان من المعاني، كأنها قوس قزح.

ـ إنها تمنح هذه الابتسامة للجميع. . . هذا هو الاشتراط الرئيسي في عملها.

ـ ابتسامتها دخلت قلبي.

ـ بل دع هذه الابتسامة تتزحلق من فوق صلعتك. . . هذا أفضل لك!

**(٢)**

حملت المضيفة إليه طبق الأكل. . . وهو يعاود التحديق في نفس تلك الابتسامة التي خيل لصديقه أن كل مضيفة تلبسها وقت الشغل لئلا يغضب منها الركاب!

ـ سألها: أنت عربية. . . ها؟!

ـ قالت: أظن ذلك، فلا بد أن تعرف من لغتي معك.

ـ قال: لكن شعرك أصفر، ولست سمراء، وعينيك ملوَّنتان!

ـ قالت أمي يونانية، وأبي عربي.

ـ قال: ومتزوجة. . . ربما قريباً، فليس عندك أطفال فيما أعتقد.

تطلعت إليه باهتمام، افترشت ابتسامتها وجهها كله. سألته:

ـ وكيف عرفت؟!

ـ أجابها: فراسة!

ـ قال صديقه للمضيفة: إحذري منه... إنه متعدد المواهب، ويقرأ الكف أيضاً!

ـ قالت بفرح: صحيح... هل تقرألي كفي؟!

ـ قال: إذا أردت.

ـ قالت: سأعود إليك بعد أن أنهي عملي. استعد!

وخيل إليه من انطلاقتها كأنها تركض... لتتخلص من عملها بسرعة وتعود إليه.

نظر إلى صديقه مغتاظاً، وقد رآه يداري ضحكة ستفلت منه.

قال له:

ـ اضحك يا سيدي. خلاص.. أوقعتني وجلست تتفرج. أنا أقرأ الكف، وكيف سأقرأه لها بعد قليل... ماذا أعرف عنها لأقوله لها؟!

ـ تستاهل... حاولت أن تحدثها وتلاطفها، هاهي بعد قليل ستضع يدها في يدك.. يا بختك ياعم!

ـ لا بأس... سأنادي على مضيفة أخرى، وأسألها عن زميلتها، فأستفيد!

ـ هل تتغابى؟ ستقول لها زميلتها إنك أخذت معلومات عنها.

ـ صحيح.. فماذا أفعل؟!

ترك الأكل أمامه، ونام!!

**(٣)**

مرة أخرى. . شعر باليد الناعمة تهز كتفه، توقظه هذه المرة بلطف أكثر.

شرع جفنيه، وأحس كأنه يغرق في اتساع عينيها. استوى في مقعده باهتمام، وقال لها:

ـ أهلاً. . . هل جئت؟!

ـ قالت: لقد أغريتني. أنجزت عملي بسرعة، وجئتك.

أمسك بيدها. وسدها راحة يده الضخمة، فبدت يدها مثل عصفور يرتجف من البرد. اضطرب قليلاً، كأن يده تحضن يد أنثى لأول مرة. قال لها وهو يمرر إصبعه على خطوط كفها:

ـ لديك مشكلة تؤرقك!

ـ قالت: كل إنسان لا يخلو من مشكلة.

ـ قال: ولكن مشكلتك ترتبط بقرار في حياتك.

ـ قالت صحيح. . . ها. . . وماذا سيحدث؟

ـ قال: كيف تعيشين مع زوجك؟

ـ قالت: إنني أحبه جداً. . . مازلنا عرساناً، لم نكمل العام بعد!

ـ قال: واضح، واضح. لكنه يريد طفلاً، وأنت لا تريدين الآن!

ـ قالت: يبدو أن الخطوط "تلخبطت" عليك. بالعكس يا أستاذ. هو لا يريد الآن، وأنا أريد.

ـ سألها: عجيب... أنت تعملين في الطيران. كل يوم مسافرة، فالطبيعي أن ترفضي أنت!

ـ قالت: هذه هي المشكلة، أنا تعبت من السفر والرحلات، وأريد طفلاً لأستقر في بيتي، وأهتم بزوجي.

ـ قال: وما هي أسباب اعتراضه هو؟!

ـ قالت: الظروف كما يقول... فلابد أن نبني أنفسنا أولاً، ونكسب أكثر، ونجمع مالاً، ونؤمن سكناً، حتى نقدر على تربية الطفل، أو الأطفال!

ـ سألها ولكن.. لابد أن يكون هناك سبب آخر؟!

ـ قالت: هذه هي المشكلة. يقلقني رفضه.

ـ قال: آه... فهمت. هل تستعملين مانعاً للحمل؟

ـ قالت: أبداً يا أستاذ.

ـ قال: إذن دعيه يذهب إلى الطبيب، وأنت معه أيضاً، ليرتاح كل منكما. فلا بد أنه متردد.

ـ قالت: ها أنت تؤيدني، وتفكر بنفس ما يشغلني. وما ظننته.

ـ قال: تقصدين أنه يعلم بعجزه عن الإنجاب، ويطلب ذلك منك؟!

ـ قالت: وإلا... لماذا يمانع، خاصة وإن مورده لا بأس به، مع موردي نعيش في بحبوحة.

جاءت زميلتها تطلبها باستعجال. استأذنت منه، وستعود إليه بعد قليل.

ـ قال له صديقه: حرام عليك. . زرعت الشكوك في نفسها!

ـ قال: لم أكن أعلم أن الحديث سيتطور ليصبح مشكلة حقيقية. كنت أمزح.

**(٤)**

عادت إليه مسرعة. ناولته كفها من جديد، وهي تقول:

ـ ها. . وماذا بعد؟!

ـ قال: زوجك يحبك جداً.

ـ قالت: أعرف. . . على الأقل الآن، لأننا ـ كما قلت لك ـ مازلنا في سنة أولى زواج وحب.

ـ قال: لكن أهله لا يرتاحون إليك!

ـ قالت: آه. . . هذه نقطة ضعف حبنا وحياتنا، فهو لا يريد إغضابهم، ويجاملهم دائماً على حساب حقوقي، أخاف أن تضعف هذه النقطة حبنا؟!

ـ قال: إنهم يضغطون عليه باحتجاجهم على طبيعة عملك، وسفرك الدائم!

ـ قالت: صحيح والله، ولكن هذه مهنتي من قبل أن أتزوجه، وقد رضي بها.

ـ يخاف عليك كثيراً. . .

ـ قالت: بل يشك في من كثرة حبه لي.

ـ قال: معذور. . فأنت جميلة جداً ويخاف عليك.

ـ قالت: صدقني إنني أعاني من حيرة كبيرة، فأنا أريد الطفل ليهدأ أبوه، وأستقر أنا.

وقفت مضيفة أخرى تبتسم، وتتابع الحوار. قالت له:

ـ أريد أن تقرأ لي كفي أيضاً!

ـ قال له صديقه: مهنة جديدة... افتح لها مكتباً!

**(٥)**

توقفت الطائرة، ونفر الركاب من فوق مقاعدهم يتسابقون نحو الباب كالعادة!

حمل حقيبة يده. رآها تقف عند باب الخروج... تبتسم بنفس تلك الابتسامة.

ـ قالت له: شكراً... أتمنى أن نراك في رحلة أخرى.

ـ قال لها: أتمنى أن أراك فوق الأرض.

- قالت: المشكلة الأخرى التي لم أقلها لك: أنك لا تستطيع أن تطير، وأنا لا يمكن أن أقع!!

# سطر . . . . بدفء "العيد" !

**• مدخل :**

• إن منظراً رائعاً يجذبك. . لتتأمله "ليلة العيد"!

تأمل نفسك، كمرآة على وجوه الناس، الفقير منهم والغني.

أنت مثلهم ـ إذن ـ تركض، وتجري، وتفتش عن الفرح!؟

أنت مثلهم. . . تتلفت نحو صبابة من صفاء النفس والروح، لترتفع بك من ذلك الانغماس النفسي والذهني في شؤون وشجون العمر!

**(١)**

إن منظراً رائعاً يجذبك. . . لتتأمله "ليلة العيد":

في العيد. . . تطوف رغبة أولى /أثيرة على كل الرغائب. . فيها مقياس المعنى والروح الذي يتفوق على مقياس المادة، وطغيان الذات.

في العيد. . . ترف القلوب جذلى بترنيمة خيرة. . . صداها من أعماق الناس، ومن أفئدتهم، وعفويتهم.

في العيد. . . البسمات ينبوع محبة وفرح!

النظرات جناحا حمامة بيضاء تصفق بمعنى السلام في مجتمع الناس.

السلام ينادي بالتآخي، وبالتسامح، وبالصلح الخير... وينبذ الكراهية والأحقاد، ويصل الرحم، والأصدقاء.

في العيد... هناك الآلاف من المشردين في الخيام، وفي الغربة...

مئات السنابل الإنسانية على شكل أطفال...

وآلاف "الأرحام" التي تتفتح من خلال أمومة العالم... والعالم يشردها ويقتلها!

في العيد... الحب يعزف أنشودة الصفاء الإنساني... ذلك الذي يجمع الناس كلهم في مناسبة واحدة.. يتألفون فيها ويتآلفون!

والناس يفتشون الآن عن الحب في زحام الماديات، وسهولة القتل، وكثافة الأخذ، وتواضع العطاء!

## (٢)

إن منظراً رائعاً يجذبك.. لتتأمله "ليلة العيد":

في الزمن القديم، قبل أن تصبح "الضحكة"سلعة تباع بالقطعة في "سوبر ماركت" المصالح، والضرورات،

والاحتياج...كنا لا نفرق بين الأب وطفله في "ليلة العيد"!

كلاهما يشعر بالفرح...

كلاهما تتساوى في نفسه الرغائب، والتعبير عن الفرحة....

إنك لن تجد فرقاً كبيراً بينهما... كل واحد منهما ينتقي حذاء جديداً، والحذاء هو "أبرز" قطعة في الملابس، بل هو "أشهر" قطعة، قبل أن يصبح أغلى، ومن خلاله يعرف الناس ذوقك!

أما في الزمن الجديد. . . فما زالت قيمة الحذاء ترتفع، ولكن. . ليست في مناسبة العيد فقط، وإنما طوال العام. . . بينما العالم يواصل البحث ـ ما زال ـ عن قيمة الإنسان!

وفي الزمن الجديد. . . لم يعد الأب يدري بالكثير والأهم مما يريده ابنه. . لقد اتسعت المسافة بين الجيلين بشكل خطير!

لم يعد الأب يدري ما يريده هو ليحصل عليه، أو ليفوز به!

وفي الزمن الجديد. . . أندرس الزمن القديم تماماً، فلم نعد نحفل بالزيارات لـ "المعايدة" في أيام العيد. . . بينما آباؤنا وأجدادنا يقسمون الأحياء، والحواري في العيد إلى أيام!

كانوا يخصصون كل يوم لحيٍّ، أو لحارة. . . يدخلون البيوت، ويقدمون التهنئة، ويتناولون القهوة، ويأخذون حبة حلوى!

الأجمل الذي ينتشر كضوء. . .

هو في غرس تلك الابتسامة الصادقة التي تدل على المحبة، وعلى تماسك المجتمع وتلاحمه.

وفي الزمن الجديد. . . هل يمكن أن نحصي عدد الناس في الحارة، أو في "الحي"، ونحصي عدد الذين لم يبرحوا بلادهم، ولم يسافروا قبل نهاية رمضان. . . لقضاء العيد في أوروبا أو حتى في دولة عربية؟!

في الزمن الجديد. . . تصطدم بالأقفال التي غلقت الأبواب الموصودة.

وفي الزمن الجديد، يعلو صوت "فيروز" في الغربة، مختلطاً بالريح وبالنسمة:

ـ "لا تندهي... مافي حداً، لا تندهي"!

**(٣)**

إن منظراً... يجذبك، لتتأمله أيام العيد:

أصبح الكثير منا يرى أهله، وأصدقاءه بواسطة البطاقة. إما بطاقة تهنئة بالبريد المفتوح، وإما بطاقة دعوة إلى زفاف... فتكتشف في سهرة الزفاف أن هناك العشرات من أصدقائك الذين لم ترهم من سنوات، أو لم تعد تعرف سحناتهم!

والأغرب من ذلك كله... أن "كل" الناس يحسون بهذه الأخطاء، أو بهذا التقصير، ويتحدثون عنه بألم، ويشجبونه بحماس، ثم "يمارسون" نفس الخطأ، ونفس التقصير!

"كلنا" نتحدث عن هذا التقصير الذي تسبب فيه التغير الاجتماعي، فنسترجع أيام زمان، وصفاء أيام زمان، وحلاوة أيام زمان.. وياليتها تعود بعفويتها!

ثم... إذا بنا "كلنا" نمشي ولا نلتفت، ولا نحاول أن نعدل الخطأ، أو نمحو التقصير!

"كلنا" نمارس، نفعل... فنحن ننفس، ولا ننفذ!

**(٤)**

إن منظراً... يجذبك، لتتأمله أيام العيد!

ـ وسؤال حائر: كيف نستعيد الجوهر، ونستبقي جذور تلك المحبة

التي نخاف على فقدها حيناً، وننعاها حيناً آخر. . . إذا لم نبادر نحن بسلوكنا، وبتواصلنا، وبعلاقتنا، وبحميميتنا، إلى المحافظة على كل ما يجعلنا أكثر قرباً، وأكثر إنسانية، وأكثر تودداً وتراحماً!؟

ترى ما الذي يركض هناك، ويترك خلفه الغبار؟!

ما الذي يمشي وئيداً، ويدعك ترقب كل خطوة؟!

إنها مواكب بشرية. . . تحدس أن أعماقها تربة للإنسانية، ولقيمها، ولشرائعها!

وتعبر بك تلك المواكب. . .

وتعبر أنت بنفسيات الناس، ورغائبهم، وطباعهم. . .

ويجرفك ذلك كله كالسيل. . . لتكون من الراكبين، أو الراكضين حتى اللهاث، أو لتكون من المتئدين حتى التبلد، والذهول!

إنك لا تدري من أصبحت. . .

في غمرة التغير الزمني، وفي لحظة استبدال منظر من الحياة مكان منظر آخر!

ولا تدري من أنت. . . سوى أن تكون بشراً، طموحاً حيناً!

إنك تسابق نفسك، وزمنك، ويومك. . . لتصحو بعد كل مناسبة في وقفات عمرك على "فرملة" شديدة، تقول لك:

ـ تبقَّى من صبرك كذا، ومن فلوسك كذا، ومن إنسانيتك كذا.

أشياء كثيرة تنضب فيك وتقحل.

إنه الزمن بالفعل!

وتقول لك "الفرملة":

ـ طرأ عليك مرض جديد اسمه كذا، وزادت نسبة الاندفاع إلى المال، أو إلى البروز، أو إلى الامتلاك بمقدار كذا، وتولدت لديك مشكلات أخرى لابد أن تفكر في حلها... فاضحك ولا تكتئب، فالحشرات أصبحت لديها مناعة ضد المبيدات... وأنت ـ الإنسان ـ أكرم من الحشرات وأعظم، ولكن المبيدات التي تترصدك، والتي تفكر فيها أنت أصبحت تتفوق على مناعتك!

وتتحول الحياة إلى تكريس ذهني ونفسي يغمرك... لتفكر تماماً، كما كان الفقير يفكر في الرغبة الأولى، وكما سيفكر الغني في الرغبة التالية.. لأن رغباته لا حدود لها!

## (٥)

وأتوقف في هذا العيد... أجيل النظر، ولا أطيق التحديق!

لا أقدر أن أحدق في قطع الرحم... من الذين استأثرت أغراضهم بعقولهم، ومن الذين انكفأت تفاهاتهم على عواطفهم.

ومن الذين تلوثت نفسياتهم بمصالحهم الذاتية!

لا أقدر أن أحدق في بوادر التفكك في البنية الاجتماعية الأسرية.. حتى إذا تلفتنا قليلاً لم نجد سوى الفراغ، والأصداء، والصدأ!

لا أقدر أن أحدق في ساحات "بطولة" الأمة العربية والإسلامية... لئلا أرى الخيول العربية تترنح في الفراغ، وفي الغبار، وفي الطعن من الخلف!

لابد أن يتلعثم فرحي!

وفي إنسان العين سؤال!

هاأنذا . . أقف، وأدق على صدري!

وهذا فجر العيد يلوح . . . إجابة فرح ـ أتمنى ـ تخرس كل سؤال موجوع!

هاأنذا . . . أخبئ لحناً جذلاً بين الشفتين، ولا أدري . . . متى نغنيه!

(٦)

تساقطي ـ إذن ـ أيتها الأقفال المصنوعة من تعب الروح، وخرس الصدق، ومن ضياع المحبة!

ليكن عيدنا بوابة فرح . . . تستقبل مواكب الشمس، وتترنم بأغنية تفك انحباس اللحظات الأثيرة/ الحميمة، وتنثرها رشة عطر وطيب!

وكل عام وأنتم بخير!

# سطر... بدفء نهرها!

(١)

• أيتها الطالعة فوق سطح العمر... المشرقة ـ شمساً ـ تسطع على سنيني:

أمام طلوعك، وإشراقك، وإبهارك... غسلت وجهي من غبار متاعب دورة زمنية كاملة... حافلة بأعنف الرياح والأعاصير.. مليئة بالضحكات المبحوحة المتيبسة!

غسلت صدري، وشراييني من "إرهاق" التفاؤل الذي لا يأتي... حتى أتيت أنت.

ووقفت أتأملك "فجراً".

وقفت أتملاك... أستكنه ما سيكون لك من رحيق، وأستنشق ما يفوح منك من عبق!

وقفت أمامك: مغروراً باكتشافي لك...

إنساناً ـ وقفت ـ راغباً، وخائفاً ومذهولاً بهذا الضياء ... يشع منك!

رأيتك "بكر" البسمة... تحتوين بهذا الضوء الوافد منك.

وكل هذا الضوء ـ رغم نوره اللامتناهي ـ : غموض، ومجهول!

وكنت تهتويني بهذا الغموض. . لتصقلني فيك:

تجربة عمر. . . ستبقى في حياتي "شجاعة خطوة" . . . أقدمت بها، وقدمت إلي!

(٢)

انتظرتك ليلاً طال. . . تشامخ فيه سهد الترقب والتلفت.

كنت أمعن النظر في أمسيات يدب النعاس فيها من شدة الفراغ النفسي والعاطفي. . . من حرقة النوى القديم الذي باعد بيننا سنوات!

والمساء. . . كان يوغل في الصمت المطبق. كان يذكرني بعبارات "زارا" المنطلقة بأسى إلى صدري:

ـ "طوبى لمن دب في عيونهم النعاس. . . إنهم عما قريب سيرقدون" !

ولم يدب النعاس. . . ولم يتفتت صمتك. . . ولم ينقشع سهدي!

كان هناك إقناع آخر ـ في هروبك ـ يحضني قائلاً: لا تنتظر. . . فالفجر إذا اختبأ وراء الغيوم، كانت الصدمة أعنف، وإذا فتحنا أعيننا على شروقه. . . كانت المفاجأة والصحوة!

كنت أنتظرك هذا الفجر الذي يمزق ظلمة الليل، والانتظار!

لكني بقيت مشحوناً بالانتظار. . . وفي جوانحك: "فكرتي" ، وفي طلوعك: أملي العذب، وفي وجهك مرآة بسمتي التي أتوق أن أراها دون أن تنكسر!

**(٣)**

كان المساء... مجرد أديم، انطبعت عليه حوافر الخيول الراكضة!

نحن نمتطي ثواني السعادة بعنف، ونلكزها لتجن وتنطلق بنا إلى نهايتها...

كان المساء قد تفرق منه المتفرجون... بعد أن أرهقهم "الفضول"!

وبقيت وحدي أرتقبك!

لم أكن شجاعاً أمام "الفضول" كواحد من البشر، ولا متعاطفاً معه...

كنت ـ فقط ـ انتظر أن تأتي نهاية بلا سحب... وأن تبزغ بداية بضياء نقي!

أعمق الساعات ـ يا حبيبتي ـ ثمالة الليل!

وقد ارتضيت أن أصغي بنبضي... وتمنيت أن أجد الأرض تحتي ومن حولي مزروعة بالحشائش، وأن أرى السماء فوقي واضحة، صافية في امتدادها اللانهائي!

بدأت "أحلامي" تشمس في عروقي...

بدأت "خواطري" تردد عبارة أخرى... كأنها لحن ينساب:

ـ "أن في داخلي بحيرة وحيدة، قانعة بنفسها... غير أن نهر محبتي يجتذبها في مسيره، ليقطع معها السيول، ويترامى وإياها في لجة البحر"!

آه من نهرك يا حبيبتي!

هاأنت في مواجهتي... يا عمراً جديداً قد انبلج.

هاأنت ـ برغم السنين ـ هذا الضياء الذي يترقرق في حدقتي عيني!

وهمست لك حين لحظة اللقاء ـ العودة:

ـ الانتظار لا يقتل، ولكنه يصهر، ويبني الإرادة. المهم أن لا نيأس، والأهم أن نكون صادقين!

حصيلة استمزاج الدخائل الصافية لنطفة الألم في الأعماق. . . منحت وليداً لا يعرف من هو، ولا في أي موقع. . . لكنه سيصير، وسينمو بغذاء ممزوج من الدمعة والابتسامة!

**(٤)**

الذهول. . . يرسب في صدور الموجوعين: امتنان الهزيمة لمن لا يصبر!

والرضا. . . جرعة ضرورية في بعض الوقت، بشرط أن لا تزيد الجرعة، فتتحول إلى إدمان!

من يدمن "الرضا" بكل الأشياء، يصبح مثل تماثيل الإغريق: حدقاتها من زجاج، وتتوهم أن "الرؤية" داخلية!

إن حقيقة "الاستبشار" ـ يا حبيبتي ـ لا تدل على مثبطات اليأسٍ!

ففي الصدور أضلاع. . . يمكن أن يحيلها البشر إلى سرير فقير هندي. . .

ويمكن أن نجعل منها وسادة "شهرزاد" بعد أن ضمنت رأسها من سيف "شهريار"!

وقد تصبح مرقداً. . . تأوي إليه كل ليلة "سندريلا". . . بعد أن فقدت فردة حذائها، واحتفظت بملامح حبيبها!

الاستبشار ـ يا حبيبتي ـ ليس دوماً هو مرآة "الجيوكندا"!

وليس هو بحيرة "نيرجس" الصافية!

إن الاستبشار قد يتحول إلى مدينة... لا يسكنها إلا "الرواقيون"!

**(٥)**

أحدثك ـ يا حبيبتي ـ حديث المعرفة... فأذكرك بما تحدث به "نيتشه" ذات مرة عن ما أطلق عليه: "مبدأ التكرار الأبدي"!

ـ قال: "إن الأحداث الواحدة تتكرر، وتذهب لتعود... ولكن في دورة، مدارها يستغرق أعداداً هائلة من أعمار"!

وهذا ينجذب بالالتصاق إلى "طينة" البشر... كنماذج خليقة تتلون سحناتها، وتتغير، وتتطعم، وترتقي، وتنحط... ثم تلقي نظرة إلى تصرفاتها... فلا يبدو ثمة اختلاف جوهري في "الإيديولوجية" التي تقام عليها جذور الإنسان!

غير أنه في لحظة التأمل، والتفكير، وموهبة الإبداع، وتمرد العقل... "تتحور" المفاعلات التي تمد الحياة بالاستمرارية، فلا يكون هناك "التكرار الأبدي"، وإنما تختلج إرهاصات البشر، فتقذف نتائج بعيدة الشبه، متناقضة التاريخ مع البداية، وعند النهاية... ولا تبقى للدورة أهمية الأثر كونها انطباعاً تاريخياً... لا بأس أن يمزجه الإنسان بشيء يسميه: إصراره أن لا يتغير!

لقد جاء بعد هذا الرأي بسنوات طويلة جداً، مؤرخ مفكر، هو "أرنولد توينبي" فقال:

ـ في الحقل الإنساني تمر بنا أحداث نعيها ونحصيها، ثم تليها أحداث

غيرها، فنحاول أن نجد فيها ما وجدناه في سوابقها، فنخفق، وتنتهي هذه الحوادث الحديثة بما لم تنتهِ به الحوادث القديمة، أو على الأقل: ليس من الضروري أن يلتقيا عند نهايات واحدة"!

ونحن بهذا نفعل التطور للحياة، ونمنح الجديد للزمن!

**(٦)**

في مهرجانات الحياة ـ يا حبيبتي ـ يكره الإنسان من يدله على أعماقه. . .

ففي هذه الأعماق ـ أحياناً ـ نملك الإقدام على الاحتفال. . . لكننا حين نحتفل، يحدث "الطفح" على السطح!

في لحظة الاحتفال. . . ننسى أن تكون هناك نهاية.

حينما ننسى. . . لا نذكر احتمال: الفراق/ والحزن، والقطيعة، والموت!

إننا ننحاز ـ لحظتها ـ إلى غرورنا، ونمتلئ بالأماني، وبالرغائب، وبالشهوات!

إن الرقصة تتسع. . . فكأن ما تمنيناه، ينتمي إلى خصائل (الجن). . . فنعتقد أننا نرى ما نريد، ونتابع من نريد دون أن يتعرف!

إن الذين يصفقون بعد انتهاء الرقصة. . . لا يشاهدون "العرق" الذي ينداح.

إن أكف هؤلاء جافة. . . كما "صاجات" ترن، ويبتلعها الصدى. . . ثم لا يبقى شيء، إلا تخدير "الإيقاع" للمرئيات والمحسوسات على السواء!

حينذاك... نفتش عن الروح!

تنتابنا دواعي البحث في فلوات "الفقد" والضياع..

نعثر أحياناً على فلسفة "العبور" إلى الحياة... ثم منها!

ولم تكن هذه الفلسفة... أكثر من "حقيقة" للعثور!

ونكتشف أن البعض قد شاقته خواطر التسامح، وخفقات الحب... فيموت بشيء آخر!!

**(٧)**

أيتها الطالعة فوق سطح العمر... المشرقة ـ شمساً ـ تسطع على سنيني:

ستحتويك أحضان دافئة... هي صادقة حينما هرعت إليك!

أرجوك ـ إذن ـ أن تفتشي في أعماقي عن ذلك الصدق!

**(٨)**

أقدم إليك في عمق هذا الصدق: ابتسامتي، ودمعتي. آهتي وشهقتي للفرح. حزني وشجني، وامتلائي بوجودك ـ الحياة.

فلا تدعي دروب النسيان تغتال خطواتي إليك...

إن خطواتي تندفع لمرة واحدة فقط.

وفي جوانحي لك: هتفة حياة.

وفي صدري رشة عطر.. لا تخسريها، لأنها أنفاسي التي أحببتك بها، ولأنها أنفاسك التي حييت بها!!

# سطر . . . بدفء النقاط البيضاء

## (١)

• أيتها النقاط البيضاء . . . في وقفة ليل:

ـ يا زينة عمري . . . في كل خطوة من دخول ليل، كان يحمل إلى مساحاتي: وجه حبيبتي!

إن الليالي لا تطول . . . لا تقصر . . .

نحن الذين نطول بالإحساس . . . ونحن الذين نقصر بالتبلد، وبالفقد، وبالتنكر!

كان الجميع يقف على ابتكار أمانيه . . . ويلون تلك الأماني، كذيل طاووس يختال.

عندما يفقد الطاووس ذيله الزاهي . . . لا بد أن يتحول إلى غراب!

## (٢)

تعالي . . . أيتها الحبيبة، المسكونة بك أضلعي!

انظريني ـ في غربتك ـ أخاصم الابتسامة، وأتآكل لحظة . . . لحظة!

إني أنشر الهمسة في فراغ الليل من أصدائك.. من بوحك.. من اختيالك.

تتبعثر الهمسة داخل هذه النقاط البيضاء...فترجع إلى صدري مثقلة بالحنين، وبالوداع، وبالموج الذي يعربد بين أضلعي!

وأتلفت.. أنادي الاكتشاف..

كأنني أقف على سور عال، يشرف على ساحة هجرتها بيوتها القديمة، وفوانيس شوارعها، وخطوات السائرين فيها... وهجرها القمر، والنجوم، والهمسات الخليلة!

**(٣)**

في غيابك.. كنت أرهن صبري في بنك التفاؤل.. وأرخي ستائر نفسي كلما انتصف الليل!

أبقى وحيداً... أبقى وحدي، انتظر بزوغ طيفك، كالهلال!

بدونك.. صرت مثل شجرة "نيم" موغلة الجذوع... تنشر شذاها الليلي، وتتساقط زهرة، زهرة.. في انتظار الصباح الذي يسجن نفحها، ولهفتها!

الليل عمر حقيقي... في الحنين. وفي الوجع. وفي الشوق. في الانتظار!

ومع ميلاد الحنين المتجدد بين الضلوع كل مساء... أناديك: أنت الشاطئ الذي احتضن أمواجي، وغسل رمالي... وأنا هذا البحر الذي استلقى هياجه على صدر الشاطئ... قريراً!

(٤)

أيتها النقاط البيضاء. . . في إشراقة فجر، حافل بالبشارة والتباشير:

هاأنذا. . أسلخ نفسي من درعها، وآتي إلى نبضك مثخناً بالعزلة!

بدونك. . . تجرحني فراغات الساعات، وأنا. . . واحة ادخرت أجمل الأغنيات لإصغائك، وأحلى الهمسات لبوحك!

قبلك. . كنت قد أفرغت العمر من الأماني، والضوء.

أخذت حقيبتي، ومضيت جوالاً، مسافراً. . تندس أحزاني في زحام الدنيا، وأنسى كيف تندمل!؟

قبلك. . . كان فطامي هو العجز الذي يحيل العشق تعوُّداً!

قبلك. . كان عزوفي هو ذلك التبلد الذي يصنع الفراغ في تحديقنا!

وفي كل مشوار. . . تأخذه "الآه" مدارها في نفوسنا، وترتطم باليأس!

قبلك. . . ودعت دروبي، في مساء توقفت فيه الضحكات. .

تركت الروح، والنجوى، والجوانح في القفار. . .

وعدت إلى وجوه الناس. . . يتيم الروح!

(٥)

أيتها النقاط البيضاء. . . في صدق بوحي وأنغامي:

أنت التي فتحت خزائن قلبي، وجوارحي. . . وامتلكت كنوزها.

صرت معك. . . أكتب أغنيتي، كلمات من شموسك!

صرت معك. . . أبدع لحنها، أنغاماً من ظلال أمسياتك!

ـ وتسألينني حيناً: لم كل هذا السكوت؟!

ـ وأجيبك كل حين: لأنني أتوالد في صوتك كالبروق...

لأنني أحمل همساتك في صدري القديم... كالمزن!

فهل كنت تعلمين ـ يا حبيبتي ـ إنني سيد جنونك؟!

هل كنت تعرفين ـ يا حبيبتي ـ إنني هاجس استراحتك المتخفية في التعب؟!

وأنت أيضاً ـ يا حبيبتي ـ طريقي إلى اختراق الأزمنة...

أنت التي رضيت أن أستريح في جنونك...في هروبك الأحياني... في غضبك العاشق لي... حتى تشرق ابتسامتك صبحاً على شواطئي!

(٦)

أيتها النقاط البيضاء... في كل مواسم أسفاري:

أعلن لك... من أجلك: إنني قد توقفت عن السفر!

بحثت عن أنفاسي اللاهثة... أود أن أستردها منك بعض الوقت، لأعيدها إليك كل الوقت...

حتى لا ترمينا لحظة النوى المفاجئ عند شاطئ مهجور!

أعلنت لك رفضي لهذا "الزمن الصغير"... حين بدأت به التخفي في التعب!

أعلنت لك: أن خفقاتي لم تكن ضالة... طوال بحثها عنك، وندائها عليك...

لكنني ـ أمامك ـ دائماً... أفرغ جروحي، وأتوحد في عينيك!

(٧)

أيتها النقاط البيضاء. . . التي أخاف عليها من استهلاك الحروف لها:

كان تعبي. . . يكسر ساعاتي، ويذرو أغنياتي في أجران الحزن!

كان اختبائي. . . يطمس روحي، ويبدد أنفاسي في مبخرة المساء!

وحين انتشر وجه حبيبتي في لا مدى سمائي. . . وجدتها القمر، وأنا ضوءها!

وجدت ـ حبيبتي ـ الوطن. . وأنا مساحتها!

وجدت ـ حبيبتي ـ السماء. . . وأنا رعودها، وسحبها، ونجومها!

وجدت ـ حبيبتي ـ المطر. . . وأنا الأرض التي تتلقى ارتواءها، فتزهر!

وعندما احتضنت كفاي يدها الدافئة/ اللجوء، سكبت شفتاي عليها قبلة الرجاء / العهد!

وعندما سكنت يدها في دفء كفي كعصفور. . . كنت أزرع في حدقتي عينيها الأمان، والوعد، والغد!

قلت لها حين طال جلوسها في دائرة الشك بحبي:

ـ إنك تفرين مني إليَّ. . . وفي كل مرة أنحني لألتقط جلوسك هذا، ولا أسأم، ولا أشك في عودة يدك إلى كفي!

(٨)

أيتها النقاط البيضاء. . . الوعد:

بعد الدخول إلى جزر البهاء في عالمك الأثيري. . . اكتشفت أرضاً تنبت الربيع من صدرك!

كنت أمشي إلى البحر البعيد... أحمل رموش عيني، وصدري محارة ضائعة فوق رمال السنين!

صرت الآن أناديك: وعداً لا يخون!

بعد الدخول إلى وعد منك ينتشي بحنانك...

صرت أنادي المسافات إلى مدنك المعشبة بالحياة، وبالعطاء...

أنادي القلب الذي يضم وجهك:

ـ أرجوك أيها الخفاق.. تريث، فالحياة الأجمل معها.

حتى صارت الكلمة الصادقة.. ما بين قلبك واحتوائي!

حتى صرت هاهنا... أجلس فوق الرمال، وأرسم وجهك: تعويذة الأمل في ارتقاب الصباح!

أتوخّى ترنيمة يزرعها الحلم في صدري فألاً!

أطارد النجوم لتركض... فألحق بها، حتى تبلغ حدودك... فيسقط الشمال والغرب، في عناق البحر والموجة!

## (٩)

أيتها النقاط البيضاء... التي لا تغفو أبداً:

لقد انتصف الليل... ومازلت أرتقب "بدري" يطلع من وراء المسافات...

زجاج النوافذ مغطى بالطل، واخترق هذا السكون إلى خارج المدى... حيث يكون وجه حبيبتي!

ترى.. من يحدثني عنك الآن؟!

أهدابك. . . ماذا تحمل؟!

خرافاتك. . . كيف تكبر؟!

رعودك. . . متى تتحرر من أنينها؟!

أنت طفولتي، ورائحة فجري! أنت خيولي التي تصهل فوق أرضي التي أضاعت مسافاتها في نواك!

تعتادين نظرتي. . . كأنك الربيع في غصوني. . كأنك وأنا سُهار الحنين، نعبر إعياء النهر!

نحن ـ إذن ـ ننتظر اللحظة التي يتعرى فيها القمر من غيومه!

هنا. . . بقيت حكاية أصيلة. . .

بقيت ـ يا حبيبتي ـ أنت السيف والغمد. . . الكلام والصمت!

وبقيت أنا ـ حبيبتي ـ أحكي عنك. . . لك، تحت هذه النقاط البيضاء!!

# سطر... بدفء "حبة" رمل!

## (١)

• وحيداً فوق رمل أرجواني، في صحراء رحبة.. بلا زوايا، ولا جدار، ولا حدود!

كان يجلس مع بدء دخول المساء... وقد هرب بنفسه من نفسه.

وحيداً... معلق النظرة في نجمة المساء الحائرة، التي لم تستقر بعد.

شروده... يبعثر خواطره القلقة، وكأنه قد انفصل عن المكان والزمان، وطفق يركض نحو البعيد... هرباً، أو لحاقاً بشيء!

في ذيول نهار ميت الأنفاس، ودخول مساء يعلن عن التأمل والإصغاء.. كان نبضه يعلو، وكان ما حوله صمت يعذبه!

تلفت حوله. المساحة واسعة بلا حدود. الرمل الذي يجلس فوقه أرجواني.

الصمت حوله، وصوت فيروز ينبعث من داخل سيارته. وخيل إليه أن صوت فيروز قد انتحر في هذا الصمت.

فكيف ينتحر صوت أعطاه يوماً الإحساس بأنه يغتسل من كل كدره وغبار نفسه؟! وعلت الظلمة. حدق فيها، وقد اختفى القمر داخل

السحب. تعالت أصداء من داخل نفسه تنادي: ـ أيها الرمل الأرجواني، أيتها الأرض ـ الأصل. جحد الإنسان أصالتكما، فلم يتعلم منكما فلسفة تمسك الرمل بالأرض. رغم تناهب الريح لها: رغم العواصف والأعاصير. إنه ـ بهذا الصلب ـ لا يعني الإصرار، ولا الوفاء..

إنه ـ فقط ـ يتذوق الرمل الأرجواني.. كأن له نكهة.. إنها نكهة الأرض.

إن الأرض لا تلد البشر، لأنهم يجحدون. إنها تضخم البشر رفاتاً، لتبقى الأرض بعد ذلك حبلى بأجسادهم!

**(٢)**

أضاءت وجهه دمعة.. تومض كقطرة الزئبق.

الزئبق.. تمنى أن يغتسل به يوماً، وهو متفائل أن يبرأ من جراح قديمة.

أصبح قلبه ناصع البياض، لكن حدقتيه مجروحتان!

تلفت حوله من جديد، فلم يعد يرى بالتحديد شيئاً... إلا المدى، والنجوم، والقمر، والسحب التي تخطف القمر، وتعيده في لعبة متواصلة.

ما زال الصمت حوله، والصدى يرجع إليه من عهد قديم صوت "ثومة" وهو يردد:

ـ "ولا يعرف الحزن مطرحنا، ولا يجينا"!!

حدق في الظلمة أمامه، وقد اختفى القمر في تلافيف السحب.

ليل طويل هذا. بقعة حبر جفت بعد أن استقرت فوقها ريشة رسام.

ما زالت اللوحة ناقصة، وهو يبحث عن اكتمال اللوحة!

لابد أن ينفي "الكذب" من عالمه، ولكن... كيف؟!

حتى العواطف تلوثت بالكذب.

في الكذب تختفي الواقعية التي يرتطم بها البشر بدوافع ادياتهم.

أصبحوا يطلقون على "الكذب" اسم وصفة: الواقعية!!

مهما كانت جودة التمثيل... فقد فشل الشيطان أن يوهم البشر أنه لم يكن شيطاناً.

الحب صدق... والكذب "علاقة" تبدأ برغبة، وتنتهي إما بشلل الرغبة، وإما بتفريغها.

إنها لحظة واحدة.. قد يأخذ

الإنسان فيها "ما رغب"... لكن هذه الحصيلة لا تمنح انتصار البهجة على الشجن المزروع في الأعماق. ولا انتصار الصدق على الكذب المتموه!

لحظات الشجن، هي ملامح الحزن المتسامي... ذلك الذي يعطي التعبير عن المحبة التي لا تموت، ولا تترمد.

إنها استشعار الإنسان لحقيقته، وهو يحب بمعانيه الصافية والأصيلة كحبة الرمل التي تتقاذفها الأعاصير، لكنها تظل متمسكة بما أحبته، والتصقت به، وتفانت فيه: الأرض!

كذلك الحب... معنى يتبلور في هذه الصورة التي قالها إنسان فياض:

ـ "حب بلا وهم، ولا خوف، ولا مبالغة. حب... يشبه قوس قزح... وقد تحول إلى تاج... يستقر على قلبين... يحس كل منهما بالآخر"!

**(٣)**

كان يتوق إلى صوت "فيروز" :

ـ "القمر بيضوي ع الناس، والناس بيتقاتلوا.

ع مزارع الأرض الناس. . . ع حجارة بيتقاتلوا"؟!

تقبض كفه على الرمل. . . فما تلبث حبات الرمل أن تتسلل من بين أصابعه، ويبقى في كفه ذلك الاختراق، والانفعال، والضياع.

كل التجارب والاكتشافات التي أجراها الإنسان على وجه الأرض، وفي أعماقها. . . لم تستغن عن ذرات الرمل، ولا عن هذا التراب.

حفر الإنسان التراب، وتوغل في التربة. . . زراعة، وقواعد لبيوت ومنشآت.

وعاد الإنسان إلى الرمل. . . إلى التراب، ليجعلها أديماً، وغطاء!

في داخل النفوس تكتشف. . .

ومن داخلها يأخذنا الفرح، والغرور. . . فنستزيد منها ونرتطم.

ومن داخلها. . . يمتصنا الحزن. والضعف. . فنستزيد من التجارب!

لكن طبيعة النفس تبقى دائما كحبات الرمل. . . . وتبقى أصالة الإنسان هي نتيجة تلك التجارب.

والأماني لا يمكن أن تتحول إلى تجارب. الأماني مفتاح الحرية.

إننا بذلك نحيل أمانينا إلى "رقيق" يخضع لرغباتنا!!

**(٤)**

تحيا أحاسيسنا ـ إذن ـ من موت محقق. . . بجرعة حب.

تصبح سرمدية حينما تعيش على أديم الرمل النقي، الرافض للكذب.

ويرتبط الرمل ـ غالباً ـ بالذكرى:

"كم بنينا من حصاها أربعاً    وانثنينا فمحونا الأربعا
وخططنا في نقا الرمل فلم    تحفظ الريح، ولا الرمل وعىٰ"!

وينغمر الإنسان أحياناً في أقنيته المتعددة.

الأقنعة مرهونة بوهن "الخيط" الذي يشدها على الوجه، والذين يرتدون تلك الأقنعة لا يتأكدون من متانة الخيط... من قدرتهم على ما يريدون بهذه الأقنعة!

**(٥)**

كانت أصابع يده تداعب حبات الرمل... وقد طافت به خواطره في هذه النفسية، والشعورية.

وتمطت ساعات الليل. لزجت أنفاس الصمت.

شعر أن الحياة عادت إلى هذا الليل بطيئة.

أراد أن يتأمل نفسه من الداخل. أن يشاهد أعماقه.

لم يعد ذلك الميت في الصمت والوحدة، حين قذف نفسه على الرمل مع بداية المساء.

ربما انتصر الأمل في وجدانه من جديد... وهو يتأمل، ويتوحَّى، ويسترجع... عبر هذه الرحلة.

ربما أعادت أنفاسه المتقدة: الروح إلى الليل.

كثير من أشيائنا التي تموت برفض الآخرين الذين أحببناهم. . . تحيا من جديد بتسامحنا!

**(٦)**

عاد يتوق إلى صوت "فيروز" وهي تردد:

ـ "يا شعرها الناطر شي إيد تجدلو.

بعدك صغير عالمحبي، والعتاب"!

أفاقت معانيه كلها. . . كأنها تحادثه:

ـ مستحيل أن يقدر الصمت على قتل الأمل.

(صوت ـ فيروز ـ في أحاسيسه: جرعة من وريد الليل. . . يحييه من جديد).

ـ مستحيل أن تتطاول سلبية الصمت، ووحشية الليل في الوحدة، فتخنق الآهة. وتمنع تجول الخفقة، وتصادر التفاؤل.

لم يكن رومانسياً في مشاعره بالقدر المكثف. كان حزيناً فقط!

كان عاشقاً. . . وهذا هو منطق الأمل: المبدأ وفاء. لم يكن الوفاء مبدأ!!

منطق الأمل: أن نحب!

لكي نحب. . . علينا أن نحافظ على مناخ النفس. . . حتى لا تصيب البرودة قلوبنا!

(٧)

امتلأت كفه ـ هذه المرة ـ بحفنة من الرمل.

تلاصقت أصابعه.. فتعذر على الرمل أن يتسرب من بينها.

ابتسم في كثافة الصمت، والليل... واشرأب عنقه إلى السماء.

رأى الغيوم تفرج عن القمر، وتطلق سراح ضيائه.

رأى النجوم تطرز السماء... ولمعت حبة رمل فوق كفه.

التقط حبة الرمل التي لمعت، وخبأها في جيبه.

كان أجمل ما كسبه: موعد مع حبة رمل!!

# سطر . . . . بدفء "الحقيقة" !

(١)

• كان النهار يقظاً حتى الإرهاق. . يقظة مرهقة بكل ما فيها من أشياء تهمنا، وفي غمرتها. . هناك محاولات الناس. يطارد بعضها بعضاً، وهي لا تعدو أن تكون "مجرد" محاولات!!

والمحاولات نستخدمها في حياتنا. . . لتقنين اهتمامنا، ونجدها في يومنا، لنذلَّ ـ المعرفة ـ بها، ونطأ عنق بصيرتنا!!

مجرد محاولات. . . محاولات. . إلا أننا نعطيها مكان الصدارة من ثقتنا، تماماً مثلما "نتوسم" فهماً وخلقاً في مخلوق عرف أسلوب "الاندراج" بين الناس. . . فإذا هو لا يمكن أن يكون سوى محاولة "إنسان"، وإذا هو وسط الناس: "مختصر إنسان"!!

إننا لا نتمسك أحيانا بصلف الأخلاق فينا. . . لكننا "نحاول" فقط أن نكون أصحاب أخلاق تتسم بالصلف. . . فإما أن نتمكن من فرضها على الناس، وإما أن نبدو بها "محاولة"، والبعض يمتلك القدرة على تحويل محاولاته إلى مزاح!

ونحن لا نثق في صمود النفس والإرادة. . . إننا نخجل أن يفشل

صمودنا، لكننا بعد ذلك لا نهتم إذا تحقق الفشل... فقد أقنعنا ذاتنا أنها كانت مجرد محاولة للثبات على رأي، أو الوقوف بفكرة، من الذي يحاول أن لا يتعرض للفشل.

وفي عواطفنا ضباب... أسبابه هذا الانفلاش الذي أوغر صدر الحقائق، وشوه خطوط الجمال الإنساني في النفس، ومزق أثمن لوحة في الوجدان اسمها: الثقة!

لقد استمرأنا أن نحاول دائماً... وفي البداية كانت المحاولة تعني الاجتهاد، والمغامرة والتوثق... أما اليوم فإن أشياءنا هي مجرد محاولات. أسرارنا تحكمها "محاولة" كتمها، والإبقاء عليها. الغموض جعلناه "محاولة" لقراءة الشخصية. والتحديق في زوايا التعامل الاجتماعي، وحتى في زوايا النفس تحول إلى "محاولة" لا يهمنا كثيراً في أعقابها أن نزيد رصيدنا المشرق بين الناس، أو أن نفتح نافذة ضوء في النفس لتحيا أكثر!!

إن يقظة النهار في أعين الناس "محاولة" للتذكر... يفيق كل واحد، ويتذكر ما ينبغي أن ينجزه من عمل ليضمن يوماً قادماً لا يعرف عنه شيئاً، ويعطي للناس ما عنده من (بزنس!!)... باعتبار أن هذا انطباع الزمن، ويفكر: لماذا لا يتخابث مرة ليؤكد إلمامه بشؤون الناس في نهار كله شمس، والذين يعيشونه "يحاولون" زرع حدقاتهم في عين الشمس... مع ضرورة المحافظة على الرؤية الكاملة؟!

في يقظة النهار... يشمخ الآدمي بمقدرته على الحركة، والتنقل، وقرع المصالح، والاستفادة من نتائج البشر عندما يفكرون أن هذه حياة يلتزم فيها الواحد بنبضه، وببصره، وبشراييه، ولا بأس أن يموت معنوياً،

أو يموت خلقياً، أو يموت بالسكتة. . . فهو قد حاول أن يعيش للغد!!

وفي هذا الوضوح المرئي. . . يزعق الآدمي، وهو يسرع الخطى، وهو يبتسم، وهو يحقد، وهو يتعامل. . . يصرخ باحثاً عن الحقيقة، وقد ارتكب كل تلك التصرفات. . . محاولاً، متناسياً عدة حقائق قذفها في أعماقه، وقفل عليها غطاء الشعور الباطني!

**(٢)**

إن الحقائق لا تتلاءم مع المحاولات.

إننا لكي نؤكد حقيقة، أو نسعى للفوز بحقيقة. . . يتوجب علينا أن نتيقن من خطانا، ومن تصرفاتنا، ومن أفكارنا، ومن نوايانا كذلك. نعطي ما يتفاعل في النفس، ونمزجه بما ينعكس علينا من الآخرين. . . لنخلص إلى حقيقة لا تقبل الجدل. . .

غير أن الكثير من النفوس أعيتها المحاولات. . . فرضت عليها انطباعاً لازمها، وعليه ملامح الاضطراب. . . كما قطعة الصلصال في يد طفل يريد أن يحولها إلى شكل. . . إلى قسمات. . . إلى صورة، لكنه ليس أكثر من طفل "يحاول" وهو لا يعرف شيئاً من فن النحت، أو الرسم.

إن أمراضنا الذاتية ليست هي حقائقنا. . . بل الحقائق نفسها أصابتها عدوى المرض ذاك. . . فطمرت تحته، وتقلصت، وأصبحنا مرضى، وأصحاب حقائق ضائعة. . . لا ندري أنها في أعماقنا تئن تحت ركام من المرضى!

كل عنعناتنا وآلامنا، وشهواتنا، ورغائبنا، وطفرة الفرحة. . . كلها حالات نحياها. . . تلون ذات الحقيقة، وتعطينا حق الملكية لتلك الحقيقة.

إن الحقيقة دائماً بلورية وشفافة، وصريحة، وكاميرا تلتقط حالات الإنسان معها ـ امتزاجاً واتحاداً ـ لتكون الصورة بعد ذلك... صورة حقائقنا، وعليها حالاتنا، ومعها كل الأشياء التي ادعيناها، واختلقناها، وتألمنا منها، وفرحنا بها!!

وعلة حقائقنا ـ من بذور السوء، والحقد والإلتواء في نفوسنا ـ إننا نمرض حقائقنا بعللنا النفسية، أو المسلكية، أو كما قال الرافعي: "في النفس الإنسانية لا تمرض الحقيقة إلا من سوء التخيل فيها... كأن نعمة الخيال إنما وهبت للإنسان لتخرجه من حدود الحقائق، فيفسدها، ويفسد آثارها فبه"!!

وقبل "الرافعي"... تعاطي "جوته" نفسه، فقال: "إنني اتجرع علقماً"، ثم استطاع أن يتحرر من عقابيل كثير من "المحاولات" التي مارسها في حياته قبل أن يصبح صاحب ذهن ناضح.

وجلس ذات ليلة يتأمل حياته... كانت فتاته التي وهبها قلبه قد توارت خلف ستائر زمنية أسدلت قبل فترة قريبة من تلك الليلة، وفي وجدانه ما زال "صدى" قلبه المتهاوي إلى القاع، وما زال ذلك الصدى يؤرقه الليل، ويمضه في النهار.. كان يبحث في أحضان الليل عن "الحقيقة"... كان يتساءل:

ـ ما هي "حقيقة" هذا الصدى... هل هو شعور لم يزل يتقد، ويتألم، ويتعذب بحبها، ورحيلها، أم أنه مجرد صدى... نعتبره ذكرى لأيام كانت وغابت، كما تغيب الشمس آخر النهار، وكما يحتجب القمر قبل بزوغ الفجر؟!

لقد تعاطى "جوته" نفسه فنزع منها كل "المحاولات" التي تراكمت

من زمن، وما قاله الناس من أحاديث كانت تلاك في أفواههم كجلد العنز التي نفقت من أيام، ونزع "محاولات" الآخرين للنيل من سمعته، واسمه، وحياته. . . فكان ما نزعه قطعة فحم تسللت إلى غذائه فلم يلحظها(!!).

وحينما استلخص "جوته" نفسه. . .عادته ثانية تساؤلات عن هذا السهوم الذي يجره في ليل وديع منصت!!

(٣)

إن الليل ينتصر للحقائق دائماً.

إننا في أحضان الليل نترك الحرية لتصرفاتنا الخاصة، وهذه حقائق!

وفي الليل نفكر في الصور والخواطر، والآراء والأماني التي نداريها عن الناس كخير. . . لأنها أسرار، وهذه حقائق!

وفي الليل نفكر في الصور والخواطر، والآراء والأماني التي نداريها عن الناس كخير. . . لأنها أسرار، وهذه حقائق!

وفي الليل نمتلك شهواتنا بكل الأبعاد، وقد كنا في يقظة النهار نخبئها. . . وهذه حقائق!!

لهذا. . . وقف "جوته" ـ كما روى في كتابه "آلام فرتر" ـ أمام النافذة وتطلع إلى السماء الموشحة بالنجوم، وفكر كيف يهز هذا الصمت القاتل؟!

إن "حقيقة" من حقائقه تصفو هذه اللحظة من كل "المحاولات" التي كانت في نفسه، ونزعها. حقيقة. . . تعطي ظلالا لإكمال معاني اللوحة، وفيها يقف "جوته" يقول بكل ثقة، وإصرار:

ـ "لا يمكن أن أحيا هكذا... ليست هذه حقيقتي.. إنني أظمأ. إنني أبحث عن رواء.. عن عطاء... عن منهل لروحي، وفكري، ونفسي، أينك أنت يا حب؟!".

ويضيف "جوته" بعد ذلك ، وفي الفصل التالي... فيروي أن ذلك كان تعبيراً عن إحدى حقائقه، وهو لم يستطع أن يؤطر ذلك التعبير، وتلك الصورة بالكلمات والنطق، إلا لحظة صفائه وخلوده إلى أصالة النفس فيه... بعيداً عن كل محاولة، واقتراباً من صدق ما نشعر به، ومن حقيقة ما صاغنا كإنسانيين... نحس، ونتألم، ونفرح، ونحب!!

**(٤)**

إن البعض من البشر يعتقد أنه محافظ جداً... فيعود إلى حقائقه، ويدثرها، ويغطيها، ويهيل عليها تراكماته النفسية، ثم يقف بين الناس ويقول:

ـ إنني أخاف على حقائقي...

إنني أحافظ عليها، وأحميها من السفور والتعرض لنظرات الناس وكلامهم... لهذا أخبئ كل حقائقي بعيداً... بعيداً، وليعتبرني الناس بلا حقيقة!!

لكن هذا إجحاف بالنفس البشرية، وتسلط على إبداع الإنسان وهو يتوق أن يكون حضارياً، وإنسانياً، وخلقياً، ومدركاً لمعاني ضرورة الحياة.

إن الحقيقة ليست من "الحرملك"... إنها لا يمكن أن تكون زوجة في بيت يحافظ على "مكياجها"، ويهمل قيمتها، وفعاليتها!

لكي لا تختنق الحقائق في أعماقنا، فنموت برائحة الاختناق. . . يجب أن تكون حقائقنا عارية!

إن الحقائق ليست انبهاراً. . . نقف لنتفرج عليه، بقدر ما هي "رحم"، إذا أردناه أن يخصب، ويولد. . . علينا أن لا نكون مرضى بالعقم، أو أن لا نكون مرضى بالتخنث النفسي!!

# سطر . . . بدفء ليلة!

(١)

● من فوق سياج شرفة بيتها . . . انطلقت نظراتها تتأمل الكون الفسيح أمامها .

كانت تلملم شجونها ، وخواطرها ، وتشرد مع تأملاتها .

لماذا يخفق قلبها الآن . . ونظرتها تطارد غيمة في السماء؟!

طربت لتغريد عصفور . . . كان يحط على فرع شجرة "ينم" في فناء بيتها .

ـ همست لنفسها : هذه تباشير الشتاء . كم طال صيفنا هذا العام؟!

أم ترى هو الصيف الطويل ، الممل دائماً . . . يكتم الأنفاس ، ويقسرنا على الاحتماء منه داخل جدران غرفة . . . يضج فيها صوت جهاز التبريد؟!

كم تاقت إلى منظر الأشجار العالية التي تتراقص أغصانها بإيقاع النسمة .

تاقت إلى زقزقة العصافير . . .

هذه التي ترسل ألحانها مشتاقة .

حتى الغيوم . . . اشتاقت إليها ، لكثرة ما بقيت السماء مجلودة بسياط الشمس الصحراوية اللاهبة .

**(٢)**

هذا القادم الحبيب: الشتاء. . .

بقيت ترقبه، وتتلهف إلى لقائه!

ـ هل تحبين الشتاء حقاً إلى هذه الدرجة من الفرح به؟!

سألها. . . وهو يتأمل اتساع عينيها السوداوين كعمق الليل!

ـ أجابته: بمقدار حبي لك. أنت والشتاء واحد!

ـ قال لها ضاحكاً: يا إلهي. . . هل أنا بارد إلى هذا الحد؟!

ـ قالت: بل أقصد إنك تشكل في حياتي: بحثي عن الدفء.

أحب الشتاء، وأعشقه. . . لأنك فيه تدفئني.

ـ سألها: والصيف؟!

ـ قالت: يشعرني وكأنني بلا سقف. . . وكأنك تركض عني بعيداً.

ـ قال: فقط. . . هذا كل شيء؟!

ـ قالت: الصيف عريٌ، وتناثر، وهروب من الحرارة، لكن الشتاء سكن، واحتضان، وتوحد كالحب.

في الشتاء. . . أتحول إلى فراشة تطير من زهرة إلى زهرة.

يهطل المطر. . . فأشعر به يغسل قلبي، ويزيل همي. . . يبهجني.

أتعمد المشي، والمطر يتدفق. . . أحب التدفق، ربما لأنني صريحة وواضحة. . . فتلامسني هذه القطرات، أو الزخات لتغسل وجهي، وتغسل دموعنا.

ـ سألها: ولماذا الدموع في لحظة الشعور بالفرح!

ـ أجابت: للفرح دموع أيضاً. . . وهذه الدموع هي بطاقة الصدق، وهي أيضاً الخوف من فقد الفرح!

ـ قال لها: وهل تخافين أن نفقد معاً لحظة الفرح التي جمعتنا بكلمة حب؟!

ـ قالت: أنت الذي تخيفني!

سألها: أنا. . . كيف؟!

ـ قالت إنك لا تفتأ تردد على مسامعي كلمتك هذه: لا تتركيني. فلماذا تخاف أن أتركك؟!

شرد ببصره بعيداً. . . كأن السؤال سرقه، وطوح به إلى ذلك المجهول.

وضعت يدها على كتفه. . . تهزه، تسأله مندهشة:

ـ عمري أنت. . . هل تخاف من حبيبتك. . . من إنسانة اقتحمت عالمها المزدحم بالصور والذكريات، وسرقتها منهم جميعاً، وامتلكت خفقة قلبها لك وحدك ؟!

تطلع إلى وجهها الذي حين تشع منه الابتسامة يعثر هو على وجوده. تأملها طويلاً، خاف أن تنزلق تلك الدمعة الأثيرة من حدقتيه.

ـ سألته ثانية: أرجوك. . . أبعد كل الأوهام عنك، صدقني لا أطيق فراقك لحظة واحدة.

ـ قال: أعرف ذلك، وأحسه الآن، ولكن. . . . .

ـ قالت: ماذا؟!

ـ قال: أخاف من الغد. . . أنت رقيقة، وعاطفية جداً، وأنا مازلت أفكر في هذا الدخول السريع!

ـ قالت: تقصد. . . دخولك في حياتي، ودخولي؟!

ـ قال أقصد ذلك ولا أقصده، ولا أحكي لغزاً، ولكنني اندفعت نحوك منذ اللحظة الأولى. أحببتك بعد اللقاء الأول، وحين دثرت كفي يدك شعرت أن دمي ودمك صار شرياناً واحداً. ولحظتها تمنيت لو كانت لنا ـ أنت وأنا ـ يد واحدة، وقلب واحد، وفكرة واحدة، وخفقة واحدة.

ـ قالت: وها نحن نعيش معاً!

ـ قال: صحيح. . . لكن حياتك بما أحسه من شرودك أحياناً. . .تبدو وكأن الماضي بذكرياته، وبصوره. . . قد سرقها، فلم يعد لي في واقعك إلا هذا الهروب الذي تفعلينه من الماضي.

ـ قالت غاضبة: تقصد إنني لا أحبك. . . أضيع وقتاً معك لأرتاح وأنسى؟!

ـ قال: لم أقصد هذا المعنى. . . بل إنني واثق من دخولي إلى قلبك. فقط. . . إنني أخاف اندفاعك هذا حين يتباطأ، ومن اشتعالك حين يبرد!

ـ قالت: الله وحده يعلم، وهو الذي يقلب القلوب. لكنك لو أردتني أن أبقى بجانبك كل الوقت، وكل العمر. . . فإنني لن أسأم منك. . . أشعر أن حبي لك هو صوت نضجي، وليس صوت قلبي فقط!

(٣)

لفهما صمت غامر بعد هذا الحوار القلق. . .

كانت تضع رأسها على كتفه، وتضم يده إلى صدرها، وتهمس:

ـ أحبك. أحبك. أحبك. دعنا نسقي هذا الحب الآن، ولا تحرمنا معاً من لحظة نجد فيها نفسينا. لا تعكر صفاء وشفافية اللحظة بجدل فيه التوقع أكثر من اليقين، ومن الواقع.

انظر إلى السماء الآن. . . المطر يبث الحياة في الأعشاب اليابسة.

ـ قال: أنت هذا المطر في عمري. . . لقد أعدت الحياة والنضارة إلى أعشابي اليابسة. ولو فقدتك، فلن أعود ذلك العشب اليابس. . . لكن أرض نفسي ستتشقق، وتتلقح، وتنفطر بالشقوق.

ليست هناك فرصة أخيرة بعد الجدب، ورحيلك من حياتي هو الجدب. وحبك هو فرصتي الأخيرة مع الهناء، والفرح، والشعور بالوجود.

ـ قالت ضاحكة: تحبني بهذا القدر حقاً؟!

ـ قال: بل إن حبي لك يعيد إلى قلبي الثقة. . . يزرعني هذا الحب سنبلة عشق. وسنبلة رجولة. وسنبلة حياة، وسنبلة عطاء.

ـ قالت: لأنني أحبك. . . فتأكد أنني حريصة أن لا أضيع منك، حريصة أكثر أن لا تضيع أنت مني في زحام الحياة، فقد آنست بجانبك الحنان والحلم.

(٤)

غادرا الشرفة إلى غرفتهما.

أحكمت قفل رتاج بوابة الشرفة والنافذة.

كان المطر ينهمر بغزارة، ويصفع الزجاج، ويتدفق فوق وجه البحر. . . يختلط بمياهه المتلاطمة، وأضواء المدينة من البعيد تتموه متراقصة من بين المطر، وفوق صفحة البحر اللانهائي. . . الذي ازداد غموضه في حلكة الليل وأسراره.

وامتدت يدها لتقفل الستائر. طلب منها أن تترك هذه اللوحة بدون حاجز.

أمسك بيدها، وأجلسها بجانبه. همس في أذنها من وراء شعرها الحالك:

ـ لقد اندفعت بحبي لك ونحوك مثل تدفق هذا المطر. . . فهل تعرفين ماذا وجدتك؟!

ـ قالت مبتسمة: ماذا وجدتني؟!

ـ قال: رأيتك مثل صفحة هذا البحر. . . ممتدة، لا نهائية. . . غامضة وعميقة كأعماق هذا البحر وأسراره وغموضه.

ـ قالت: لكنك أصبحت تعرف كل شيء عني. لقد تركتك تبحر في مياهي العميقة بحرِّية، بعد أن أجليت من فوق مياهي كل القراصنة، وكل البحارة، وكل السفن، وبقيت وحدك الصارية البيضاء المرفوعة، والمسافرة فوق بحاري. . . وبقيت أنا لك كل مسافاتك، وبحارك، وسفرك، وشواطئك.

ـ قال يسألها: وأعماقك؟!

ـ قالت: كل ما تبقى في أغوارها حطام، وبقايا، ورواسب.

ـ قال ضاحكاً: ولكن الشاعر حكى بلسان البحر قائلاً: "أنا البحر في أحشائه الدر...."!

ـ قالت: الشاعر كان يقصد "اللغة" التي وصفها وكأنها البحر.

ـ قال: ولكني أود أن أغوص في أعماقك ـ البحر... لأجد اللآلىء، والدر.

ـ قالت: حتى أعماقي تريد أن تمتلكها كقرصان؟!

ـ قال: أريد أن أزيل منها الرواسب، والبقايا، والحطام... ليبقى الدر، وتبقى اللآلئ فقط.

ـ قالت: وتبقى أنت وحدك... أليس كذلك؟!

ـ قال: لن أكون وحدي... بل يكون عمقك هو الأكبر، وهو الذي يحتويني، وهو عالمي الكبير والشاسع.

ـ قالت: ألا تعتقد أنك تطالب بأنانية مطلقة؟!

ـ قال: الحب أناني يا حبيبتي، ورغم ذلك... فأنا أطالب بطفولتك، وبقوتك... بينما هذه الرواسب والبقايا تعكر طفولة بحرك، وتؤثر على قوتك!

ـ قالت: إن الإنسان يقوى بالحب. وحين أحببتك استعادت أعماقي طفولتها، وفرحها، ورحابة اتساعها.

**(٥)**

رفعت كفه إلى شفتيها، وقبلتها. ولمست بإصبعها خطوط كفه المتعرجة.

ـ ابتسمت تسأله: ألم يقرأ لك أحد كفك؟!

ـ قال: لا أحب ذلك. . . حتى لا يتسلط الإيحاء عليَّ، ويقيدني في ترقُّب لا أعترف به.

ـ قالت: خط العمر في كفك طويل!

ـ قال: يهمني أكثر أن يكون خط حبي في قلبك أطول!

ـ قالت تعطيه يدها: انظر إلى خط العمر في كفي. . . كيف تراه؟!

ـ قال: إنني أرى خط عمر حبي لك في كفك. . . وأخاف!!

ـ قالت: تاني. . . ألم ينته الحوار بيننا في هذا الموضوع؟!

ـ قال: لا أريد أي شيء أن ينتهي بيننا حتى الغضب. . . حتى العتاب. . . حتى الخوف يا حبيبتي.

ـ قالت: تخاف مني أيها البحار المناكف؟!

ـ قال: بل أخاف عليك. . . أنت البحر الذي تتلاطم أمواجه.

ـ قالت مندهشة: مم تخاف عليّ؟!

ـ قال: أخاف عليك من موجك المندفع.

ـ قالت: لئلا يحطم سفينتك، ويغرقها؟!

ـ قال: لا أحب أن أتحول بعد ذلك إلى بقايا، ورواسب، وحطام في قاع بحرك!

ـ قالت: إذن... فأنت تخاف مني، ولا تخاف علي!

ـ قال: بل أخاف عليك من تراكم الرواسب، والبقايا.

ـ قالت: أنت الآن لا تحبني.

ـ قال: أحببت الحب، لأنني أحببتك... ولا أريدك أن تدفعيني لأن أكره نفسي، وعمري... فأنت نفسي وعمري.

**(٦)**

توقف المطر. سرت رعشة خفيفة هزت جسمها.

التصقت به، وأحاطته بذراعيها... وعلا صوت الموج يرتطم بصخور الشاطئ.

غطى شعرها الأسود وجهه!!